المحامي الدكتور أحمد عمران الزاوي

جولة في كتاب نولدكه

تاريخ القرآن

قدم له العماد أول

مصطفى طلاس

الكتاب الأول

http://kotob.has.it

http://kotob.has.it

دمشق: منطقة المزة(٣) ـ حي الجلاء(٥) شارع كعب بن مالك
(طلعة الإسكان سابقاً) بناء رقم(٢) ـ ص.ب: ١٦٠٣٥
هاتف: ٦٦١٨٠١٣ ـ٦٦١٨٩٦١ تلفاكس:٦٦١٨٨٢٠ ـ برقياً: طلاسدار
E-mail:info@dartlass.com

مكتبة دار طلاس ـ دمشق ـ مجمع فكتوريا ـ تحت المصرف التجاري فرع ٩ ـ هاتف: ٢٣١٩٥٥٨

ريع الدار لهيئة مدارس
أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

http://kotob.has.it

المحامي الدكتور أحمد عمران الزاوي

جولة في كتاب نولدكه

تاريخ القرآن

بعض المستشرقين حينما يكتبون عن العرب والإسلام يكتبون بالمطارق، لا بالأقلام.

الكتاب الأول

قدم له

العماد أول مصطفى طلاس

http://kotob.has.it

الآراء الــواردة في كـتب الــدار
تعبــر عــن فـكـر مؤلفيهــا
و لا تعبر بالضرورة عن رأي الــدار

الطبعــة الأولــى: ٢٠٠٨

رقــم: ٩٥٠٤٦_تاريــخ: ١٢/٤/٢٠٠٧

رقــم الإصــدار : ١٠١٦

جميع الحقوق محفوظة لدار طلاس

http://kotob.has.it

لن يطفئوا نور الله

كثيرة هي الكتب التي تتصدى للردّ على أقوال المستشرقين وتفنيد أقوالهم ومزاعمهم، حتى صار من الشائع المألوف في كثير من العواصم العربية والإسلامية إقامة المؤتمرات والندوات بصورة شبه دورية للردّ على شبهات وافتراءات ودعاوى المستشرقين، فالقراءة الغربية للقرآن الكريم تحاول القراءة الخاطئة، والتفسير الخاطئ، وتقديمه إلى القراء على طبق من الأخطاء، لذلك كان لا بد من تصحيح قراءاتهم وكتبهم من خلال إعداد الدراسات والمقالات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، لدحض ما يثيرون من مشكلات ناجمة عن سوء النية أو الجهل بالتاريخ والوقائع، وأحياناً يحتدم الجدال بعنف كلما ظهر جديد يتعلّق بالإسلام ونبيه الكريم محمد (ﷺ) وبخاصة في العالم الغربي، الذي ينشط إعلامه في إيصال مراده إلى المجتمعات الإسلامية، ويبدأ الاحتجاج دفاعاً عن شخصية الرسول الكريم، وعن الإسلام والمسلمين بصورة عامة.

وليس جديداً ما يحدث في أيامنا المعاصرة، فقد بدأ نشاط حركة الاستشراق الذي كان في جانب منه يغذي الصراع العقائدي مع الغرب، وتصل أساليبه في بعض الأحيان إلى درجة العنصرية، فتظهر المزاعم والإفتراءات من جانب الغرب، وتعلن الردود من منظور إسلامي بعناوين واضحة وما أكثرها، بدءاً من كتابات مصطفى السباعي في «الإسلام والمستشرقون» ومروراً بأدوار سعيد العَلْمَاني في حديثه عن الاستشراق ومناهجه حتى وصل الأمر إلى كاتبنا الضليع في التصدي لهذه الإفتراءات الدكتور المحامي «أحمد عمران الزاوي».

مما لا شك فيه أنّ هناك تراثاً من الشك والإرتياب تجاه المستشرقين بصفة عامة، فالمسلمون من حيث المبدأ يتشككون عندما يأتي باحث غربي يتحدث عن الإسلام، لاعتقادهم بأن العرب والمسلمين وحدهم يستطيعون ذلك لمعرفتهم باللغة العربية وأسرارها، إلى جانب ذلك هناك اعتقاد بأن نظرة الغرب المعادية للإسلام متجذرة وقوية ومنكرة لكل فضل سابق في ميادين العلم العربي الإسلامي ومعارفه.. وللإنصاف لا بد من أن نذكر تأثر الاستشراق الواضح

http://kotob.has.it

بعد أن قرأ قصة الحروب الفرنجية التي خاضها الغرب باسم الدفاع عن الأراضي المقدسة في بلاد المشرق، وقصة الأتراك في غزوهم للغرب، فعند دراستنا للإستشراق يجب ألا نغفل هاتين القصتين اللتين مازالتا محفورتين في الذاكرة الأوربية، إذ كانتا محرك الاستشراق الذي تظاهر في بداياته أنه منطلق من منطلق علمي استقصائي، دون أي هدف عدائي، والكثيرون منا ومنهم يذكرون ما قاله «غورو» في أوائل عشرينات القرن الماضي، حينما وقف عند قبر صلاح الدين في دمشق وقال بصوت جهوري حاقد «لقد عدنا يا صلاح الدين» رداً على إخراجهم من ديارنا، «فغورو» تكلّم بلسان الغرب كافة.

واستطراداً في موضوع النظرة إلى هذا الشرق، لا بد من تذكر واقع المجتمع الغربي، وتأخر المجتمع العربي الإسلامي، هذه الحقيقة التي كان لها تداعياتها، إذ أثرت حتماًعلى موضوعية المستشرق وعلميته، كما أثرت بالمقابل في آلية الردّ عليه، فللشرقيين أسبقيتهم الحضارية في التاريخ، وللغربيين استعلاء تقدّمهم الحضاري على التاريخ، وإن الحديث عن كيفية انفعال العقل العربي بالاستشراق له أسباب تتعدى المحتوى النظري لمستشرقين وصفوا حال الشرق بطريق ضُمِّنت تصوراً مضمراً عما يجب أن تكون العلاقة مع الشرقيين، وبخاصة إن تأثير الاستشراق في العقل العربي أدّى بصناع السياسة الغربية إلى الإعتماد عليه لإعداد خطط عملاتيه، كما حدث بعد أحداث الحادي عشر من أيلول، فعلى أثر الهجوم تعرّض العرب والمسلمون في الغرب عموماً وأمريكا خصوصاً لحملة اضطهاد جماعي قبل أن تنجلي شبهة فاعليه ومرتكبيه، وقبل أن تتضح حيثياته وظروفه. وما ينجذر في السياق الإيديولوجي من مواقف أدّت إلى هفوة «بوش» عن حملة صليبية، وصراحة «برلوسكوني» رئيس وزراء إيطاليا الغاشمة بالإعتبارات السياسية عن تفوّق حضارة الغرب الذي ينظر إلى العلوم الشرقية، على أنها تندرج ضمن مسيرة التقدّم النوعي العلمي في كل المجالات. ولذلك أرى أنه لابد من الإقرار بصعوبة التصدي لموضوع واسع ومتشعب كالاستشراق، وهذا من شأنه تذليل هذه الصعوبة.

وأخطر ما في موضوعات الاستشراق هو الحديث عن القرآن الكريم فنظرتهم إليه ليست كنظرة المسلمين، فالقرآن عند المسلمين كتاب ديني مقدّس، منزل على رسول الله (ﷺ)، يغذّي الإيمان ويبعث في الأرواح المؤمنة

http://kotob.has.it

الطمأنينة الأبدية، ولكنه عند غير المسلمين فالقرآن كلام يخاطب الناس، ويقرؤونه كما يقرأون أي كتاب في اللاهوت أو الفكر أو الأخلاق، ويتعرضون لنقده ومحاكمة مضامينه حسب قناعاتهم وأفكارهم المسبقة، بل يذهبون إلى أبعد من ذلك، ولا يرون فيه أنّه خطاب السماء للأرض كما يعتقد المسلمون، ولا وحياً منزلاً من ربّ العالمين، ودراسة القرآن بوصفه نصاً مثل أي نص آخر يخضع في نهاية المطاف إلى تحليلات لا يمكن أن يقبلها الإنسان المسلم، كما لا يقبل النظر إلى شخصية الرسول الكريم محمد (ﷺ) كإنسان مثله مثل الآخرين، وبدل أن يبذل جهد نبيل يقوم به بعض أتباع الديانات السماوية من الكتاب المستشرقين باتجاه زيادة وعي ما هو مشترك بينهم، فالغربيون يفتشون عن نقاط الاختلاف لمناقشتها والتشكيك بمصداقية القرآن.

يُعَدُّ «نولدكه» رائد المستشرقين الذين خدموا أهداف الغرب بجد وإخلاص، وقدّم هذه الأهداف بالإفتراء والتشكيك. لم يقرأ «نولدكه» القرآن الكريم ككتاب منزل بل كنص وضعه النبي نتيجة إلهام، منطلقاً من مبدأ «بشرية القرآن» لذلك أخذ يلتمس مصادر أخرى غير الوحي، حاملاً منطلقات وأهداف متميزة، وأحكاماً مسبقة، وأغلب الموضوعات التي أثارها حول القرآن، وعمل جهده على تثبيتها في اذهان الغرب، مدعياً تحريف القرآن وتناقضاته، مثيراً موضوع جمع القرآن وأصوله، وناكراً الوحي الإلهي وغير ذلك مما ورد في كتابه «تاريخ القرآن» متجاهلاً عن قصد أن القرآن الكريم قد وصلنا منذ أربعة عشر قرناً إلى أيامنا هذه دون أن يتعرض لأي تحريف أو تبديل. وبالتالي لم ينظر بموضوعية علمية إلى شخصية الرسول الكريم (ﷺ) وهي معروفة بكل تفاصيلها لقومه، ولو كان لديه شيء مما يدعيه «نولدكه» لكان أول مأخذ أخذه عليه مشركو قريش وجل ما استطاعوا أن يتهموه به أنه شاعر أو ساحر أو الخ.. وهو غير ما زعمه المستشرقون وعلى رأسهم «نولدكه».

فنولدكه ينطلق من أفكار لدودة شربها منذ الطفولة كما يقول الدكتور المحامي «احمد عمران الزاوي» وإلا كيف نفسّر قناعته بجنون الرسول (ﷺ) الذي يقول عنه «مايكل هارت» إنه أعظم رجل عرفته البشرية، ويضعه في أول الأوائل المئة الذين مروا في تاريخ الإنسانية، فكل شدة غير مستقرة تذهب

http://kotob.has.it

مثلما تأتي، لم يجر وصفها بالصرع أو بالجنون أبداً وبخاصة أنها تنقشع عن معجزات في المباني والمعاني التي ينكرها «نولدكه» وأمثاله من الذين يحاولون الوصول إلى الهيمنة على الشرق، وتأمين مصالح الغرب الجانية..

وأخيراً لا بد من تقدير الجهد الذي بذله مؤلف كتاب «جولة في كتاب نولدكه ــ تاريخ القرآن» لمؤلفه المحامي الدكتور أحمد عمران الزاوي الصديق الغالي على القلب.

فما يقدمه في كتابه من زاد معرفي، وتصحيح منطقي وإنصاف للحقيقة التي يريد إخفاءها المغرضون من المستشرقين أمثال «نولدكه»، وهي نسف المرتكز الأساسي لحضارتنا ومعتقداتنا.. وإنني أترك للقارئ الغالي الانتفاع من قراءة الكتاب لما فيه من حقائق تدحض الإفتراء والتشكيك، وترد كيد الحاقدين إلى نحرهم.

والله من وراء القصد..

الشام ٢ أيلول ٢٠٠٧

العماد أول

مصطفى طلاس

http://kotob.has.it

مقدمة توضيحية

عُرضَت عليَّ مؤخراً ترجمة عربية لكتاب «تاريخ القرآن» للمستشرق الألماني «تيودور نولدكه». حيث قام بترجمته إلى العربية الأستاذ جورج تامر في شهر تشرين الأول من عام ٢٠٠٤.

لقد وضع المترجم مقدمة لترجمته. امتدت أربع عشرة صفحة تحدث فيها مطولاً عن الظروف التي مرَّ بها الكتاب بأجزائه الثلاثة.

كما تحدث مطولاً عن ابتداء الزمن الذي عاصر اهتمام الغرب بالقرآن وأوضح أنه يعود إلى ما قبل نولدكه بعدة قرون.

وقال:

منذ النصف الأول للقرن الثاني عشر بدأ ذلك الاهتمام. حيث قام الأديب الإنكليزي «روبرت الكتوني» بترجمة القرآن. استجابةً لتكليف بطرس المبجَّل. ثم توالت الترجمات حتى القرن الثامن عشر.

وكان يرافق، ويتلو ترجماته، كتب تهاجم القرآن، وتبين مدى تعارضه مع الكتاب المقدس. حتى إن «مارتن لوثر» الأب الروحي «لطائفة البروتستانت» و«داعية الإصلاح الديني منذ بدايات القرن السادس عشر» نصح القساوسة بدراسة كتاب الراهب «الدُّومينيكاني» ريكولدو دامونته كروتشيه الذي كثَّف اهتمامه على المواضيع التي يختلف فيها القرآن عن الكتاب المقدس ووصفها «بالتجاوز» والمواضيع التي يتفق فيها مع الكتاب المقدس ووصفها «بالسطو» وأكد أن كليهما الاختلاف والاتفاق دليلان حاسمان على أن القرآن لا علاقة له بالسماء بل هو صناعة بشرية قام بها محمد (ﷺ) بمعونة الآخرين من يهود ونصارى وسواهم. وقد برر لوثر نصيحته. بأن التعمق في كتاب «كروتشه» والتمعن فيه جيداً يساعد القساوسة على شرح ضلالات الإسلام وعيوب القرآن والنأي بالمؤمنين عن مناخ الفساد.

ويضيف المترجم:

كان الوجه الأسود للنظام التركي الذي اخترق أوروبا هو ما تعرفه تلك القارَّة عن الإسلام وكتاب الإسلام. فما كان من تواصل بين أوروبا وبين الإسلام.

http://kotob.has.it

إلا عن طريق الأتراك الذين لم تحفظ عنهم ذاكرة تلك القارَّة غير الفساد والعنف والتعصب.

وفي قناعتنا:

أن المترجم الذي لم يتعدّ جانب الصواب كثيراً كان محابياً للأوروبيين. ومبالغاً في الانتقاص من الإسلام.

فقد تناسى أن المسلمين بكتابهم وشريعتهم وعدالة نظامهم ظلوا في أسبانيا حتى نهاية القرن الخامس عشر يحكمون تلك الأصقاع التي تواجد فيها المسيحيون واليهود، المطرودون من بلدان العالم وقد تمتعوا طيلة ذلك الحكم بحرية التجارة والصناعة والصيرفة وممارسة الطقوس الخاصة. حيث اعتبر المنصفون من مؤرخيهم ومفكريهم أن تلك الفترة كانت أزهى فترات تاريخهم الطويل لذلك:

كان على المُتَرجم أن يبحث عن الأسباب الحقيقية، التي دفعت كروتشه إلى التهجم على الإسلام والانتقاص من كتابه. غير السبب التركي.

لأن من يقرأ تاريخ ذلك الزمان. سوف يجد أن الخذلان الصليبي الذي انتشرت روائحه في القرن الذي جاء فيه «كروتشه» إلى المشرق حيث كانت حملات «ركن الدين بيبرس البند قداري» ضد من تبقى من الصليبيين بعد حطين، وأخبار «عين جالوت» التي انهزم فيها جيش المغول. ماثلةً في أذهان الناس جميعاً. أضف إلى ذلك أخبار الملك المنصور «قلاوون» ومطاردته للصليبيين. ثم ابنه الأشرف الذي ظل يحاصر عكا حتى افتتحها في أيار سنة ١٢٩١ م ثم سقطت بعدها صور، في ١٨ أيار وصيدا في ١٤ تموز وبيروت في ٢١ تموز، وأسدل الستار على العصر الصليبي الأسود.

فالصليبيون، الأوروبيون بمن فيهم المبشرون، كروتشه وسواه كانوا ينزفون لوعةً وأسىً على ما آلوا إليه.

لقد كان على المترجم العربي:

أن يعتبر الهزائم الصليبية التي عاصر أواخرها المأساوية كروتشه والتي سبقت لوثر بأكثر من قرنين من الزمن. في مقدمة الأسباب التي زرعت الحقد الأوروبي على الشرق العربي الإسلامي. وألا يغفل عن فترة الحكم الإسلامي في الأندلس. التي استمرت في نهاية القرن الخامس عشر وامتازت

http://kotob.has.it

بأقصى حالات التسامح الديني والعدالة بين أبناء البلاد ومحو أي فرق في المواطنية بين المسلم وبين أي يهودي أو مسيحي وخاصة في القرون الثلاثة «الثاني عشر» و«الثالث عشر» و«الرابع عشر».

نعم: كان على المترجم ألا ينسى.

أنه في ذلك الزمن، الذي كان ينعم فيه جميع أبناء أسبانيا على مختلف طوائفهم بأقصى ظروف العدالة والأخلاق.

كانت المذبحة الكبرى التي قام بها الصليبيون ضد مسلمي المسجد الأقصى والتي بلغت سبعين ألفاً – كما يقول فيليب حتيّ» في كتابه «تاريخ العرب»[١] وابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ»[٢] لا تزال فظائعها ماثلة في الأذهان.

ومع أن المترجم في مقدمته نفى الأسباب العلمية عن دراسة «نولدكه» القرآنية فقد ذكر أن «الحروب الصليبية» و«التهديد التركي لأوروبا» كانا من أهم الأسباب التي دفعت بالفكر الأوروبي إلى التحيز عند قراءته للفكر العربي ويمكن أن تعزى إليها أسباب التهجم على الإسلام والمبالغة في الدفاع عن المسيحية لقد كان جديراً به. بعد أن قرأ قصة الصليبيين مع هذا الشرق وقصة الأتراك مع الغرب. ألا يغفل عن أن هاتين القصتين اللتين مازالتا محفورتين في الذاكرة الأوروبية كانتا محك الاستشراق، الذي تظاهر في بداياته أنه منطلق من منطلق علمي استقصائي. دون أي هدف عدائي.

وسوف نفرد للاستشراق فصلاً نتحدث به عن بواعثه الأولى. وعن تطور غاياته. من حالة الخفاء إلى الظهور. ومن الغاية العلمية إلى الغاية الاستعمارية الثأرية.

على أن خطأ المقدمة في تغافلها عن الأهداف الحقيقية للاستشراق لن ينسينا عرضه لما جرى من تبدل على قراءة القرآن فيما بعد[٣] ولن ينسينا حرصه على التذكير دوماً بأن ذلك التبدل، والاهتمام الكبير كانا بسبب الإعجاب بشخصية محمد (ﷺ). وبلاغة القرآن. باعتبارهما صناعة بشرية مميزة.

---

[١] ص ٧٢٨.

[٢] ص ١٩٤ ــ ج ١.

[٣] جوزيف فون همريود غشتال الذي أصدر في فيينا بين ١٨٠٩ و١٨١٨ مجلة كنوز الشرق التي اتخذت لها شعاراً الآية ١٤٢ ــ من سورة البقرة.
ــ ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

http://kotob.has.it

وتنتقل المقدمة بعد أربع صفحات إلى كتاب نولدكه لتقول:

ـ إنه وثيقة تاريخية ولغوية. إذ لا يتقيد بترتيب الإسلاميين للسور بل يرتبها وفق الأحداث التاريخية التي تشكل لديه معالم ثابتة.

ـ لم يقرأ «نولدكه» القرآن ككتاب منزل بل كنص وضعه النبي محمد (ﷺ) نتيجة إلهام[1] ولكنه يعود فيقول ـ أي المترجم «لابد من التنويه بأن «نولدكه» وتلميذه لم يشككا في صدق النبي (ﷺ) بل اعتبراه نبياً حقاً لاشك في صدق الخبرة الدينية الخاصة التي عاشها».[2]

ـ في الجزء الأول من الكتاب تبنّى «نولدكه» تقسيم السور إلى مكي ومدني. لكنه يوزع السور المكية إلى فترات ثلاث تطورت فيها لهجة الخطاب من حيث الهدوء، والسجع، والحرم وفي المدينة، أي بعد الاطمئنان والاستقرار عالجت السور شؤون الجماعة. من حيث «العبادة» و«التشريع» و«التنظيم».

ـ أما الجزء الثاني فقد بحث الأسباب والتواريخ والظروف التي مر بها القرآن أول مرة. وتصحيفه فيما بعد. واستقراره على وضعه الرسمي حتى الآن منذ أن وضعه عثمان.

ـ أما الجزء الثالث فقد خصصه لتاريخية النص القرآني والتعريف «بالقراء» و«أنظمة القراءة».

ثم يترك المترجم الصفحات الخمس الأخيرة من المقدمة لامتداح الكتاب. وإبراز محاسنه وتقريبه إلى الأذهان، كأثرٍ علمي حيادي قد لا يتفق مع معطيات الإيمان ولكنه يعالج شخصية النبي (ﷺ) وقرآنه من زاوية إنسانية لأن الإلهام والوحي يتعدى قدرة العقل البشري.

الوحي والإلهام هو القدرة التي دفعت موسى وعيسى والأنبياء الآخرين بمن فيهم محمد (ﷺ) إلى قول ما قالوه وفعل ما فعلوه.

ولكن الوحي ظل حتى الآن فوق قدرة العقل البشري.

---

(1) الإلهام هو في العربية الوحي أي ما يلقيه الله في النفس فيبعث صاحبها إلى العمل أو الترك ـ يخص به من يشاء من عباده . (لسان العرب)

(2) نلفت النظر إلى تأكيده على نبوة محمد (ﷺ) وإلى ما كان قد سبق من قوله عن بشرية الرسالة والقرآن.

http://kotob.has.it

فجميع ما جاء به الرسل والأنبياء. بدءاً بموسى وخلفائه وأنبياء بني إسرائيل وعيسى والرسول محمد إنما كانوا يسيرون، ويخطبون ويخاطبون بقوة هذا الوحي.

أي: جميعهم كانوا بشراً. ولكن ألهموا من قوَّة لم يدركوها.

ـ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ..﴾ (الشورى: ٤٢/٥١).

ـ «في الشهر السادس أُرسِلَ جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داوود اسمه يوسف واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقالَ: سلام لك أيتها المنعم عليها، الرب معك، مباركة أنت في النساء... لا تخافي قد وجدتِ نعمةً عند الله وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً تسمينه يسوع..» (لوقا ـ ١/٢٦ ـ ٣٣).

ـ «أما موسى فقد ساق غنم يثرون كاهن مديان، إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط العليقة فنظر وإذ العليقة تتوقد بالنار ولم تكن تحترق فقال موسى أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم فلما رأى الرب أنه مال ناداه الله من وسط العليقة: موسى موسى. لا تقترب أخلع حذاءك لأنك في مكان مقدس...» (الخروج ـ ٣/١ ـ ٥).

هنا وكيلا يخطئ بعضهم يبادر إلى التأكيد:

على أن المؤلف في دراسته للقرآن «سوراً وآيات» والوقوف طويلاً عند المكي والمدني. واستنباطه تاريخ نزول الآيات، «آيةً آية» واستعراضه الطويل للقراء والكتبة، ونقده لتراكيب القرآن اللغوية والبلاغية وتعليله للتفاوت في نبراته الايصالية، إنما كان عالماً فقط، ينطلق من منطلقات علمية مدركة تمام الإدراك سلفاً. أن السماء ليس لها أية علاقة بمحمد ولا بالقرآن الذي بلغه إلى الناس.

والمترجم كان صادقاً في تقديم المؤلف.

كما إن المؤلف لم يكن في حاجة إلى إطلاق بالونات التأكيد كلما حانت لحظة كلامية فلو كان يتكلم عن موسى والتوراة لما تجاوز بحرف واحد أقوال متى في إنجيله عن لسان السيد المسيح:

ـ «ماجئت لأنقص الناموس والأنبياء جئت لأكمل فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل»... (متى ـ ٢/١٧ ـ ١٩).

http://kotob.has.it

ولو كان المؤلف مسلماً لما خرج عن تعاليم القرآن، فيما يتعلق بالأنبياء وكتبهم:

ـ ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ (النساء: ٤/١٧١).

ـ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢/٢٨٥).

ثم لن يجد مؤلفاً يهودياً تحدث عن المسيح ولا عن الأناجيل بشيءٍ من التقديس. ولو كان مغرقاً في الجدية العلمية. لذلك:

وخوفاً من ردود الفعل التي قد تصدر عن أعداد صغيرة من المسلمين. احتمى بقول نسَبَه إلى ابن رشد. وهو نسب مشكوك فيه لأن القول جاء على شكل قاعدة دينية وزعت الثواب. وهذا من عمل الله ومن إخبار النبي (ﷺ) أما القول فهو: «إن العالم إذا اجتهد وأصاب فله أجران وإن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد» مكسباً نفسه أجْر العالم بهذا القول وإن تصرَّف خطأ.

ولكن... ما حاجته للأجر والثواب الإلَهي، هو يبحث ـ كما قال ـ في كتاب ليس لله فيه أي نصيب أو خبر.

إن إيراده قول ابن رشد على فرض صحة صدوره عنه ـ هو قول ظاهِرُهُ «تزلف وتقية». وباطنه غير ذلك تماماً.

ونظراً لاستحالة استحضار أحداث فترة الرسالة فإن ربط النصوص بأحداث مشكوك في تاريخيتها يبدو مغامرة علمية ليس لها شاطئ ولا مرفأ.

يقول المترجم معترفاً:

إن لم يكن بين يدي نولدكه غير السنة، أي تعاليم الإسلام كما عاشها النبي (ﷺ) وطبّقها والتي ترسخت في ذاكرة الصحابة وتابعيهم وتابعي التابعين ثم تداولوها، إرثاً وتوريثاً حتى حظيت بالتدوين في أواخر القرن الثاني الهجري. أي بعد مئتي سنة على هجرة الرسول.

يقول المترجم في ص ـ ١٢:

«ويبقى البشري في حوار مع الإلهي طوال مدة الوحي. ليس الله هو المتكلم الوحيد في القرآن، ثمَّة أيضاً متكلمون آخرون بعضهم ينطق بكلام الله».

طبعاً: هذا هو رأيه الشخصي.

ولقد كان على مقدمته أن تتقيد بطبيعة المقدمات. وهي «تقديم الأثر الفكري إلى القارئ كما صدر عن المؤلف دون تزيُّد أو تدخل أو دسٍّ الآراء الشخصية وإلا وقع القارئ في حيرة حول عائدية الفكرة. هل هي للمؤلف أم هي للمقدِّم.

http://kotob.has.it

لذلك ـ لما كانت المقدمة تشير إلى الحوار الذي افترضت استمراره طيلة مدة الوحي بين الأقوال المنسوبة إلى الله والأقوال البشرية بشأنها.

فإن خطأً لغوياً فادحاً وقع فيه المترجم حين تعرضه «لمعنى الحوار»

فالحوار: من الحور . هو ضد الكور أي التكوير[1]. وفي الجدل الفكري يكون صاحب الفكرة قد كورها حتى حدها الطبيعي، فيأتيه المجادل محاولاً إعادة الكور إلى الحور أي إلى نقطة الصفر.

قال الجوهري: حار يحور حوراً وحواراً أي رجع.

وفي الحديث: من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك «حار عليه» أي: رجع إليه ما نسبه إلى الرجل.

ويقال: حار بعدما كار. فالحور هو النقصان. (لسان العرب)

وفي الحوار الفكري. كل من المتحاورين يرى النقصان في فكرة الآخر فيريد بحججه تصحيحها والسير بها إلى الصواب. أي إلى فكرته التي تكورت وأخذت موقعها الطبيعي.

لذلك: ولما كان الحوار يقوم بين متحاورين، وتلك حالة لا يمكن تصورها في الله. الذي ليس كمثله شيء والذي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

ـ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَإِنَّ عَلَيْكَ اللعنة إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الحجر: ١٥/ ٣٤، ٣٥).

وهذه الكلمة، وردت في القرآن مرات عديدة.

ولكنها كانت دوماً منسوبة إلى كلام البشر. أما الكلام الإلهي، فقد اوحاه الله إلى النبي (ﷺ) لينذر به الناس.

ـ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ (الأنعام: ١٩/٦).

ثم تنتهي المقدمة: إلى قبضة من النصائح يقدمها المترجم إلى الجيل العربي المعاصر عن كيفية التعامل مع التراث. لكي يتحول من واقعه المتحجر الثقيل المعرقل للتطور والحداثة.

صحيح: تلك وجهة نظر، انتفخت حتى صارت وعظاً.

فإنها، في غير الزمان والمكان الملائمين.

---

[1] الكور من اللف والتكوير فيقال كار العمامة أي لفّها وكوّرها.

http://kotob.has.it

المترجم ــ بدون تكليف ــ تطوّع بكتابة مقدمة، لكتاب «نولدكه» ومثلما تفرض طبيعة كل موضوع نفسها على الكاتب. ومثلما يعتبر خروجاً عن الموضوع كل قفز منه إلى سواه.

هكذا تقتضي طبيعة المقدمات، أن يقتُصر كاتبها على تقديم الكتاب إلى القراء «بعجره وبجره» وتقديم المؤلف. دون أن يترافق مع أي رأي شخصي. يستشف منه تسويق الكتاب أو تقديم حجج لتأييد لأفكاره.

فذلك: يسمى بجميع اللغات «خروج عن الموضوع».

وإذ نقول هذا القول:

نرجو أن لا يُفهَمُ منه أننا ضد العودة إلى التراث والبحث فيه عما يناسب حاضرنا. ولكن ذلك ــ على وجاهته، يكون في بحث مستقل، سواء أكان مقالاً أم كتاباً. وليس في مقدمة «كتاب» يدور حول تاريخ «كتاب آخر» وبوضوح أكثر:

الكتاب الذي كتبت المقدمة من أجله حصر مهمته، في تاريخية الآيات القرآنية وإلحاقها بسور ليست منها، ولا تتفق معها في الموضوع أو زمن النزول. لذلك:

فإن مهمة كتابنا، هي التتبع الحيادي الحثيث لأقوال المؤلف في الأجزاء الثلاثة من كتابه «تاريخ القرآن» والدلالة على مواضع التجاوز والانحياز الذي يبدو واضحاً في كل أثرٍ استشراقي.

فالمؤلف. ليس غير واحد من مجموعة المفكرين أو السياسيين الغربيين الذين توافدوا علينا مدفوعين بغرام لا يقاوم، لهذا الشرق الساحر، فملؤوا فضاءه بدراساتهم وأبحاثهم، تنقيباً في بطون آثاره التاريخية والجغرافية والفكرية وما هو غير هزيع من الزمن حتى تساقطت الأقنعة وبانت النواجذ التي تنطوي على سراديب السم. لذلك:

وجدنا من المفيد لكتابنا أن نبتدئ ببحث عن الاستشراق محددين فيه:

ــ تعريفه، والانحدار من التعريف إلى تاريخ نشوئه.

ــ أسبابه.

ــ أهدافه القديمة، والحاضرة.

http://kotob.has.it

الاستشراق

تعريفه:

هو مأخوذ من «الشرق» أي المنطقة الجغرافية التي تقع شرقي أوربا أي (الدول العربية) و(دول إفريقيا) و(الدول الآسيوية الشرقية). علماً أن ما يستوقفنا هنا: هو «الشرق الأوسط» الذي يحتوي على أسماء قاموسية ثلاثة، أضيف إليها الرابع مؤخراً وهي:

الشرق الأدنى:

كان يطلق على بعض الدول الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط. «تركيا»، «سورية»، «لبنان»، «فلسطين»، «شرق الأردن»، «مصر»، وقد كانت آنذاك «لبنان وفلسطين وشرقي الأردن» جوارح في الجسد السوري فسلختها عنه معاهدة سايكس بيكو.

الشرق الأقصى:

كان يطلق على بلاد آسيا الشرقية: «الصين»، «الهند»، «الفيليبين»، «الهند الصينية»، «اندونيسيا»، «طرف روسيا الشرقي».

الشرق الأوسط:

صار يطلق على دول «الشرق الأدنى»، و«إيران»، و«شبه الجزيرة العربية»، و«العراق».

أما الرابع المضاف:

فهو «الشرق الأوسط الجديد»، أو«الشرق الأوسط الكبير».

لقد طرح هذا المفهوم أو هذه التسمية، طرحاً سياسياً، لأول مرة في كتاب أصدره «شمعون بيريز» بعام ١٩٩٤ تحت اسم «الشرق الأوسط الجديد» على أن الزخم السياسي أخذ أبعاده القصوى أثناء الحرب الإسرائيلية ضد المقاومة في لبنان، حيث هبطت وزيرة خارجية أميركا «كوندوليزا رايس» واجتمعت مع لبنانيين في السفارة الأمير كية بلبنان، في اليوم الثالث للحرب وأعلنت لأصدقاء أميركا من سياسيي لبنان: أن هذه الحرب، هي الخطوة الأولى على طريق الشرق الأوسط الكبير».

في كتاب «الشرق الأوسط الجديد» حَرَص بيريز على أن يكون يوحنا الصارخ في برية الوطن العربي.

ـ داعياً إلى السلام.

ـ والانتقال من اقتصاد الحرب إلى اقتصاد السلام.

http://kotob.has.it

ـ وتحلية المياه.

ـ والكونفدرالية بين إسرائيل والأردن وفلسطين، سياسياً فقط

ـ وتزويد البلاد العربية بالخبرة الزراعية وتربية المواشي.

ولم ينسى «بيريز» أن يركز على إيضاح الفرق بين «الفيدارلية» و«الكونفدرالية» بقوله:

«الفيدارلية» يكون القانون الواجب التطبيق هو القانون «الفيدارلي» ومع أن الألفاظ الملساء الناعمة تغمر خطاب «بيريز» إلا أن القارئ المتمعن في كتابه لن تخطئ عيْنُهُ عن النوايا الاستراتيجية الهادفة إلى الهيمنة على الشرق، لا فرق في الوسائل التي توصل إلى الغاية... «الدبابة» أو «البقرة الحلوب»[1]. أو «الإنتاج المتقن».

إن هذا التقسيم «الثلاثي» أو «الرباعي» للشرق الوسط، كان هيرتزل قد طرحه في مؤتمر بال بأواخر القرن التاسع عشر أمام مندوبين عن جميع المنظمات اليهودية في العالم. فقال.

«نريد شرقاً أوسط» متحرراً من الأتراك. ولكن المجزأ إلى دويلات وأقاليم لا تستطيع الاتحاد ضدنا[2].

كما برزت في الآونة الأخيرة، «تسمية سياسية» ذكرَّت هذه المنطقة باتفاقية «سايكس بيكو» التي قسمت وسلخت وجزأت. لأنها تشمل الشرقين «الأدنى» و«الأقصى» مضافاً إليهما «الشرق الأوسط الكبير» حيث تصبح هذه المنطقة تجمعات من المسوخ السياسية أو دولاً من الخرز، تكون إسرائيل، هي العاصمة، الاقتصادية والسياسية والحربية والفكرية والسياحية.

ولكن ثقة الولايات المطلقة بأن حرب لبنان هي الخطوة الأولى على طريق الشرق الأوسط الكبير، قد تبددت:

ـ فالحرب اللبنانية طالت أكثر من اللازم.

ـ وقد انتهت بنتائج معاكسة للتوقع الأميركي.

---

(1) قال في ص ـ ١٣٤ ـ إن روسيا حينما جددت علاقاتها الدبلوماسية مع إسرائيل بعام ١٩٩١ ـ قامت بشراء الأبقار الإسرائيلية التي تبين أنها تقدم من الحليب ثلاثة أضعاف ما تقدمه البقرة الروسية وذلك للاختلاف العلمي والتكنولوجي الذي تطبقه المباقر الإسرائيلية.

(2) طبعاً: كان هيرتزل يعني «بالشرق الأوسط» المنطقة العربية لأنها منطقة الأحلام الجغرافية الإسرائيلية.

http://kotob.has.it

ـ فقد خرجت إسرائيل، وخرج معها الدعم والسلاح الأميركيين، مهزومين هزيمة نكراء.

فقد استقال قائد الجيش «دان حالوتس» ولجنة التحقيق تلف حبالها حول عنق وزير الدفاع ورئيس الوزارة، والآمال الأميركية الخائبة في مناعة الجيش الإسرائيلي تملأ وسائل الإعلام من مقروءٍ ومسموع. ومرئي.

ومع هذا:

فما ندري، إن كانت الولايات المتحدة قد قنعت، بضلال الفكرة أم إنها، وضعتها في جيب الزمن، بانتظار الظرف المناسب.

الاستشراق في التاريخ:

من المعلوم تاريخياً:

ـ أن الإسلام ظهر من الجزيرة العربية، مبتدءاً من قرية اسمها «مكة» وقد قام على يد واحد من أهلها، اسمه «محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي» (ﷺ) حيث كُلِّف به تكليفاً إلهياً في سنة ٦١٠ م. وكان قد بلغ الأربعين من العمر. (ولد في سنة ٥٧٠ م)

ـ وأن العهد الراشدي الممتد منذ أن تولى أبو بكر خلافة النبي على المسلمين في سنة ٦٣٢ م إلى مقتل علي في سنة ٦٦١ م (أي ٢٩ سنة) قد رفع راية الإسلام على «الجزيرة العربية» و«بلاد الشام» و«فارس» و«مصر».

ـ وأن العهد الأموي الذي امتد من سنة ٦٦١ حتى ٧٥٠ م، كان قد ابتدأ منذ أن نودي في (إيليا ــ القدس) بمعاوية بن أبي سفيان خليفة على المسلمين وانتهى في معركة الزاب الكبرى التي هزم فيها مروان الثاني سنة ٧٥٠ ــ حيث فرَّ بعد الهزيمة وظل مختبئاً حتى ألقي عليه القبض وقتل في شهر آب من تلك السنة.

في العهد الأموي «على تكرار الحملات الحربية على بيزنطة تطور الخلاف بين المسلمين والأوربيين إلى عداءٍ حقيقي. لاسيما وقد كانت الحملات العسكرية الأموية تستهدف أوربا الجنوبية».

أما حكم الأمويين في الأندلس. فقد تأسس بعد خمس سنوات من معركة الزاب الكبرى على يد «عبد الرحمن» حفيد هشام بن عبد الملك بن مروان، الذي دخل قرطبة وحيداً، ثم تسلَّل إلى قناعات الناس فتمدد إلى أكثر بلاد أسبانيا وبدأ ينشر سلطانه على تلك الأصقاع الواسعة ابتداءً من سنة ٧٥٥ م.

http://kotob.has.it

وقد دامت دولة الأمويين في الأندلس سبعماية وخمس وثلاثين سنة حتى طردوا منها في عام ١٤٩٢ م. على يد آخر ملوكهم «الملك الصغير» الذي لا يزال التاريخ يذكر بكاءه بين يدي والدته، نادباً عرشه وملكه وصولجانه، ولا يزال يذكرها وهي تجيبه ببيت من الشعر سار حكمة على الدهر:

ابك مثل النساء ملكاً مُضَاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

- أما العباسيون الذين استولوا على الجغرافيا الأموية في الشرق وعجزوا عن ملاحقتها في الغرب (العربي والأندلسي) فقد حلت خلافتهم محل الخلافة الأموية ودام عهدهم من ٧٥٠ حتى سقوط بغداد في أيدي التتار بعام ١٢٥٨ م. أي أكثر من خمسماية سنة.
- والحروب الصليبية التي انطلقت من أوربا إلى الشرق حملة وراء حملة ابتداءً من خواتيم القرن الحادي عشر، كانت بواعثها دينية وجنسية واستعمارية.

فمنذ أن اجتاحت عاصفة الإسلام مصر وسورية وآسيا الصغرى وأسبانيا وصقلية، امتلأت أوربا بالغيظ والغضب.

وقد بلغ الغيظ ذروته، في سنة ١٠٠٩ ــ حينما أمر الحاكم بأمره بهدم «كنيسة القيامة» التي كانت من أقدس الأماكن التي يحج إليها مسيحيو الأمم.

كذلك، تلك المعاملة السيئة التي كان يلقاها الحجاج الأوربيون وهم في طريقهم إلى الأماكن المقدسة. كانت هذه المضايقات مئونة البابا أربانوس. الذي أوصل بخطبه النَّارية وشخصيَّته الديناميكية ــ الأمور إلى درجة الغليان لقد بدأت الأمور بدايةً طبيعية.

إذ طلب الإمبراطور «أليكوس كومنيوس» من البابا أربانوس أن يساعده على السلاجقة الذين استولوا على أملاكه الآسيوية واكتسحوها حتى بحر مرمره. كما أضيف إلى ما سبق تهديد المسلمين القسطنطينية. رغبةً منهم بالتوسع والفتح فاستجاب البابا إلى طلب الإمبراطور وفتح النزاع العقائدي على مصراعيه عارضاً أمام الجماهير، تلك التجاوزات الفاضحة والاعتداءات المتكررة التي يقوم بها أهل المشرق الإسلامي، وطفق ينتقل في مدن أوربا ملقياً بين الجماهير المحتشدة خُطَبَهُ النَّاريَّة، نافخاً جَذْوَةَ الثأر للدين في تلك الصدور اليابسة، مبيِّنا للآلاف المؤلفة من البسطاء أن أقدس الأمكنة في الدنيا أصبحت نهباً وأسلاباً بين أيدي بشرٍ لا يقيمون لها وزناً ولا يحترمون لها حرمة.

http://kotob.has.it

وقد ظل «أربانوس» على حال التنقل من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة مدة تسعة أشهر، زار خلالها «شمال إيطاليا» و«جنوب فرنسا». حتى كان خطابه الذي ألقاه في «كليرمونت» بشهر تشرين الثاني، والذي حضرته الآلاف المؤلفة، التي استهانت ببرد تشرين ونصبوا خيامهم في العراء وتجمعوا لكي يستمعوا إلى الخطاب النّاري الشديد.

قال «وول ديورانت» في قصة الحضارة: «كانت خطبة البابا أربانوس في كليرمونت أعظم خطب القرون الوسطى وأقواها أثراً في تاريخ «الغرب والشرق».

وقد سجل فقرات منها في ص ــ ١٥ ــ وما بعدها من المجلد (١٥ــ ١٦) من قصة الحضارة. نسجل هنا، فقرات من تلك الفقرات كما يلي: «يا شعب الفرنجة: شعب الله المحبوب المختار. لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة، تعلن أن جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق.

لقد ساقوا الأسرى إلى بلادهم: «قتلوا بعضهم بعد أن عذبوهم أبشع تعذيب لقد قطّعوا أوصال اليونان فانتزعوا منه أقاليم لا يجتازها المسافر بشهرين كاملين...

على من تقع تَبعَة الانتقام عن هذه المظالم إن لم تقع عليكم. أنتم يا من حباكم الله أكثر من أي شعب بالمجد والبسالة والقدرة.

ألا. فليكن لكم من أمجاد شالرمان، أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم فليُثْر هِمَّتكم، ضريحُ المسيح المقدس، ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه وتمتلّك غيره الآن أمم نجسة.

طهّروا قلوبكم من الأدران. واقضوا على ما بينكم من نزاع واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس. وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملكوها.

إن أورشليم المدينة المقدسة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوًا على إنقاذها. لتتخلصوا من ذنوبكم وتنالوا مجداً يغنى في ملكوت السماوات».

«ما إن أنهى خطابه حتى علت أصوات الحشد الكبير مُرَدَّدَة: «تلك إرادة الله».

والبابا أربانوس نفسه هو الذي فرض على الجيوش أن ترسم إشارة الصليب على ثيابها وآلياتها وسروج خيولها. ومن هذا الفرض أخذت تلك الحملات العسكرية الغربية إلى بلادنا اسم «الحروب الصليبية»[1]. لقد خرَّ بعض

---

[1] أطلق عليها في بلادنا اسم «حروب الفرنجة» حيث عرفت به في جميع الأدبيات العربية.

http://kotob.has.it

النبلاء ساجدين بين يدي البابا ووهبوا أموالهم لله وللحملة الصليبية فحذا حذوهم كثير من الشعب.

أما أشهر المدن التي خطب فيها البابا محرضاً على غزو الشرق فهي: «تور» و«بوردو» و«تولوز» و«مونبيليه» و«تيمر». وحينما عاد من جولته، إلى الفاتيكان استقبلته الجماهير المحتشدة استقبالاً مجبولاً بالدموع والإيمان، ومع أنه استراح من التحريض. فقد ظل ممسكاً بزمام الأمور.

- فحل قيود العبيد التي كانت تحول بينهم وبين الاشتراك في الجهاد. وحرَّرهم جميعاً بفتوى أعلنها من الفاتيكان.
- ومنح الصليبيين حق المحاكمة أمام محكمة الكنيسة بدلاً من محكمة الإقطاع.
- وأعلن الضمان والائتمان على أملاك الملاكين طيلة مدة غيابهم المقدس.
- وشدد على محو جميع الخصومات القائمة بين المسيحيين على مستوى الأفراد والجماعات. لكي يكون الجميع صفاً واحداً وقلباً واحداً في مواجهة أعداء المسيح.

وهكذا:

لأول مرة في أوربا، شاعت روح الأخوة والإيمان. وصار الجهاد ضد أعداء الكنيسة، هو نقطة الالتقاء بين الجميع. وتحول البابا أربانوس إلى «السيد المرتضى» عند جميع ملوك أوربا.

لقد شهدت مدينة القدس أقسى تطبيق عملي لخطب البابا. لأن صدور المجاهدين، كانت تَمورُ بكل كلمة من كلمات تلك الخطب. لذلك ما إن استطاع جنود «جودفري» و «بوهمند» التسلق على أسوار المدينة وقهر حاميتها. حتى قاموا بارتكاب مجزرة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً.

لقد جاء في قصة الحضارة ص ــ ٢٥ ــ من المجلد (١٥ــ١٦). «وفي هذا يقول القس الإِجيلي شاهد العيان». «وشاهدنا أشياء عجيبة إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين. وقتل غيرهم رمياً بالسهام. أو أُرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج. وظل بعضهم الآخرون يعذبون عدة أيام ثم أحرقوا في النار، وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام. وكان الإنسان يسير أينما سار فوق جواده بين جثث الرجال والخيل».

ويتابع ديورانت: «ويروي غير الإِجيلي من المعاصرين تفاصيل أدقَّ عن تلك المجزرة. فيقولون وهم كثيرون: إن النساء كن يقتلن طعناً بالسيوف والحراب،

http://kotob.has.it

والأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار أو تهشم رؤوسهم بدقها بالعمد، وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة.[1]

لقد قارن الأحياء: بين افتتاح القدس الدامي هذا، وبين افتتاحها على يد عمر بن الخطاب قبل ٤٥٨ سنة.

لقد كان ديورانت تحدث عن الفتح العمري في ص ــ ٧٦ ــ من المجلد (١٣ــ١٤) من كتابه الشهير «قصة الحضارة» فقال: «وافق البطريق» صفرونيوس، على تسليم «بيت المقدس ــ إيليا»[2]. إذا جاء الخليفة وصدق بنفسه على وثيقة وشروط التسليم، فقبل عمر هذا الشرط وجاء من المدينة المنورة ودخل القدس ببساطة دونها كل فخامة. كان معه «عِدْل» من الحب، و«كيسٌ» من التمر و«وعاء ماء» و«صحفة من خشب». وحينما خرج خالد وأبو عبيدة وغيرهم من القواد لاستقباله بثيابهم المهفهفة وسروج خيولهم المزركشة، غضب من هذه المظاهر والأزياء وأخذ حفنة من الحصى والتراب وألقاها في وجوه القادة وقال: شاهت الوجوه ثم قابل صفرونيوس بمنتهى اللطف والمجاملة. ولم يفرض غير القليل من الجزية وأمَّن مسيحيِّي القدس على تجارتهم ونشاطهم الاقتصادي وكنائسهم وعباداتهم وبقي عشرة أيام في بيت المقدس. ولكنه غادرها عندما سمع بخشية أهلها من أن يتخذها عاصمة للدولة الإسلامية.

كما قارنوا:

ــ بين الفتح الصليبي العنيف الذي مرَّ وصفه.

ــ وبين فتح صلاح الدين للقدس واستعادتها من الصليبيين بعد أقل من تسعين سنة على الاستيلاء الغربي، أي في سنة ١١٨٧ م.

وفي هذه المقارنة قال وول ديورانت في ص ــ ١٧ ــ من المجلد (١٥ ــ ١٦) بعد حصار دام اثني عشر يوماً استسلمت المدينة فدخلها دون إراقة دماء وطلب أخوه العادل أن يهدى إليه ألف عبد من الفقراء الذين ظلوا دون فداء

---

[1] تلك الرواية وردت في قصة الحضارة، كما وردت في الجزء العاشر من تاريخ ابن الأثير ص ــ ١٩٤ وابن خلدون ج ــ٥ ــ ص ٢١ ــ

[2] هو الجزء الأول من اسم الإمبراطور «إيليا هادريان» الذي أعطاه لأورشليم حينما افتتحها بعام ١٣٠ م

http://kotob.has.it

بعجزهم عن تامين الفدية. فلما أجيب إلى طلبه أعتقهم جميعاً واعتق صلاح الدين جميع الأرقاء وكانوا خمسة عشر ألفاً. ووزع من ماله الخاص على النسوة اللواتي قتل أزواجهن.

ذلك ما يقول «إرنول» مولى «بليان» زعيم المقاومين[1].

بعد الفشل العسكري الذي أصيبت به الحملات الصليبية. عادت جيوشهم المهزومة إلى أوربا مطرودين من البلاد التي أشعلوا فيها الحروب طوال مئتي عام. عادوا وهم ممتلئون بثابتتين.

أولاهما: إنهم حملوا إلى بلدانهم أطناناً من العلوم والمعارف والكتب العربية. كذلك نماذج العيش وأصول التجارة والصناعة والزراعة التي كانت تفتقر إليها أوربا، فكان ذلك ــ فيما بعد أساس الحضارة الغربية.

الثانية: القناعة المطلقة أنهم هزموا في بلاد الشرق على يد الشعب الذي وصفوه بالإلحاد والنجاسة. وذلك لأنهم عادوا بعد مئتي عام ولم يحققوا شيئا من الأهداف، وخاصة، والأماكن المقدسة عادت إلى الشعب ذاته الذي كانوا يتقززون من اسمه.

لذلك: تقوقعوا في ديارهم على مضض الخذلان، تاركين للأجيال المقبلة مهمة الثأر والانتقام وتحقيق ما عجزوا هم عن تحقيقه.

لقد تناقلت عنهم الأجيال اللاحقة «أن الدماء التي نزقت في سبيل تحرير الأماكن المقدسة، لن تموت، وأنه سوف يبقى ــ على الزمن ــ من يطلب بالانتقام».

كان السلاجقة يتمددون بين أوربا والشرق. ثم قام العثمانيون على أنقاض السلاجقة، ولكن بزخمٍ أقوى جدار عثماني من الفولاذ ارتفع في عام ١٣٠٠ م.

وبعد قرن ونصف القرن (١٤٥٣م) طردوا البيزنطيين من القسطنطينية. واستولوا عليها، وقد كانت فيما مضى، مكان الاستراحة والاستعداد للجيوش الأوربية المنهكة من السفر.

أخضع «سليمان العثماني» الأول رودس وأكثر هنغارياً. ثم استمروا في الاتساع والسيطرة، في القارتين الآسيوية والأوربية حتى امتد في عهود الازدهار من «بودبست على الدانوب»، حتى «بغداد على دجلة» ومن «القرم» حتى «شلالات النيل الأول».

---

[1] جاء هذا أيضاً في كتاب «فيليب حتي» و«إدورد جرجي» و«جبرائيل جبور» في ص ــ ٧٣٨ ــ من «تاريخ العرب»

http://kotob.has.it

جميع البلدان التي هزمت الصليبيين انضوت تحت السلطان العثماني. فما كانت يدُ الغرب قادرة على الوصول إليها طيلة الحكم العثماني الشديد.

ولكنه أي الغرب: الواثق بأن كل حال يزول، انتظر مع الزمن زوال الحال، قَصُر الانتظار أو طال حتى إذا تهاوت شرفات السلطنة.

ــ فانفرط الشمال الإفريقي بكامله عنها.

ــ ودبَّ الهرم في علاقاتها مع الأقاليم الآسيوية.

ــ وسقطت أسنانها في أوربا.

ــ وأصبحت مريضاً، ينتظر الأجل القادم.

وفيما كان الغرب يقفز درجات السلَّم الحضاري قفزاً كان الشرق يتدهور متجها إلى الحضيض.. تلك كانت الفرصة السانحة. وذلك هو زمن زوال الحال الذي انتظره الغرب عدة قرون. ولكنه ــ وهو المهزوم سابقاً ــ درس الأمور بمنتهى الحكمة. فتحصلت لديه. النتيجة التالية:

هذه الجغرافيا البرية التي تنساح على أربعة عشر مليون كيلو متر مربَّع. والتي يقطنها شعب ينتسب أكثره إلى جنس واحد ويدين أكثره بدين واحد ويتكلم جميعه لغةً واحدة، وقد عاش الوحدة عدة قرون. وامتلك روح القتال فغزا بلداناً عديدة ورد عن نفسه عدداً كبيراً من الغزاة، فمنهم من فرَّ هارباً ومنهم من صرعت كرامته. وكان الصليبيون الغربيون من جملة صرعاه.

هذا الشعب: إذا عادت الوحدة إلى أشتاته، وجمعت أقاليم جغرافيته الواسعة. واستعاد مجده العسكري وتفوقه الحضاري.

فسوف يطأ مصالح الغرب بقدميه، وسوف يطرد الوجود الأجنبي عن أرضه. لذلك: يجب استباق الظروف وبناء الحواجز الفولاذية دون وحدته وتطوره السياسي، والثقافي والعسكري.. ثأراً لأيام الذل وحمايةً المصالح.

تلك الخطُّة، كانت الفكرة التي سيطرت على مؤتمرات الغرب، منذ نابليون الأول، ثم الثالث، ثم زرع الدولة الصهيونية في الخاصرة العربية. ثم هذه الإقليمية، التي تقوقعت ضمن جدرانها، الدستورية والقانونية والأمنية ومُسُوخ مؤسساتها الاقتصادية والثقافية والسياسية.

ومع هذا ــ قال الغرب: نعيش في زمن تطورت فيه وسائل الاتصال. التي غدا العالم بفضلها، قرية تتواصل دُوَلُهُ مثلما يتواصل الأحياء في القرية الواحدة.

http://kotob.has.it

فاعتقال مواهب الشرق وسحب الجينات الحضارية منه، وسحق المشاعر الوحدوية في الصدور قبل الظهور. يحتاج إلى تعاون الدول صاحبة المصلحة. لأن جهود دولة واحدة لن تستطيع تنفيذ هذه المهمة الكبيرة.

تلك التصورات، جميعها دوّنها «كامبل بنرمان» ــ رئيس وزراء بريطانيا بخطة، وفَرَشَها على مكتبه.

فكان أول إجراء قام به دعوة الدول الغربية ذات المصلحة إلى مؤتمر في لندن لدراسة الداء قبل حلوله. إيجاد الدواء الذي يعطي في حينه. فكان مؤتمر لندن بعام ١٩٠٦.

ووقف «بنرمان» خطيبا بين المندوبين وكان مما قاله: تعلمون: أن في هذا الشرق الطريق البرية التي تسلكها بريطانيا إلى الهند وتسلكها فرنسا إلى جاوه وسو مطره. وهولاندا إلى اندونيسيا

وتعلمون أن أرضه الواسعة التي هي تحت تصرفكم يحمل ظهرِها ويخفي باطنها ثروات متنوعة، وهائلة. بالإضافة إلى موقعه الاستراتيجي الذي يتحكم ببحار ثلاثة وينتشر شعبه في المواقع الحساسة من قارَّتي آسيا وإفريقيا ويواجه قارَّة أوربا على امتداد الساحل الشمالي للمتوسط.

هذا الشرق، بجغرافيته الواسعة وشعبه المحارب وموقعه الاستراتيجي وثرواته الضخمة. إذا دار الزمن باتجاهه وصار مالكاً لزمام نفسه ومقرراً لمصيره ماذا يكون مصير مصالحكم وأي سد يستطيع أن يحميها من الطوفان؟

أيها المؤتمرون، فكروا جدياً، بمفردات الوسائل التي تبقيه قاصراً وتحول بينه وبين سن البلوغ.

لقد أصغى المؤتمرون إلى «بنرمان» وتتبعوا خطابه كلمة كلمة. وأكبروا فيه صراحته وجرأته وآفاقه البعيدة. فوافقوا بالإجماع على هواجسه. وعلى أطروحاته. ولكنهم إذ وجدوا الطريق تمتلئ بالأخاديد والحفر ــ وجدوا أن الوصفة لن تكون ناجعة إلا إذا صدرت عن المختص.

لذلك استدعوا من بلدانهم أخصَّائيين، في التاريخ والجغرافيا، والاجتماع والاقتصاد. وطلبوا منهم أن يجدوا علاجاً لهذه المعضلات. وأن يبحثوا عن أنجع الوسائل التي يجب أن تُتَّبع لإطالة أجل الاستعمار في هذه المنطقة وبعد ستة أشهر قضاها المختصون في الاقتراحات والمحاورات والتعمق إلى قاع المسألة.

http://kotob.has.it

خرجوا بوصفة تنطوي على أربعة أدوية يجب الابتداء بتنفيذ مفرداتها فوراً وبشكل تلازمي:

أولها: استمرار المراقبة والسهر على بقاء الجهل والأمية والتخلّف لمنع الشعب العربي من التقدم والتطور. وإبعاده عن قراءة الأمور بوضوح وعلمانية.

الثاني: دعم الإقليمية وتأييدها. وخلق أكبر عدد من التجزّءات الاجتماعية، الدينية، والجنسية والعائلية والعشائرية لكي يكون الناتج مسوخاً اجتماعية مستقلة بدساتيرها وقوانينها وأنظمتها وحدودها وأنظمتها التشريعية والقضائية والتنفيذية.

الثالث: محاربة أي تحرك أو تفكير وحدوي بين الأقطار العربية لأن الوحدة هي العدو اللدود لمصالح الغرب.

الرابع: فك الاتصال الجغرافي الذي يصل عرب آسيا وعرب إفريقيا. فنقطة الاتصال هذه هي التي مُكّنت في الماضي وتمكن في المستقبل من وحدة العرب في القارتين. وهي التي فرضت في الماضي وتفرض في المستقبل هزيمة غزاتهم الأجانب.

إنَّ قارئ التاريخ قرأ ــ ولاشك أن الانتصار على الصليبين في حطين لم يكن ليحققه صلاح الدين لولا هذا الباب المفتوح بين مصر وبلاد الشام، وانتصار الجيش العربي الواحد بقيادة بيبرس في عين جالوت مدين لهذه الحدود المتصلة المفتوحة التي حققت تلاقي الجيشين تحت قيادة واحدة، ونابليون الأول حينما أراد بناء الإمبراطورية الفرنسية الشرقية نزل مصر أولاً ثم انتقل ــ دون عائق ــ إلى بلاد الشام من البوّابة ذاتها التي كانت تستعملها جيوش الذهاب والإياب.

وأضاف الخبراء في تقريرهم.

هذه الحقيقة، التي يجب أن تبقى هاجساً مقيماً في النفوس هي التي وصفنا لها العلاج رقم ٤، ألا وهو اتخاذ أقصى الإجراءات لإغلاق هذه الفتحة ونرى أن ذلك يتم على أكمل وجه، إن تمت عملية ذبح جغرافي يفصل الرأس العربي في آسيا عن جسده الممدد في إفريقيا. وتعبئة الفراغ بجنس بشري يختلف عن السكان، باللغة والدين والعادات والجنس وأنماط الحياة.

بعد أن تدارس المؤتمرون عبارات التقرير، اتّفقوا على أنه شخّص أعظم تشخيص ووصف أنجع الأدوية.

http://kotob.has.it

فالاقتراحات ١ ــ ٢ ــ ٣ لن يكون في تنفيذها، مباشرة، أي خطر أو إشكال ولكن عملية تفريغ منطقة تلاقي آسيا العربية بإفريقيا العربية وإملاء الفراغ بجنس غريب مختلف هو ما يجب عنده الوقوف للتفكير بهدوء.

فكروا أن يجعلوا من الفراغ وطناً يجتمع ويتراكم فيه مسيحيو البلاد فصار رفض الفكرة. لأن هؤلاء عرب. وقد تكاتفوا على مقاومة الغزاة وعاشوا مع العرب الآخرين قروناً عديدة من الأُخوَّة والتّعاون.

لذلك هجرت هذه الفكرة، وقام بديل عنها، وهو دعوة اليهود من أصقاع الأرض ليملأوا هذا الفراغ فقد كانوا ومازالوا من ألفي عام يعيشون حلم الحياة في فلسطين حيث عاش ودُفِن أنبياؤهم أجمعين.

منذ ذلك الوقت بدأ الزمن يدور دون توقف. ودخلت هذه المنطقة، عصراً جديداً، اختلفت فيه الألاعيب السياسية. وبرز على ساحة الشطرنج الشرق أوسطي لاعبان رئيسيان.

الغرب: الذي تهمه أن تبقى المنطقة في حالة التشتت والتمزق أطول مدة ممكنة.

واليهود: الذين يَهمُّهم أن يتنادوا إلى فلسطين وأن يقيموا لأنفسهم دولة فقد ضاقت أرواحهم بحياة المذلة التي كابدوها تحت سلطة الأمم في كيبوتسات العزلة والمهانة.

فقامت مقايضة بين اليهود والغرب.

الغرب يساعدهم على التراكم في فلسطين، واليهود يساعدون الغرب في حماية مصالحه. وفي السهر الدائم على إشعال الحرائق التي تحول دون تقدم وتطور ووحدة الشعب العربي.

الغرب يقدم ما يحتاجه بناء الدولة اليهودية من دعائم المال والسلاح والسياسة. والدفاع عما ترتكبه من جرائم الاغتيال والاعتقال والقمع والمصادرة.

منذ ذلك التاريخ، أي منذ مقررات مؤتمر لندن، قام تحالف استراتيجي بين اليهود أينما كانوا وبين دول الغرب. على التناظر والتقاء المصالح منذ ذلك الوقت: صار الغرب في حاجة إلى اليهود، وصار اليهود في حاجة إلى الغرب، وصار في مقدور ممثل المنظمة أن يدخل دون تأخير وفي أي وقت إلى المكتب الخاص بأي رئيس غربي أو وزير أو أي مسؤول، وكان قبلها يبقى الساعات الطوال بانتظار الإذن بالدخول أو الرفض، فيقبل الاثنين دون اعتراض.

* * *

http://kotob.has.it

لقد استدعينا هذه الوقائع من التاريخ باختصار، لكي يرى القارئ، أن الاستشراق ليس حديث العهد.. بل هو عملية نُفِّذت بأسلوبين وتحت غطاءين فاستشراق الماضي قام على أسس دينية شوفينية التعصب،

والاستشراق الحديث الذي قام بعد ترهُّل القبضة العثمانية قام كما جاء في مؤتمر لندن على استكناه الشرق والتعرف على أساليب العيش والتفكير لديه حتى تستطاع الوقاية منه والحيلولة دون تقدمه.

فمنذ نهايات القرن الثامن عشر تجدد الغزو الصليبي بجيش فرنسي وحيد وقيادة نابليون الأوّل حيث نزل الإسكندرية بعام ١٧٩٨ ومارس أنواعاً كثيرة من النفاق السياسي لكي ينال قبول الشعب ولكنه فشل فشلاً ذريعاً. إذ ابتدأ الفشل من خليج «أبي قير» الذي تحطم فيه أسطوله بعام ١٧٩٨، واندحر جيشه أول اندحار تحت أسوار عكا بعام ١٧٩٩. وانكسر أخيراً في موقعة الإسكندرية بعام ١٨٠١. وتبددت أحلامه في إنشاء الإمبراطورية الشرقية تحت الحكم الفرنسي.

وبعد نصف قرن كرر نابليون الثالث أطماع نابليون الأول ومغامرته، فطلب من سكريتره الأول «لاهاران» أن يَضع كتابا يفصّل فيه المسألة الشرقية.

تحت هذه الأنوار الكاشفة.

إن: «وعد بلفور» و«اتفاقية سايكس بيكو» و«الزحف الغربي على الشرق» و«اقتراحات مندوب بريطانيا في الهند المدعو كرزون في عام ١٩١١» و«مشروع جابو تنسكي في عام ١٩٢٢» و«مقررات بلتيمور في عام ١٩٤٢» و«قيام دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨» و«دعمها بدون حساب حيث وجهت إليها صنابير المال من الغربين الأميركي والأوربي وامتد جسر الأسلحة الجوي بينها وبين واشنطن» و«تخصيص أكثر نشاط الفيتو الأميركي لإسرائيل» منذ قيام الأمم المتحدة حمايةً ودعماً لها في اختراقاتها المتعددة للقانون الدولي وحقوق الأمة العربية وبناء سياسة الولايات المتحدة خصوصاً وأوربا عموماً في الشرق العربي على مواقف إسرائيل ومصلحتها. وضد مصالح العرب ومطاليبهم.

مثلاً: تساقط مشرع الدولة الفلسطينية من«الدولة الديموقراطية المستقلة» إلى «الحكم الذاتي» إلى «كانتونات» تقوم على ٣% من أراضي فلسطين حيث

http://kotob.has.it

تقوم بينها فواصل وحواجز أمنية إسرائيلية. وليس لهذه الدولة «المسخ» حق بتكوين جيش، وإصدار قانون، وإقامة حواجز جمركية وليس لها تمثيل خارجي.

إسرائيل ما فتئت منذ قيامها حتى الآن تنتفخ وتمتد وتتوسع وتهجِّر الفلسطينيين وتهدِّم منازلهم وتقتلع أشجارهم وتصادر أموالهم.

ذلك جمعيه على مرأى من الدول الغربية، ولم يسبق في تاريخ الأمم المتحدة أن تقدم العرب بمشروع إدانة لإسرائيل، إلا أسقطه الفيتو الأميركي والتكتل الأوربي، في المهد.

ثم بمعرفة العالم واعتراف قادة إسرائيل أنها تملك ترسانة نووية تلقت العون الأول لإقامتها من أوربا أولاً ثم عملت أميركا على تطوير القديم أو إبداله بالحديث ومع ذلك:

- فإسرائيل لم توقِّع على معاهدة حظر السلاح النووي.
- والمشاريع المتعددة التي عرضت في جمعية الأمم لإخلاء الشرق الأوسط من السلاح النووي. قوبل بالرفض الأوربي والأميركي القاطع، حفاظاً على ترسانة إسرائيل.
- ومع هذا فقد دفعت أميركا وبريطانيا وسواهما بجيوشها (مئات الآلاف) وَمَعدَّاتها المتطوِّرة، لتنظيف العراق من الأسلحة النووية. ومع أن العراق خضع للتفتيش الدقيق بواسطة الآلات والأجهزة المتطوِّرة، فقد وُجِد خاليا من كل سلاح محظور.

جميع ما عددناه: هي نتائج لمقررات مؤتمر لندن، وليس ذلك فحسب. أي لم يقف التدخل الاستشراقي عند حد معين أو حالة واحدة فكل ما يجري في هذا الشرق، سياسة واقتصاداً وجيشاً وأمناً يجب أن يتقيد بالخط الأحمر: وهو الخط الذي وضعه مؤتمر لندن، واعتبر نقاطه البارزة. «الجهل» و«الأمية» و«القطرية» و«التشتت إلى كانتونات داخل القطر»، إن ما جرى ويجري حتى الآن في العراق، وما جرى ويجري الآن في لبنان. التهديد الأميركي لسورية وحزب الله، ليس سوى فصول إستشراقية.. حتى إن إسرائيل بقضها وقضيضها هي فصلٌ من فصول الاستشراق على أن ما تقدم من أسباب الانحياز الغربي، ضد العرب. يجب ألا يُنسِينَا: أن الصدور الغربية مازالت عامرة بالحقد على العرب منذ انهزام الجيوش الصليبية. وطردها من هذا الشرق.

http://kotob.has.it

فالكثيرون يذكرون ما قاله «غورو» في أوائل عشرينات القرن الماضي، حينما وقف عند رأس قبر صلاح الدين وقال بصوت جهوري حاقد «لقد عدنا يا صلاح الدين»[1].

طبعاً: ــ لم يتكلم غورو إلا بلسان الغرب كافة.

ــ ومئات من السنين (٧٢٨سنة) التي مرت بعد رسالة «ريتشرد» إلى صلاح الدين لم تستطيع أن تمحوا الحقد من صدر الغرب.

ومع أن «وعد بلفور» و«اتفاقية سايكس بيكو» وسائر نتائج مؤتمر لندن تسعى في الشرق العربي سعي السواهي[2] فمازال الحقد والحذر والخوف يملأ بصر الغربي وبصيرته.

إن الحذر من ظهور «خالد جديد» أو «صلاح الدين جديد»، هو الذي دفعه ويدفع به إلى دراسة الإيديولوجية التي جعلت من رعاة الإبل والغنم، أكلة الضب والجراد واليربوع، الحفاة العراة، الأميون الأنباذ. أساتذة في تاريخ العلم والفن والحكم، وقادة المسيرة الحضارية عدة قرون.

دون الدراسة المعمقة لتلك الإيديولوجية لن يستطاع تقدير صلابة الحواجز التي يجب أن يقيمها الغرب، ضد الانتفاضة العربية المتوقعة.

منذ ذلك الوقت: دار الاستشراق دورة كاملة. فاتجه باحثوه ودارسوه نحو منابع تلك الإيديولوجية الساحرة التي فعلت بالنفوس العربية اليابسة فعل المحراث، قلعاً وزرعاً.

وإذ وقف على أسرارها ومقوماتها عكف على تقزيمها، وتسويد صورها وإخفاء إيجابياتها وإخفات ضيائها.

فالغربي وخاصة السياسي يدرك الحكمة التي تقول: اعرف عدوك كي تستطيع تحديد نقاط ضعفه وبالتالي لكي تتمكن من السيطرة عليه. لذلك:

---

[1] هذه الكلمة، تذكير بحادثة تاريخية مشهورة. وهي:

لمَّا ركب «ريتشرد الأول ــ قلب الأسد» في سفينته عائداً إلى انجلترا أرسل رسالته الأخيرة إلى صلاح الدين يتحداه ويتوعده بان سوف يعود بعد ثلاث سنوات ويستولي على بيت المقدس.. فأجابه صلاح الدين بأنه إذا كان لابد من قطع يده فإنه يفضل إن يقطعها ريتشرد ولكنه مات دون أن يعود ومات صلاح الدين سنة ١١٩٣:

(**قصة الحضارة** ــ ص ٤٤ ــ مجلد ١٥ ــ ١٦).

[2] السواهي هي الأفاعي

http://kotob.has.it

كان الاستشراق هو المنهل الوحيد الذي نهل منه أولئك الراغبون، ولذلك لقيت مصنَّفات المستشرقين التي قدموا فيها الفكر الإسلامي «قزماً» «مشوَّهاً» لم ينل ما ناله من نفوذ وانتشار وسلطان إلا بفعل المصادفة والحظ. قبولاً، لدى الراغبين.

فهي أي المصنَّفات:

ـ وحيدة من جهة.

ـ وتنطوي على رغبة القراء الغربيين من جهة ثانية.

إن الرئيس الأمير كي «دبليو بوش» ضاعف رغبة التعرف الجدي على الشرق بما نشره عن الأهداف المخفية عند المسلمين العرب.

فالإرهاب بمنطق بوش، يعني القتل، وهو صناعة إسلامية مأمور بها في الدين الإسلامي. «حوادث القتل» و«الاغتيال» و«التفجير» و«التخريب» جمعيها صور من الإرهاب الإسلامي.

لذلك يجب ـ كما ينصح بوش ـ أن تتخذ جميع الإجراءات لمواجهة التحدي القادم إلى الغرب من الشرق الإسلامي. وأكد على رفع الراية الدينية ضد هذا الإرهاب مثلما رفعَها الصليبيون في القرون الوسطي.

ولكن العارفين بحقائق الحوادث. قالوا: لا يوجد دين في الدنيا يدعو إلى الإرهاب أو يثني عليه.

فالسيد المسيح نادى بمحبة الأعداء. والسيد محمد (ﷺ) تلا من القرآن: الآية:

ـ ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ **(المائدة: ٥/٣٢)**.

ـ ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ **(الأنفال: ٨/٦٠)**.

الإرهاب هنا: هو للتخويف كي يعود العدو عن غيه. ويرجع عن اعتدائه. بدليل الآية التالية :

ـ ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ **(الأنفال: ٨/٦١)**.[1]

والآيتين ١٩٠ ـ ١٩٤ ـ من سورية البقرة.

ـ ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ **(البقرة: ٢/١٩٠)**.

ـ ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ **(البقرة: ٢/١٩٤)**.

---

(١) القوَّة: تعني الرمي بالسهام في تلك الأيام.
أنَث السلم: لأنها هنا بمعنى المسالمة.

http://kotob.has.it

ففي الآية الأولى لا يبيح القرآن الابتداء بالقتال بل أباح قتال الذين بدأوا به بحيث يكون القتال المأمور به هو دفاع عن النفس.

وفي الثانية ١٩٤ أوجب ألا يكون الاعتداء إلا رد فعل على اعتداء... حتى في حال رد الفعل، لا يحق للمسلم أن يتجاوز الدرجة التي اعتدي بها عليه ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ أي أن يظل الاعتداء المسموُح به، في حدود الدفاع المشروَعَ، لا يجوز تجاوزه لأن تجاوز هذه الدرجة هي «اعتداء» والله لا يحبه (إن الله لا يحب المعتدين). لذلك:

إن كنا لا نستطيع اتهام «بوش» بالجهل. نستطيع أن نتهمه بالحقد، الذي دفع به التسرع وعدم التبصر.

ومثل بوش، وأكثر المستشرقين. قفزوا من فوق الزمن، وأغفلوا مرحلة الاستشراق الأولى التي رفعت راية الغزو والدين. لكي يصلوا إلى هذا الزمن الذي امتطوا فيه صهوة العلم والبحث والاجتهاد ممتلئين بنوايا الغصب والاستعمار.

ــ فالصليبيون، امتدت حروبهم مئتي عام تحت راية الدين.

ــ واستيلاء الغربيين على الشمال الإفريقي ابتداءً من مصر ثم الجزائر فتونس فليبيا فمراكش ثم العراق وسورية ولبنان والأردن كانت تحت راية الغزو.

ولم نقل: إن المستشرقين قفزوا فوق الزمن إلا لندل على أنهم تحاشوا البحث في مرحلته الأولى «مرحلة الدين والغزو والاستيلاء». فمثلما خلت المرحلة الأولى من الفكر، تغيرت صورته في المرحلة الثانية، فخَفَتَ السطوُ العسكري والعنف الذي كانت تمارسه الجيوش واعتمد العبارات العلمية واللهجة التي لا تفتأ تؤكد للمواطنين أن هدفه الحقيقي من اقتحامه الفكري للشرق هو حيازة أكبر قدرٍ من المعلومات عن القرون الماضية.

ولكن جميع ما تركه المستشرقون من مؤلفات ومصنَّفات انطوت على النَّيلْ من عبقرية الإسلام وتخفيف موازينه العلمية والأخلاقية.

يقول إدوارد سعيد في مقدمته لكتابه «الاستشراق»: «إنني أؤمن بأنه ليس في وسع أحدٍ أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلا متعلقاً به، أن يقوم بذلك، دون أن يأخذ بعين الاعتبار أن الشرق بسبب الاستشراق لم يكن موضوعاً حراً للفكر والعمل.»

ويتابع: «الاستشراق يشكِّل شبكة المصالح الكلية التي يُستحضر تأثيرها بصورةٍ لا مفرَّ منها في كل مناسبة، يكون فيها ذلك الكيان العجيب ــ الشرق. موضوعاً للنقاش» (انتهى)

http://kotob.has.it

ويقول الدكتور «عبد النبي صطيف» في مقال نشرته مجلة المعرفة في عدد أيلول ٢٠٠٦: «يختلف الناس في تعريف الاستشراق وتحديد أهدافه ووظيفته وصلاته بنشاطات الإنسان»

ويتابع: «الاستشراق بوصفه معرفة ينتجها الآخر الخارجي (الغرب عن الشرق) وأهله، تواريخ، وثقافات ومجتمعاتٍ، دولاً وقضايا راهنة بلغة غير لغتهم تحفزه الرغبة في مساعدة مجتمعه على حماية مصالحه القريبة والبعيدة من أية علاقة يقيمها مع الشرق على أي مستوى وفي أي وجه.» (انتهى)

تلك الروح الشديدة في حَذَرِها. والمنهومة في أطماعها، تسلسلت إرثاً وتوريثاً دون أن تبدل منها الأجيال غير الثياب التي هُجِر منها القديم لكثرة ما شاع فيها من الثقوب والعيوب.

إذ لا تزال في الذاكرة، تلك الضجة التي أثارتها خطبة البابا «بنديكتس السادس عشر» التي ألقاها في إحدى الجامعات وتعرض فيها إلى الإسلام بنقدٍ نَسَبَه إلى أحد أساطين التعصب في القرن السادس عشر.

هنا: وكيلا يُساء منهم قصدنا، نتجاوز ردود الأفعال التي صدرت عن العالم الإسلامي، من جميع البلدان التي يتواجدُون فيها ومن غيرهم ممن يرون أنه لا يحق لقائدٍ ديني عالمي كالحبر الأعظم أو شيخ الأزهر أن يعرض الأمور بصورة سلبية، وأن يبني قناعا ته.. ومقولاته على عبارات صدرت عن أصحابها في زمن يختلف عن زماننا في العقل والتفكير وأنماط العيش والتصرف والعواطف.

فالإسلام الذي رفضه «البابا» يقول في القرآن عن الغابرين:

ـ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ١٤١/٢).

ذلك تعليماً منه للنَّاس، أنه باختلاف المصالح والأجيال تختلف العواطف والأقوال. فإن كان الدين لا يجوز فيه الاختلاف. فإن الشرائع تختلف من زمن على زمن.

لذلك نمسك عن استعادة ردود الأفعال. ونكتفي بإيراد الرسالة الرصينة التي وجهها صاحب الغبطة أغناطيوس الرابع هزيم بطريرك إنطاكية وسائر المشرق للروم الارثوزكس.

«إلى قداسة الحبر الأعظم بند يكتس السادس عشر الجزيل الاحترام.

بعد التحية والتمنيات بصحتكم.

تابعنا بقلق بالغ، تصريحاتكم، وردود الأفعال الغاضبة التي رافقتها على مدى الأيام الماضية.. وبهذا الصدد. نود أن نوضح لقداستكم بعض النقاط

http://kotob.has.it

الجوهرية التي يعيشها ويؤمن بها مسيحيو الشرق. وهم الأكثر معرفة ودراية وفهماً للمسيحية والإسلام. معاً، أكثر من أية جهة أخرى في العالم. وهم في حالة تعايش وتعاون وانسجام منذ بداية الدعوة الإسلامية وحتى يومنا هذا.

وقد أقمنا أفضل العلاقات القائمة على احترام الأديان وحرية ممارسة الشعائر كل كما يشاء وبحسب تعاليم وقواعد شريعته، انطلاقاً من أنَّ العلاقة الجوهرية بين المسيحية والإسلام. وثقافة التعايش الفريدة. انطلقت من هذا الشرق ومن هذه الأرض التي هي أرض الديانات المقدسة.

وقد أشاد قداسة البابا «يوحنا بولس الثاني» ــ كما تعلمون ــ بهذا التعايش وهذه العلاقة التي عرفها وقرأ عنها وأطَّلع عليها خلال زيارته التاريخية إلى سورية ووقائع الزيارة وما كتب عنها وما قيل فيها صار جزءاً من تاريخ الفاتيكان ومرحلةً من مراحل التطور الذي أراده قداسة البابا الراحل.

ولا نريد الخوض في تفصيلات علاقة المسيحية بالإسلام والإسلام بالمسيحية تلك العلاقة الزاخرة بالمواقف التي تكرس التعايش والاحترام المتبادل فنحن في غنىً عنها في هذه الظروف، كما لا نريد التذكير بأن أطول السور في القرآن الكريم هي التي تحدثت باحترام شديد عن المسيحية.

ولكننا نشير إلى الدين كموضوع بحث أكاديمي لا يستقيم مع حقيقة أن الدين عقيدة وإيمان، يمارسه المؤمنون فلكل الحق ــ كل الحق في ممارسة شعائره الدينية كما يشاء ولا مجال هنا إلى الاجتهاد. واعتبار الدين، قضية فكرية بمقدار ما هي قضية عقائدية.

وإنَّ تناوُلَهاَ بهذا الشكل، يمس المفاهيم والمعتقدات آملين أن تسهموا في دفع جوهر الأديان من على مائدة الحوارات والاجتهادات والاستشهادات التي عفا عنها الزمن. وأن تتم مقاربة هذه الثوابت العقائدية للأديان من هذا المنظور لا من منظور القرون الوسطى. مؤكدين أن الدين ليس لممارسة الترف الفكري والفلسفي بمقدار ما هو للعيش والتعايش بالمحبة، بما ينسجم مع المعتقدات والشرائع والشعائر أيضاً. وهذا ما يتَّسم به الشرق الذي فيه نعيش منذ بداية الرسالات السماوية وحتى اليوم نطلب أدعيتكم وندعو لسيادتكم بكل خير».

أغناطيوس الرابع هزيم

بطريرك إنطاكية وسائر المشرق

http://kotob.has.it

هذه الرسالة الرصينة. هي مشعل حضاري، لا يعرفه الغرب.

لقد عبرت عن الواقع المعاش في الشرق منذ فجر الإسلام، وهي بتأكيدها على قيام العلاقات السليمة بين المسيحيين والمسلمين منذ قيام الدعوة الإسلامية. إنما هي ردّ عياني واقعي على من يقول إن الإسلام دين عنيف انتشر بالعنف والقتل. وهي في الوقت ذاته تؤكد أن الأصولية الحقيقية هي عكس الإرهاب، الذي سوّقه الغرب بأنه القتل العشوائي.

فالأصولي الحقيقي، لا يمكن أن يقتل. ولا يمكن أن يكره، أو يسرق أو يزني أو يطمع فيما لدى الغير، سواء أكان مسيحياً أو مسلماً.

ـ «فالمسيحي الحقيقي، هو الذي يتمسك بالأصول المسيحية ـ كما وردت بأقوال المسيح (عليه السلام ومنه السلام) الذي أوجب محبة الأعداء».

(متى ـ ٥/٤٣ ـ ٤٤).

المسلم الحقيقي، هو الذي يتمسك بالأصول الإسلامية، كما وردت في القرآن الذي اعتبر القتل من الكبائر. وقال:

ـ ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ **(المائدة: ٥/٣٢).**

أما قتل النفس بالحق الذي أناطه القرآن بالسلطة التي تمثل ضمير الشعب وقد تقيَّد بأحد الحقَّين:

أولهما: أن يكون المتهم قاتلاً.

الثاني: أن يكون المتهم مفسداً في الأرض. وهذان القيدان، ذكرتهما الآية ٣٢ من سورية المائدة. كما طبقتهما قوانين الأمم: حيث نصت على عقوبة الإعدام فيمن قتل نفساً بغير حق. وفيمن أفسد في الأرض: مثل خيانة الوطن والعصيان المسلح.

وتكاد رسالة البطريرك، حينما أكدت على التسامح والمحبة القائمين بين مسيحيي الشرق ومسلميه تشير إلى ما يعانيه المسلمون في الغرب. فهم ـ حتى الآن ـ في نظرهِ لم ينالوا، غير الدرجة الثالثة في قطار الحياة، حيث الخبز قليل والماء قليل والهواء ثقيل.

* * *

http://kotob.has.it

لقد أردنا من هذا السرد التاريخي المختصر الذي قدمنا فيه صورة الاستشراق الديني، والعسكري، والاقتصادي. وصورة الاستشراق الجديد العلمي الذي يخفي هولات الهيمنة.

نقول: أردنا من تلك الجولة التاريخية وإفراد الاستشراق بالفصل الأول من الكتاب، لكي يتضح للقارئ أن غايات مستشرقي القرن العشرين لا تختلف إلا بالصيغة عن مستشرقي القرون الخوالي.

طبعاً: يجب ألا تكون، هذه العواطف الدامعة هي المشجب الوحيد الذي نعلق عليه ثياب «تخلُّفِنا» و«شرذمتنا» و«أميِّتنا» وأن نخلي أنفسنا من المسؤولية إخلاءً تاماً.

فالجميع يعلم أنه، لو لم تكن مجتمعاتنا من شرق الأمة إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها، قد أكلها الصدأ، لما كانت سياسة الغرب وأفكاره ترد إلينا بصيغة الأوامر.

على كل حال: ونحن في صَدَدِ قراءة نقدية، حيادية لكتاب المستشرق الألماني. نولدكه: «تاريخ القرآن ــ بأجزائه الثلاثة» ولسنا في تتبُّع أخطائنا التي لا تُغطِّيها «فقرة» ولا «فصل» ولا «محاضرة». فسوف نوجه الاهتمام، نحو غاية كتابنا، وهو تتبُّع أخطاء نولدكه، في كتابه، ووضع التصحيح بجانب كل خطيئة.

والتأكيد سلفاً، أننا لا ندعي ولن ندعي إن ما كتبناه هو الحقيقة التي لا حقيقة سواها. ولكننا نستطيع التأكيد على أن جهودنا لم تكن تلبية لرغبة أحد. بل انطلقت من الوجدان. محمولة على الحياد.

وهي إذ تعترف بأنها وجهة نظرنا، تلتمس العذر من القارئ إن وجد فيها، غلواً، أو شططاً، أو خطأً.

* * *

http://kotob.has.it

الفصل الأول

في: أصل القرآن

توضيح إحصائي

يقع هذا الجزء في ٢٣٢ حيث تقع الصفحة الأخيرة في الجزء الثاني وهذا الجزء يتألف مما يلي:

١ ــ تصدير «برنا رد فوغل» رئيس مؤسسة كونراد ــ أدينا ور وهو يتكوَّن من صفحتين.

٢ ــ مقدمة المترجم إلى العربية، وهو المدعو «جورج تامر» وضعها في سنة ٢٠٠٤ في أربع عشرة صفحة.

٣ ــ ملاحظات لتسهيل التحرك في الكتاب. تقع في صفحتين.

٤ ــ المقدمة التي كتبها مؤلف الطبعة الأولى للطبعة الثانية وهو مؤلف الكتاب «نولدكه» وهي صفحة واحدة.

٥ ــ مقدمة «المعدّل» فريدرش شفاليه، وضعها في ٢٧ آب سنة ١٩٠٩ بصفحتين.

٦ ــ فهرس للسور التي عولجت في الجزء الأول. وقد تضمن ١١٤ سورة وُضِعَت في صفحة ونصف الصفحة.

ــ يليها في النصف الثاني من الصفحة تعداد لأسماء وأرقام السور المكية في الفترة الأولى وعددها ٤٨ ــ سورة.

ــ ثم الفترة المكية الثانية وعددها ٢١ ــ سورة.

ــ ثم الفترة المكية الثالثة وعددها ٢١ ــ سورة.

ــ ثم المدنية وعددها ٢٤ ــ سورة.

بعد ذلك: بدأ الكتاب كما يلي:

http://kotob.has.it

أ. محمد (ﷺ) نبياً. مصادر تعليمه

مقدمة:

ليس من شك في أن المؤلف لا يقر بنبوة محمد (ﷺ). وذلك أمر لا يؤاخذ عليه، لأن الإنسان ــ كما قيل ــ يولد على الفطرة فأبواه يمجّسانه أو يهوّدانه أو ينصرانه. وهو لو ولد في بيت آخر لتلقّن منذ الصغر عقائد ذلك البيت وثوابته الدينية.

ولكن الذي يؤاخذ عليه الباحث العالم «نولدكه» الذي يقول أنه قرأ القرآن والسيرة النبوية بإمعان هو إصراره الشديد على الأمور التالية:

ــ إن المؤونة العلمية التي نشرها محمد (ﷺ) في القرآن، جاء بها من الغرباء، ويقصد اليهود والمسيحيين.

ــ ومحمد (ﷺ) ــ مع نبوته ــ لا يزعم أن جميع ما صدر عنه كان وحياً.

ــ ثم ذلك الوحي، الذي زعمه، لم يكن غير وهم غرائزي ظل يتفاعل ويتضخم باطنياً حتى دفع به إلى ادعاء النبوة.

ــ ولكن تبقى ــ بدون شك ــ المصادر الحرفية هي الكتابات اليهودية:

ــ (عبارة لا إله ألا الله).

ــ (والقصص).

ودينه يقتفي في جوهره، الدين المسيحي، لأنه كان يقرأ الترجمات العربية للكتب اليهودية والمسيحية.

ــ كما تأثر كثيراً بخطب «زيد بن عمرو بن نفيل» وحفظ كثيراً منها، كذلك تأثر بشعر «أمية بن أبي الصلت» وحفظ كثيراً منه.

ــ وهو بالتأكيد ــ لم يكن أمياً، بمعنى عدم معرفة القراءة والكتابة

* * *

http://kotob.has.it

١ ـ مؤونة محمد الفكرية التي نشرها في القرآن تسلمها من الغرباء:

يقصد المؤلف «بالغرباء» اليهود والمسيحيين، لأنه وجد في القرآن اعترافاً بالأنبياء السابقين. كما وردت فيه الإشارة باحترام وتعظيم إلى التوراة والإنجيل والصحف.

ولكن المؤلف: ــ إن كان معذوراً في عدم اعترافه بنبوة محمد (ﷺ).

ــ فهو غير معذور في معرفة طبيعة النبوة وعلاقة اللاحقين بالسابقين.

فالأنبياء يعتقدون أن الذي خلق الخلق، لا يمكن أن يتخلى عنهم لذلك كان يرسل رسله إليهم، من أجل هدايتهم إلى طريق الحق وكان كل نبي يبلغ إلى الناس ما يفهمه الناس ويستطيعون تطبيقه. لذلك: ولما كانت البشرية مفطورة على التطور فقد جاءت الرسالات حاملة معها الإرشادات، متطورة. ولذلك كان اللاحق ينطلق من حيث انتهى السابق فيكمله ولا يلغيه.

ــ **فالمسيح قال:** «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض، بل لأكمل فإني الحق أقول لكم. إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل»

(متى: ٥/١٧ ــ ١٩).

ثم لم يلبث أن وضح بعض الإكمال الذي جاء من أجله فقال:

ــ «قد سمعتم أن قيل للقدماء لا تُقتل. ومن يقتل يكون مستوجب الحكم. أما أنا فأقول لكم:

ــ كل من يغضب على أخيه باطلاً يكون مستوجب الحكم.

ــ إن كل من قال لأخيه «رقا» يكون مستوجب المجمع.

ــ ومن قال «يا أحمق» يكون مستوجب نار جهنم.

ــ وإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئاً فاترك قربانك قدام المذبح واذهب أولاً اصطلح مع أخيك».

(متى: ٥/٢١ ــ ٢٢ ــ ٢٣).

ــ قد سمعتم أن قيل للقدماء «لا تزن».

أما أنا فأقول لكم:

ــ إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها، فقد زنى بها في قلبه.

http://kotob.has.it

ـ إن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحدُ أعضائك ولا يلقي جسدك كله في جهنم.

ـ وإن كانت يدك تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقي جسدك كله في جهنم.

فالأحكام المسيحية التي خالفت التوراة هي التي وضعها المسيح، استجابةً لحالة التطور. لأن فحوى التطور هو الانتقال من الطور القديم إلى الطور الجديد.

والطَّوْر ـ يعني الحال وإلغاءه. وفي قوله تعالى:

ـ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً﴾ (نوح: ٧١/١٤).

وقول الشاعر: «والمرء يخلق طوراً بعد أطوار».

معناه اختلاف حالات الناس منذ الخلق ثم بعده يكون الانتقال إلى الأحسن.

ـ **ومحمد (ﷺ) قال:** بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

ومثلما أعلن المسيح خلود الناموس، تلا محمد (ﷺ) على الناس الآية (٢٨٥/ من سورة البقرة) مؤكداً لهم إيمانه برسالات السماء ورسلها أجمعين دون تفريق أو تمييز.

ـ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (البقرة: ٢/٢٨٥).

لذلك قرأنا ما قرأناه في الإنجيل.

فجميع ما جاء في الرسالات متجاوزاً المتأخر منها المتقدم في الأخلاق الاجتماعية والتنظيم والتشريع، هي أمور اقتضتها حالات التطور البَشري.

فالسبت ـ كما قال المسيح ـ خلق من أجل الإنسان ولم يخلق الإنسان ـ كما قال اليهود من أجل السبت.

وما يدخل إلى الفم ـ كما قال المسيح ـ لا ينجس ـ أما الذي يخرج منه فهو الذي ينجِّس.

وهكذا: كان على المؤلف أن يرى أن ما جاء في القرآن من اختلاف في الأحكام عن التوراة والإنجيل، هي قواعد تنظيمية اقتضتها طبيعة التطور البشري. وكل ما جاء فيه متفقاً معهما، إنما هو مما لم يتجاوزه التطور.

والرسل جميعاً وإن حملوا رسالة السماء إلى الناس. أدركوا أكثر من غيرهم، بل قبل غيرهم: أن الله لم يتخل عن خلقه. وأنه هو الذي خلق فيهم

http://kotob.has.it

حاجة النزوع إلى التطور. لذلك كتب على نفسه الرحمة أي فرضها. فالرحمة هي الهداية، والهداية هي معرفة الخير والشر:

ـ ﴿...كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام: ٦/٥٤).

ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٧٦/٣).

لذلك: وتأكيداً لهذا التطور الذي وضعه الله في تركيب الإنسان لم يقل أحد منهم، «أنا آخر المصلحين». أو «رسالتي هي الكفيلة بتلبية حاجات التطور إلى آخر البقاء الإنساني».

بل: ـ **قال موسى:** «سوف يأتي مسيّاً».

ـ **وقال المسيح:** «سوف يأتي المعزي ـ البار قليط»[1].

«إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا طلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلىالأبد ـ روح الحق.. » (يوحنا: ١٤/١٥ ـ ١٦).

«متى جاء المعزي الذي سأرسله إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق».

(يوحنا: ١٤/١٥ ـ ١٦).

ـ **وقال محمد** (ﷺ): «سوف يأتي من يملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً على أنه لا نبي بعدي».

والحضارات المتتالية علماً وفناً وحكماً. تتابعت دون عداء ودون رفض السابق من اللاّحق بل آخذ منه ما يتلاءم مع العصر فكمله وأضاف إليه وترك ما يتلاءم مع الناس دون مساس. بهذا المنطق نستطيع إن نقول:

ـ نكون ظالمين ومحدودي الرؤية إن اعتبرنا ابن سينا صورة مصدقة عن «أبقراط أو جالينوس» وإن اعتبرنا الفارابي نسخة مطبوعة عن أريسطو.

ـ نعم استفاد ابن سينا من أبقراط وجالينوس ولكنه طوّر وأضاف حتى ملأت شهرته الدنيا وهو دون العشرين.

---

[1] البار قليط، هي كلمة يونانية، ترجمت إلى العربية بلفظ المعزّي.
ولكن معنى «البار قليط أو باركلتيوس» في اليونانية هو «المميَّز»، «المُنتقى» ، «المصطفى» والنسخة العربية من الأناجيل مترجمة عن أحدى اللغات الأوروبية وتلك بدورها مترجمة عن اللاتينية. وهذه مترجمة عن اليونانية.

http://kotob.has.it

كذلك الفارابي: درس منطق أريسطو ولكنه زاد عليه وأضاف إليه واستقل عنه حتى لقبوه «بالمعلم الثاني» وحتى قال «ابن سينا» لقد قرأت كتاباً لأريسطو أربعين مرة فلم أفهمه، إلا بعد أن رجعت إلى شرح الفارابي له. لذلك:

ليس مستغرباً أن تلتقي رسالة الإسلام بالرسالات السابقة[1].

بل الغريب أن تنكرها أو لا تتفق معها. لأن ذلك يعتبر كفراً بالله وشركاً بوحدانيته. فالمتكلم واحد والغاية واحدة. هي تربية الإنسان وهدايته إلى الخير. ونهيه عن الشر.

قال الإمام علي: «إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً..»

«كل ما تشكر الله عليه فهو منه. وكل ما تستغفره عنه فهو منك».

- لم يزعم محمد (ﷺ) أن جميع أقواله كانت وحياً. وإن «الوحي» عنده كان وهماً غريزياً، ظل يتفاعل، حتى طغى فدفع بصاحبه إلى ادعاء النبوة والدعوة إليها.

تلك من أقوال المؤلف التي تنقصها الحصافة العلمية نوجز مناقشتها بالآتي:

الوحي: هو إعلام بخفاء، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله، وقد جاءت متكررة في القرآن بصيغة المجهول، للدلالة على أن الله هو الموحي، وأن الرسول هو الموحى إليه.

- ﴿... وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ..﴾ (الأنعام: ٦/١٩).
- ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَى إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف: ٧/٢٠٣).
- ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (يونس: ١٠/١٠٩).
- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ (الكهف: ١٨/١١٠).

وحتى لا يختلط الكلام البشري بالكلام الإلهي قال النبي (ﷺ)

«من كتب عني غير القرآن فليمحه»

وذلك: إشعاراً منه أن الوحي اقتصر على القرآن، وأنه لم يقل أبداً أن جميع أقواله كانت وحياً. فهو بشر يعيش بين الناس ويرتبط معهم بعلاقات

---

[1] هو كتاب «ما بعد الطبيعة»

http://kotob.has.it

اجتماعية تقتضي الكلام كما تقضي العمل. وكان حينما يستشار في أمر من أمور النشاط الإنساني الدنيوي يقول: أنتم بأمور دنياكم أدرى.

حتى إن الخليفة الثاني (رضي الله عنه) ضرب رأس كعب الأحبار بالدرة وقال له: إنْ لم تنته عن الحديث عن رسول الله (ﷺ) ألحقتك بأرض القردة.

وفي كتب السيرة مئات الأدلة على أن النبي (ﷺ) فرق تفريقاً بين ما كان ينزل عليه بالوحي رسالةً من الله. لكي يبلغها إلى الناس وجمعيها تعالج أمور تشريع ونشر مزايا الإسلام بين الأمم..

- ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ..﴾ (المائدة: ٦٧/٥).
- ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً..﴾ (الأعراف: ١٥٨/٧).
- ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً﴾ (النساء: ١٠٥/٤).
- ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢/٢٦ ـ ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥).

فالنبي فرق بين كلام الله عن طريق الوحي. وبين ما كان يتكلم به بين الناس، إلى أن صار يُنظَرُ إلى التفريق على أنه نهيٌ مطلق، فثمَّة كثير من موَاقف النبي (ﷺ)، نهى فيها عن تدوين الحديث.

منها النهي الصريح في الحديث الذي ذكرناه آنفاً. ومنها ما رواه أبو هريرة قال: «خرج علينا رسول الله (ﷺ) ونحن نكتب الأحاديث فقال: ما هذا الذي تكتبون؟ قلنا: أحاديث نسمعها منك. قال: كتاب غير كتاب الله؟ أتدرون ما فعل بالأمم قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى.»

وقد روي: أن أبا بكر أحرق خمسماية حديث كان قد جمعها. وكاد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أن يجمع سنة رسول الله لكنه استخار الله شهراً ثم وقف على المنبر وقال: إني كنت أريد أن أكتب السنن وإني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتباً فاكبوا عليها وتركوا كتاب الله وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيءٍ أبداً.

نعم: لقد ذكر محمد عجاج الخطيب في كتابه «السنة قبل التدوين» إلى التدرج في «النهي عن كتابة الحديث». «وأباحتها» فقال:

- في بدايات الدعوة، حينما لم يكن المسلمون قد تفهموا آيات القرآن نهى رسول الله عن كتابة الحديث.
- وكان النهي في بداية الأمر، عدم كتابة الآيات القرآنية مع الأحاديث في صفحة واحدة خوفاً من الاشتباه بين الإلهي والبشري.

http://kotob.has.it

ـ ولما كثر عدد المسلمين عرفوا القرآن معرفة مانعةً للجهالة وميزوه عن الحديث زال الخوف والحذر وصار الأمر إلى جواز الكتابة. ومع أن «محمد عجاج» ويقول: «وصار الأمر إلى جواز الكتابة».

ـ فإنه لم يذكر ممن صدر الأمر.

ـ ثم لو كان الأمر صادراً عن الرسول (ﷺ) لما نهى عن الكتابة.

ـ وإن كان قد صدر بعده، فيكفي للرد عليه: موقف أبي بكر (رضي الله عنه) وموقف عمر (رضي الله عنه) وموقف علي (كرم الله وجهه).

ويزداد الأمر ضباباً كلماً أوغلناً في الزمن بعد النبي والراشدين.

على أي حال، فنحن لم نورد ما أوردناه من ثوابت التفريق والنهي، إلا لكي ندحض نية المؤلف. فهو إذ قال: «لم يقل محمد (ﷺ) إن جميع ما صدر عنه من قول وفعل كان وحياً»

لم يقصد أحاديثه مع الناس في المجالس وسواها. بل قصد الآيات التي افترض أنها صححت «زيادة ونقصاناً» من النبي دون وحي.

فالنبي (ﷺ) ـ خلافاً لافتراضات المؤلف ـ لم يزد أو ينقص كلمة واحدة على القرآن لأنه وحي إلهي. أما سواه من الأقوال والأحاديث الصادرة عنه فقد صرح مرات عديدة أنها ليست وحياً.

وفي القرآن صراحة بالغة في كونه بشراً مثل الناس، الكهف (١١٠/١٨) وليس هو فحسب: بل جميع الأنبياء كانوا بشراً يبلغون الوحي برسالة السماء ويتحدثون ويتصرفون في الدنيا كأبناء الدنيا من حيث «الطعام» و«الشراب» و«الجيئة» و«الذهاب» و«النوم» و«الاستيقاظ».

ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٥/١٧).

ـ ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ، وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام: ٨/٦ ـ ٩).

كذلك: ليس الأنبياء بشراً فحسب. بل أيضاً الملائكة حينما يكلَّفون بمهمَّةٍ في الدنيا. كانوا يتأنسنون لكي يراهم ويسمعهم من أرسلوا إليه.

ففي إنجيل لوقا:

ـ «وفي الشهر السادس أُرسلَ جبرائيل الملاك من الله، إلى مدينة من الجليل اسمها «ناصرة» إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داوود اسمه يوسف واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها،

http://kotob.has.it

الرب معك مباركة أنت في النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية، فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نِعمةً عند الله ستحبلين وتلدين ابناً وتسمينه يسوع» (لوقا: ١/٢٦ إلى ٢٢).

هذه القصة: تدل بشكل قاطع على «الحبل والولادة» و«تأنسن الملاك» بحيث رأته مريم، وسمعته، واضطربت من كلامه. وهذا جميعه حالات إنسانية مادية.

فالذي يُحبَلُ به تنطبق عليه قوانين الجنين في الرحم، وبعد الولادة تنطبق عليه قوانين الطفولة، من الرضاع حتى أوائل العقد الثاني.[1]

هذه القصة الإنجيلية التي روت لنا تأنسن ابن الله وتأنسن الملاك، وردت في القرآن بصيغة أصرح وأوضح:

ـ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا، فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا، قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا، قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا، فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (مريم: ١٩/١٦ حتى ٢٢).

فالتوراة والمزامير والأمثال. ملأى «بالتصرفات» و«التصريحات» و«الخطب» و«النشاط البشري» الذي كان يصدر عن الأنبياء والرسل.

ولولا قناعتنا، بالنية الملتوية عند المؤلف، لعدنا بقوله: إنه يقصد الأحاديث والتصرفات البشرية التي وصفها النبي (ﷺ) بأنها «ليست وحياً» ولكننا واثقون من انه شمر عن ساعديه لكي يثبت للمسلمين وسواهم أن ما سماه محمد (ﷺ) وحياً، لم يكن غير زعم بشري ملفق.

أما قول المؤلف: «إن جميع ما وصفه محمد (ﷺ) بأنه «وحي» ليس غير أوهام غريزية ظلت تتفاعل وتنمو في داخله حتى طغت فدفعته إلى ادعاء النبوة والدعوة إليها».

فهذا القول:

ـ عدا عن أنه نفي قاطع لعلاقة الدعوة الإسلامية بالله.

ـ تنقصه الحصافة العلمية.

ـ ثم هو ـ في ذات الوقت ـ قول خارج عن مهمة كتاب المؤلف التاريخية ليدخل في علم العقائد.

---

[1] كان المسيح يكرر دوماً انه ابن الإنسان.

http://kotob.has.it

أمَّا من جانبنا، فإننا نقول: عدا عن أن المؤلف نفي نفياً قاطعاً علاقة الدعوة الإسلامية بالله. توغَّل، بقوة التربية والثقافة البيئية، في فكرته، حتى ضيَّع الحصافة العلمية من بحثه. وأسقط بيده بُرقُعَ التخفي، ليغد ومستشرقاً مندفعاً بمهمة عقائدية، هي زلزلة أعمق وأعز ما في الشرق من أفكار وعقائد فالشرق يكاد جمعيه يقول له ولأمثاله، هو ذا «القرآن» الذي مازال أتباعه يؤمنون به منذ أربعة عشر قرناً وهم اليوم يقاربون المليار ونصف المليار منتشرين في قارات الدنيا هو ذا القرآن بين أيديكم بلغته الأساسية وبترجماته إلى الألسن الإنسانية كافة، يتحدى وبقول آمراً النبي (ﷺ):

ـــ ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ١٧/٨٨).

لقد أراد المؤلف أن يذم فمدح. إذ فاته أنه بنفي الوحي الإلهي عن القرآن وإصراره على أن القرآن من تأليف محمد (ﷺ) إنما يزيد الانبهار بتلك الشخصية اليتيمة منذ الصغر الأمية، التي استطاعت أن تضع كتاباً تضمن، أصول العبادة والأخلاق والتشريع، وظل أتباعه حتى الآن يؤمنون بكل حرف من حروفه وهم اليوم يقاربون ملياراً ونصف مليار إنسان.

إن جمهورية أفلاطون التي اعتُبرت من كبريات الكتب لم تصمد طويلاً أمام النقد. ومثلها جميع ما كتب، لم يلبث طويلاً حتى تجاوزه الزمن وملأته الثقوب.

القرآن: بسورة المئة وأربع عشرة سورة. احتوى على علاقة المخلوق بالخالق. وعلى الشريعة التي وضعت أحكاماً وحلولاً حتى لأدقِّ التصرفات، وعلى الجهاد في سبيل الله والوطن والخير وعلى الأخلاق الفردية والاجتماعية، كما احتوى على قصص الاعتبار التاريخية، ودعا إلى الإيمان بجميع الرسل. وبينَّ أن كلا منهم كُلف برسالة تربوية تنظيمية إلى الإنسانية جمعاء.

وفوق هذا كله:

ـــ فهو معجز في لغته وتعبيره.

ـــ وفيه من الإشارات العلمية ما لم تكتشفه قوانين العلم إلا في أزمنة متأخرة[1].

إن القول ببشرية القرآن، ونسبته «سوراً وآيات» إلى محمد بن عبد الله (ﷺ) يؤدي من حيث لا يريد المؤلف إلى إعجاب لا حدود له بشخصية هذا

---

[1] سوف نضع بعد الانتهاء من هذا الفصل بحثاً عن المعجزة وبعض الإعجاز القرآني، في العلم والكلام. كما سوف نتحدث عن الإعجاز في شخصية النبي محمد (ﷺ).

http://kotob.has.it

الرجل إذ يقيِّم بمقتضى هذا القول بأنه أعظم مخلوقات الكون منذ إن وجد الكون وذلك لا يتأتي عند غير المسلمين في حالة الاقتناع بأنه وحي.

وذلك: لأن عَظَمَةَ الوحي من عظمة الموحي الذي هو الله الذي علت عَظَمتُهُ على كل عَظَمة.

أما طغيان الوهم في نفس محمد (ﷺ)، حتى دفع به إلى ادعاء النبوة، فهو قول مرسل يعبَّر عن عواطف قائله دون إن يقرنه بحجة أو دليل.

طغيان الوهم، هو حالة الهلوسة في أقصى مراحلها.

لا ندري إن كانت كلمة «وهم» تعبر عما ترجمت عنه في الألمانية. فإن كانت في الأصل التأليفي تعني «الوهم بمعناه العربي» كان من المستحيل على الواهم أن يصنع القرآن.

فالوهم ــ وجمعه أوهام ــ هو التخيلُ والتمثيل. وفي لسان العرب ــ «مادة الوهم». «أوهمت الشيء إذا أغفلته». ويقال في «وهمت كذا وكذا» أي غلطت. ويقال: أوهم من الحساب مئة أي أسقط، وأوهم الرجل في كتابه وكلامه. إذا أسقط. ووهمت في الحساب أي سهوت.

فإن كان من إنتاج الوهم عند محمد (ﷺ) «وضع القرآن» و«بناء الإسلام» و«تخريج أساتذة الأمم في الحكم والعلم والفن» فماذا كان يصدر عنه لو طرح الوهم وعاد إلي الرشد؟

إن وصف الظاهرة الإسلامية بإنجازاتها العظيمة في جميع الميادين، وانتشار ضيائها على مر العصور. بأنها حالة من طغيان الوهم عند محمد (ﷺ). خاصة إذا كان هذا الوصف صادراً عن عالم بحاثه طرح قلمه مؤكداً أنه يدور مع المنطق حيث دار. فأقل ما يقال فيه إنه وهم نجم عن تحيز وحقد. ولا ينتمي إلى العلم، وخاصة علم التاريخ.

* * *

http://kotob.has.it

٢ــ المصدر الحرفي لوحي محمد كان دون شك، الكتابات اليهودية، وتقدم مثلاً: عبارة «لا إله إلا الله» فهي ذات أصل يهودي.

أ ــ هذا التأكيد «بدون شك» دليل قاطع على خلو بحث المؤلف من الحياد العلمي.

ــ فمن يقع فريسة للوهم، لا يستطيع استيعاب التاريخ وحركات المجتمعات وإن استوعب لا يستطيع التعبير، وإن عبَّر فلن يكون التعبير معجزاً مثل القرآن..

ــ إن تواريخ الأنبياء تبقى «حيَّةً» في ذاكرة الشعوب لأنها وقائع يابسة لا يمكن التلاعب بها عند سردها، ولا يمكن إقامة بديل عنها والماضي «ما ساء منه وما حَسُن» يعتبر تاريخاً في نظر القادمين. وهو، بطبيعته، ليس محظَّراً على الآخرين، خاصة إذا كان يخص الأنبياء وينطوي على مبادئ الهداية للناس. لذلك لم يكن من الممكن ولا من المعقول أن يسرد تاريخ الأنبياء وكفاحهم في سبيل هداية الناس بشكل معاكس لما جاء في التوراة[١].

ــ أما عبارة «لا إله إلا الله» المعروفة في الإسلام والتي هي أول خطوة على طريق التوحيد الإسلامي، عاد بها المؤلف إلى عبارة صموئيل[٢] الثاني في ٢٢/٣٢ ومزمور داوود[٣] ٣٢/١٨ ــ واتهم محمد (ﷺ) بأخذها من هناك واعتبارها من خصوصيات الإسلام.

هذا القول الصادر عن المؤلف ألزمنا بالعودة إلى المصدرين وقراءتهما بتمعن لكي نرى فيما إذا كان قد اقتنصها محمد (ﷺ) أم لا.

ــ عبارة صموئيل الثاني هي: «لأن من إله غير إلهنا. ومن هو صخرة غير إلهنا» هذه الـ «نا» في كلمة «إلهنا» تعيد إلى الذهن فكرة التخصيص التي ادعاها اليهود وما فتئوا يرددونها منذ ما قبل صموئيل وحتى اليوم.

تلك الخصوصية المتبادلة (اختصوا بالرب والرب اختص بهم) لذلك ولكثرة تعدد الآلهة في ذلك الزمن، ولشيوع التعصب من كل قوم تجاه إلههم لم تستطع عبارة صموئيل أن تتخلى عنها، فهو في نظرهم مصدر فخرلهم على الشعوب، لأنه صخرة لا تضاهيها صخرة أخرى وإله لا يماثله أحد من الآلهة. ولقد تكرر هذا المعنى التخصصي فيما تلا بالاصحاح ذاته.

---

[١] لابد من لفت النظر إلى أن التوراة لا تحتوي على قصص جميع الأنبياء الذين أتى القرآن على ذكرهم كما إن القرآن لم يذكر من أنبياء إسرائيل إلا الذين كلفوا برسالة إلى أقوامهم.

[٢] صموئيل: في أواخر القرن ١١ ق.م

[٣] داوود والد سليمان ــ صاحب المزامير وثاني ملوك اليهود.

http://kotob.has.it

«إلهنا. الإله الذي يعززني بالقوة ويصيِّر طريقي كاملاً. الذي يجعل رجلي كالأيِّل.. وعلى مرتفعاتي يقيمني. الذي يعلم يديَّ القتال فتُحنى بذراعيَّ قوس من نحاس. ويجعل لي تُرس خلاصك. ولطفك يعظمني. توسِّع خطواتي تحتي فلا تتقلقل كعباي. ألحق أعدائي فأهلكهم ولا أرجع حتى أُفنيهم وأسحقهم فلا يقومون بل يسقطون تحت رجلي» (صموئيل الثاني: ٢٢/٣٢ حتى ٣٩).

ويسخر الاصحاح حتى الفقرة ٥١ ــ بهذا الأسلوب الذي يوضحَّ خصوصية عدالة الله وقوته في صموئيل وأبناء شعبه، حيث تظل مستمرة في التدفق إلى أن تنضب فلا يبقى لديها شيء لباقي الشعوب. (هذا أسلوب لا يمكن لأي منكر، أن يعود به إلى التوحيد)

ــ والمزمور ١٨ ــ من مزامير داوود يكرر فكرة صموئيل، حتى يلتقي معه في الألفاظ: «الرب صخرتي. إلى صخرتي به أحتمي».

يبقى من الغريب لدى القارئ هذا التوافق حتى يعرف أن المزامير نسبت إلى داوود وهي مكتوبة في زمن متأخر.

فإذا علمنا أن داوود حكم ما بين ١٠١٠ ــ ٩٧٠ ق.م. وأن السبي البابلي لليهود تم على مرحلتين:

ــ الأولى: في سنة ٥٩٧ ق.م

ــ الثانية: في سنة ٥٦٨ ق.م

وأن السبي الأكبر كان في المرحلة الثانية، أي التي بينها وبين عصر داوود ما يزيد على خمسة قرون. فإن وجود المزمور ١٣٧ بحرفيته ضمن قصيدة وضعها أحد المسبيين تثير الشك والارتباك وقد وردت منسوبةً إلى ذلك الأسير في المجلد ٢ من قصة الحضارة: حيث قال «وول ديورانت» وقد خلد أحد شعراء القافلة مأساة السبي والمسبيين في قصيدة منها هذه الأبيات «على أنهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون.. في وسط الصفصاف علقنا أعوادنا. لأن من سبونا طلبوا إلينا أن نغنيهم، والذين عذبونا أرادوا أن نطربهم ونادونا: هلا أنشدتمونا أناشيد صهيون وهل نستطيع أن ننشد نشيد الله في بلد غريب. لئن نسيتك يا أورشليم فلتنس يمنيي حذقتها وليلتصق لساني بحلقي إن لم أذكرك يا أورشليم وإن لم تكوني خيراً من أفراحي»

(قصة الحضارة ــ مجلد ٢ ــ ص ٣٥٨.)

وقد قال في أول ص ٣٥٨: «هذه الأغنية من أروع أغاني العالم».

http://kotob.has.it

ألا يدل هذا التوافق على أن داوود لم يصنع المزامير.[1] إذ كيف؟ وفي عهده لم يحصل سبيٌ ولا اضطر إلى الجلوس على ضفاف أنهار بابل، إذ بينها وبين فلسطين حيث كانت تتمدد مملكة داوود ألف كيلو متر تقريباً.

إذن ليس غريباً ذلك التوافق الحرفي بين صموئيل الثاني والمزمور ٣٢.

بل الغريب، أن يقول المؤلف أن عبارة التوحيد الإسلامية، لا إله إلا الله ــ مأخوذة عن صموئيل الثاني والمزمور ١٨، لأن أي متصفح للتوراة، الحالية «لن يجد فيها ما يشير إلى وحدانية الله ورحمته بخلقه وعدالته فيهم. بل كانت تنتشر بينهم عبادة الأوثان»

ــ ففي الملوك الأول ١٢/ ٢٨ ــ ٢٩ صنع «يربعام» عجلي ذهب وضع واحداً «في بيت إيل» والثاني في «دان».

ــ وفي حزقيال «٨/٩ ــ ١٠ ــ ١١ ــ ١٣» جاء: أنهم كانوا يعبدون الأصنام.

ــ وفي الملوك الأول أيضاً «١١/٤ ــ ٥ ــ ٦ ــ ٧ ــ ٨» لم يكن قلب سليمان كاملاً مع الرب فذهب وراء عشتورت آلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين وبنى مرتفعة لكموش رجس الموآبيين.

فإذا علمنا، أن تلك الأصنام وضعها سليمان في الهيكل وظلت حتى عهد «يوشيا» الذي ملك ما بين ٦٤٠ ــ ٦٠٦ ق.م. الذي نظّف الهيكل منها. توفرت لدينا المعلومات الآتية:

ــ إن اليهود بعد موسى لم يعرفوا ولم يمارسوا التوحيد.

ــ الأصنام التي وضعها سليمان ظلت مقدسة لدى اليهود حتى يوشيا أي مدة لا تقل عن ثلاثماية وثلاثين سنة.

ــ الفقرة الأولى من سفر التكوين «في البدء خلق الله السماوات والأرض» ورد نصّها العبراني بما ترجمته «في البدء خلقت الآلهة السماوات والأرض» وظلت بصيغة الجمع حتى حولها الفِرِّيسيُّون بعهد سليمان إلى صيغة المفرد.

ثم: حتى مجرد المقارنة بين عبارة «لا إله إلا الله» الإسلامية، وما جاء في صموئيل والمزامير غير صحيحة، لأن صراحة النص تفيد التوحيد والتنزيه في الكلمة الإسلامية في حين إن العبارتين اليهوديتين تفيدان أن اليهودي يعتقد بوجود عدد من الآلهة، ولكن الرب اليهودي أقوى منها جميعاً.

وكان لهذا الفرق أثر واضح في الأدبيات الدينية عند الطرفين. فالعبادة الإسلامية أوجبت على المسلم أن يعتقد بوحدة الخالق وعدالته. المطلقة واعتبار الخلق

---

[1] نرجو من القارئ أن يعود إلى المزمور ١٣٧ ليجد التوافق الحرفي الذي نوهنا عنه.

http://kotob.has.it

ـ جميعاً ـ عياله. فالخلق ـ في الإسلام ـ عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله. أما الأوامر الدينية اليهودية فهي «محبة القريب وبغض الغريب» لذلك عدَّد السيد المسيح الوصايا اليهودية ووصَّى بما يتلاءم مع الزمن، ومنها:

ـ «سمعتم أنه قيل [1] تحب قريبك وتبغض عدوك. أما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم باركوا لاعنيكم أحسنوا إلى مبغضيكم وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردوكم» **(متى ـ الاصحاح ـ ٥)**.

ونحن إذ نقارن بين العبادة الإسلامية وغيرها من العبادات. وبين العبادات اليهودية لم نقصد المفاضلة. بل التأكيد على أن التوحيد الإسلامي يختلف عن الاعتقاد اليهودي تبعاً لاختلاف الزمان والمكان. وأن صفات الإله عند كليهما مختلفة تماماً.

ـ ففي التوحيد الإسلامي:

ـ الله خالق الكون والكائنات بشراً وحيواناً. نباتاً وحجراً. جميعها ما ظهر منها وما سوف يظهر، كلمات الله أي مخلوقاته. **(الكهف: ١٠٩/١٨)**.

وجميع المخلوقات تأتي إلى الله عبيداً يوم القيامة. **(مريم: ٩٣/١٩ ـ ٩٤ ـ ٩٥)**.

أما في العقائد اليهودية الماثلة في التوراة الحالية[2]. فالرب ليس له من محب غير اليهود، أما باقي البشر فهم أعداؤه. لذلك كان سفَّاكاً للدماء محباً لرائحة الشواء، يقود بنفسه الجيش الإسرائيلي لينتقم من أعدائه بإبادتهم (تكوين ٢٣) و(روهلنج ـ كتاب التلمود شريعة إسرائيل).

ـ في الإسلام: ليس لله شبيه. ورحمته وسعت جميع مخلوقاته.

أما في اليهودية فإن الإنسان شبيه لله. حيث جاء في التكوين. وقال الله: «نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» «فخلق الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه، ذكراً وأنثى خلقهم».

ـ في الإسلام: يقتضي الإيمان بالتوحيد عدم الشرك.

ـ ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ **(لقمان: ١٣/٣١)**.

ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ **(النساء: ٤٨/٣)**.

---

[1] يقصد المسيح: ما جاء في التوراة.

[2] إذ قلنا الحالية. فلأن البدء بكتابة أسفارها جرى على يد عزرا في سنة ٤٤٤ ق. م لذلك، ولعدم وجود المصادر تواجه أسفار التوراة الحالية بحزمة من الشكوك المنطقية

http://kotob.has.it

أما في اليهودية: فتعدد الآلهة والأرباب مبثوث في أمكنة عديدة من التوراة. (الوصايا ــ) أرميا(١٩/٥ ــ ٢٠) أرميا (سفر ٧ ــ والسفر ــ ١٦).

ب ــ أما التعاليم والفروض:

فقد أبقى الإسلام على ما يتلائم منها مع تطور طبائع الناس تماماً مثلما فعل المسيح، حيث ألغى التشدد اليهودي.

فالرب الذي تعدد هناك قال المسيح بوحدانيته «الآب والابن والروح القدس إله واحد» والوصايا اليهودية اليابسة على الزمن حلت محلها المرونة المسيحية الناجمة عن المحبة الشاملة.

ففي الإسلام: توافق ــ إلى حد ما ــ مع الجزاء «النفس بالنفس والعين بالعين والسن بالسن»

يقابلها:

ــ ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ **(البقرة: ٢/١٩٠).**

أي:

ــ لا يجوز قتال من لم يقاتل المسلمين.

ــ وفي الرد القتالي يجب أن لا يحصل التجاوز أي أن لا ترتفع درجة الرد عن مستوى الدفاع عن النفس لأن تجاوزها يعتبر اعتداء، لا دفاعاً.

أما الفروض: من «صلاة» و«صيام» و«حج» و«زكاة». فإن اختلاف الزمن أوجب وجود الاختلاف فيها.

الخلاصة: نخلص مما تقدم

ــ أن الاتفاق بين ديانتين، إن وجد في بعض الأحكام لا يعني سطو المتأخر على المتقدم، والاختلاف إن وجد، لا يعني نفي المتأخر للمتقدم.

ــ فكل منهما رسالة من الله تضمنت الأوامر والنواهي والفروض والتعاليم بما يلائم تطور الإنسان.

فالله: الذي خلق في الإنسان «نزعة التطور» وخلق فيه آليات التطور من «بصر وبصيرة وسمع وحركة وذاكرة» أمره أن يسلك السبل بما خلق فيه من إمكانيات. ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ **(العنكبوت: ٢٩/٢٠).**

http://kotob.has.it

والله: الذي أوحى الرسالات ــ أوحى فيها من الفروض والأحكام والوصايا، ما هو على مقاس العقل الإنساني ــ لكي يستطيع الإنسان تنفيذها.

لذلك لم يكن من المقبول إن تأتي الرسالات بأزمنتها المختلفة نَسْخاً من المتأخر للمتقدم.

جـ ــ يقول المؤلف: في ص ــ ٨:

«إن الإسلام دين يقتفي المسيحية

«هو الصيغة التي دخلت بها المسيحية إلى بلاد العرب كلها»

ينسى ــ سامحه الله أنه قال في أوائل الصفحة ذاتها:

«كانت المسيحية على انتشار واسع في شبه الجزيرة العربية بين القبائل المتواجدة على الحدود الفارسية ــ البيزنطية، (كلب، طيء، تنوخ، تغلب، بكر) في الداخل (تميم) وفي اليمن التي كانت منذ زمن طويل تحت سيطرة الحبشة المسيحية. وحيث لم تكن المسيحية متأصلة كان يوجد إلمام بها.»

على أن ما قلناه عن الاختلاف وأسبابه بين اليهودية والإسلام ينطبق هنا، ولكن بمساحة أقل، لأن المسيحية جاءت تطويراً وإكمالاً للدين اليهودي.

ومثلما صرح المسيح، أنه لم يجئ لينقض بل ليكمل.

هكذا صرح محمد إذ قال: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق».

د ــ أما كلمة الفرقان التي قال المؤلف فيها:

«إنها لم ترد في غير الأنفال ٢٦/٨».

«الوحي في القرآن هو الفرق»

١ ــ الفرقان في اللغة يعني الحجة:

وفي الدلالة الإسلامية هو الفرق بين الحق والباطل. ففي الحديث «محمد (ﷺ) فرْق بين الناس» أي يفرق بين المؤمنين والمكذبين وفي الآية:

ــ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ ..﴾ (البقرة: ٥٣/٢).

يقصد كتاب التوراة الذي سماه بالكتاب ووصفه بأنه فرقان. وذلك بدليل الآية:

ــ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاء وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (الأنبياء: ٤٨/٢١).

http://kotob.has.it

ورجل فاروق: صفة لمن يفرق بين الحق والباطل. وقد وُصِف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بالفاروق من قبل النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى غلب عليه هذا الوصف فصار اسماً يعرف به. وقد روي عن علي (رضي الله عنه) أنه قال عن النبي (صلى الله عليه وسلم).

فجاء بفرقان مـــن الله منـــزل مبينة أحكامه لذوي الفـــضل

(ابن هشام ــ ص ــ ٥١٥)

وقال الفرزدق في عمر بن عبد العزيز:

أشبهت من عمر الفاروق ســـيرته فاق البرية وائتمَّت به الأمـــم

كما قال عقبة بن شماس في عمر بن عبد العزيز:

من أبوه عبد العزيز بن مروا ن ومن كان جده الفاروقـــا

٢ ــ **وللتصحيح فقط:** نقول عن كلمة الفرقان وردت في سور أربعة من القرآن، حتى جاءت سورة خاصة من القرآن بهذا الاسم.

أما أماكن وجود هذه «الكلمة في القرآن فهي»:

ــ	في البقرة رقم	٢ بالآيتين	٥٣ و ١٨٥
ــ	في آل عمران رقم	٣ بالآية	٤
ــ	في الأنفال رقم	٨ بالآيتين	٢٩ و ٤١
ــ	في الأنبياء رقم	٢١ بالآية	٤٨
ــ	في الفرقان رقم	٢٥ بالآية	١

٣ ــ **أما قوله بأن كلمة «الفرقان» لم ترد إلا للوحي.**

فيكفي القارئ أن يعود إلى الآيات السبع ليدرك مقدار الخطأ الذي وقع فيه المؤلف. إذ وردت في جميع مواقعها، بمعنى التفريق بين الحق والباطل.

هـ ـ وإذ طلب المؤلف من القراء أن يتمعنوا في الحاشية رقم (٩٦) ويقرأوا المناقشة المستفيضة التي ركزت على أهمية اليوم الآخر والمكانة التي يمثلها المسيح فوق جميع الأنبياء.

http://kotob.has.it

عدنا إلى الحاشية ٩٦ ــ فإذا فيها طلب العودة إلى:

ــ إنجيل لوقا ٢٨/٢١ و ٦٩/١ و ١٠/٧.

ــ والرسائل (رومية ــ ٢٤/٣) و(أفسس ٧/١) و(كولوسي ــ ١٤/١) و(عبرانيين ــ ١٥/٩).

فكانت لنا النتيجة التالية:

١ ــ نعم وبدون شك فالسيد المسيح يختلف عن الأنبياء في «الولادة» و«المعاجز» و«القيامة».

ولكن هذا الاختلاف ليس تفضيلاً من الله له على الأنبياء الآخرين إذ أعطى الله لكل نبي معاجز تعجز أهل العصر بما برعوا فيه.

فموسى: كلم الله وجهاً لوجه، وفلق البحر بضربة من عصاه، وأعاده بضربة من عصاه، واسقط الله باسمه على فرعون ورهطه عشرات الآيات.

ومحمد: خصه الله بإعجاز القرآن، تلك المعجزة القائمة التي عناها المسيح بقوله: «يمكث إلى الأبد» يوحنا ١٧/١٩

٢ ــ فالاختلاف في المعجزات بين الأنبياء، ناجم عن أن لكل عصر آيات تعجز أياً ، كان من أبناء العصر أن يأتي مثلها.

ثم لما كان الإنسان القديم، لا يؤمن حتى يرى المعجز بعينيه فقد جاءت الآيات مرئية بالعين المجردة.

«شفاء الأمراض بكلمة أو لمسة»، «إحياء الميت»، «الارتفاع إلى السماء»، «شق البحر بالعصا»، «إعادة بالعصا إلى الحالة السابقة». جميعها معاجز مرئية، سماها القرآن «مبصرة».

ــ ﴿ . .فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً..﴾ (الإسراء: ١٢/١٧).

ــ ﴿ فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (النمل: ١٣/٢٧).[1]

---

[1] هذه الآية وردت في قصة موسى وفرعون: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ، إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ، وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ، فَلَمَّا جَاءتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (النمل ــ ٢٧ / ٩ ــ ١٠ ــ ١١ ــ ١٢ ــ ١٣)

http://kotob.has.it

لذلك: وبما أن الله هو المرسل. والرسل جميعاً مكلفون منه تعالى. وكان تعدد الرسل والأحكام والآيات، لهداية الإنسان في أطواره المتعددة ــ التي يختلف فيها كل طور عن الآخر. فقد أكد القرآن على ثابتين.

الأولى: عدم التفريق بين الرسل. ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ..﴾ (البقرة: ٢/٢٨٥).

الثانية: تفضيل ولكنه محدود وموقوف على الله وحده

ــ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ..﴾ (البقرة: ٢/٢٥٣).

وفي كل حال:

ــ ﴿..وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (البقرة: ٢/١٠٥).

و ــ أمَّا قوله بأن محمداً (ﷺ) اعتبر نفسه واعتبره أتباعه أفضل الأنبياء فهو قول مرسل لا دليل عليه في القرآن.

نعم: جاء في الآية ﴿..قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ..﴾ (الأنعام: ٦/١٤).

ولكنها إذ جاءت إلى النبي بالأمر أن يقول «إنه أول المسلمين..»

فهذا المضمون في جميع التفاسير:

ــ قد ينصرف إلى «أول من استسلم لله»

ــ أو أول من أخلص العبادة.

ــ أو أول من أسلم من الأمة.

ولكنه: لا يمكن أن ينصرف إلى التفضيل على الأنبياء. حيث جاء مثل ذلك في الآية (الأعراف: ٧/١٤٣) تعبيراً عن توبة موسى وانقطاعه إلى الله. ﴿..سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ..﴾ أي: أول المؤمنين من قومي.

على كل حال، فاعتقاد المسلمين. كان ولا يزال في يد الله يؤتيه من يشاء. هذا حكم قاطع أمر محمد (ﷺ) بأن يعلنه. ﴿.. قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ..﴾ (آل عمران: ٣/٧٣).

أي: لا يستطيع محمد (ﷺ) أن يعتبر نفسه أفضل من الأنبياء.

http://kotob.has.it

ـ وبالتالي لا يستطيع ذلك أتباعه يظهره خاصة وفي القرآن نص صريح على عدم التفريق بين الأنبياء والرسل.

ـ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ..﴾ (البقرة: ٢/٢٨٥).

ـ ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٣/٨٤).

ز ـ قال: إن ما ورد في الآية (الصف: ٦١/٦). لا وجود له في العهد الجديد (الأناجيل).

قبل أن بنين وجهة نظر الإسلام والمسلمين كافة. في قول المؤلف وجب أن نضع مفردات الآية (٦١) وما يقابلها في العهد الجديد:

فالآية: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ..﴾ (الصف: ٦١/٦).

وفي العهد الجديد:

أ ـ «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنااطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد» (يوحنا ـ ١٤/١٧).

ب ـ مرات عديدة أعلن السيد المسيح عن نفسه أنه مرسل «متى ـ ١٥/١٤» حيث صرح بقوله: «لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة».

ففي تفسير ما تقدم من العهد الجديد تستوقف القارئ كلمتي «المعزي» و«آخر».

فالمعزي: في هذه الآية وسواها انبثقت عن الأصل اليوناني «باركليتوس» ـ فارقليط. ولكنها مرت بعدةِ مَصَافٍ «لاتينية» و«لغات أوروبية» ثم جاءت بصيغة «المعزي» في العربية.

ولكن المعزي من العزاء، والعزاء مظهر من مظاهر الحزن، في حين إن القادم الذي وعد المسيح بقدومه هو البشارة التي تحمل معها الفرح بالخلاص. و«باركليتوس» هي المعبرة عن الفرح بالخلاص لأن معناها اليوناني، «المصطفى». «المميز». «الكثير من الحمد ـ أحمد ـ محمود».

http://kotob.has.it

وقد ثبت في التاريخ، إن محمداً (ﷺ) كان أكثر الناس حمداً حتى لقد لقب بالصادق والأمين تمييزاً له عن الآخرين.

و«**معزياً آخر**» دلت على أن المسيح جاء بالبشارة، وسوف يأتي من بعده آخر يدعو إلى ما دعا إليه من التوحيد ومكارم الأخلاق.

وفي الآية (١٤) التي أوردناها من إنجيل متى: دليل على إن المسيح كان يعتبر نفسه مرسلاً، أي مأموراً من الله أن يبلغ الرسالة إلى الناس.

ثم: في الاصحاح (١٤) ــ من يوحنا العبارات التالية. وهي منقولة عن السيد المسيح مباشرة:

أ ــ «الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني».(١٤/٢٥)

ب ــ «لأني قلت امضي إلى الآب لأن أبي أعظم مني». (١٤/٢٩)

ج ــ «كما أوصاني الآب هكذا أفعل» (١٤/٣١)

أما كلمة «يمكث معكم إلى الأبد». فإنها لا تعني الشخص بشكله الناسوتي بل تعني الأفكار والمبادئ التي يأتي بها، إذ ليس من المعقول أن يبقى المعزي بجسده في حين أن المسيح لم يبق بجسده معنا إلى الأبد. بل بقيت تعاليمه ونصائحه أما هو فقد ارتفع إلى السماء وبعد:

فالكلمة، إن أُخذت بمعناها الشمولي، أعطتنا مساحةً من المرافقة تستوعب حاجات الدين وحاجات الدنيا. ولا يتوافر هذا المعنى الشمولي بغير القرآن الذي احتوى على معاني العبادات وأصولها. وبيان طقوسها. كما احتوى على تحديد وتنظيم جميع العلاقات الاجتماعية على جميع المستويات. حتى ليقول الكثيرون في أي عصر، وبين يدي أي جيل يجد فيه الإنسان ما يملأ حاجاته الروحية وينظم حياته الاجتماعية. بما يضمن الاستقرار والديمومة.

حـ ــ قصص القرآن «أسطورية الطابع» وثمة أمثلة كثيرة منها.

الآيات من ٤٢ حتى ٤٨ من آل عمران، والآية ١٧ ــ من مريم

وطبعاً: هو يعني بالأسطورة ــ القصة الخيالية التي ليس عليها دليل واقعي وقد تكرر هذا المعنى على لسان المشركين حينما وصفوا مضامين القرآن بالأساطير.

ــ ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (**المطففين**: ٨٣/١٣).

ــ ﴿.. إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.. ﴾ (**المؤمنون**: ٢٣/٨٣).

http://kotob.has.it

وفي غيرهما:

«الأنعام ــ ٢٥/٦» و«الأنفال ــ ٣١/٨» و«النحل ــ ٢٤/١٦» و«الفرقان ــ ٥/٢٥» و«النمل ــ ٦٨/٢٧» و«الأحقاف ــ ١٧/٦» و«القلم ــ ١٥/٦٨».

وهو أي المؤلف إذ وصف الآيات من ٤٢ حتى ٤٨ من آل عمران والآية ١٧ من مريم. بالأسطورة فقد قصد أكثر مما قلنا. لقد قصد الكلمة بمعناها اللغوي وهو: «الأساطير = الأباطيل = الأحاديث التي لا أصل لها».

(لسان العرب: فعل سطر)

والآن: فلنعد مع القارئ والمؤلف، لنرى: إن كان ما ورد فيها «الأساطير ــ الأباطيل».

ــ ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ، يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ، ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ قَلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ، إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٣/٤٢ حتى ٤٨).

ــ ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً، قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً، قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَماً زَكِيّاً﴾ (مريم: ١٩/١٧ ــ ١٨ ــ ١٩).

تلك هي الآيات التي وصفها المؤلف بالأساطير. نقول في وصفه:

أ ــ إن المسيح وأمه مريم، ليسا أسطورتين بل هما من الوقائع التي لا يزال يؤمن بوجودهما جميع المسيحيين والمسلمين.

ب ــ إن ولادة المسيح بدون أب أرضي، مثلما وردت في القرآن وردت في الإنجيل (لوقا ــ ١/٢٦ ــ ٣٢). حيث سردت آيات الإنجيل السبعة ــ القصة التي وردت في القرآن بآل عمران.

ج ــ في القرآن، أحد الملائكة وقد أُفرغ فيه من روح الله تأنسن وتحدث إلى مريم وبشرها، بالإصطفاء والطهارة وولادة المسيح كذلك في آيات الإنجيل تأنسن الملاك جبرائيل وبشرها بالمسيح ومثلما قال الإنجيل: إنها كانت عذراء مخطوبة.

http://kotob.has.it

قال القرآن: ــ ﴿ولم يمسسني بشر ولم أكن بغيًا﴾

وإذ يقول القرآن: إن القصة، التي أوحيت إلى النبي (ﷺ) «هي من أنباء الغيب». فلأن الإنجيل لم يكن مترجماً إلى العربية. والمؤلف نفسه يقول: إن محمداً (ﷺ) لم يكن يعرف القراءة والكتابة بأية لغة أجنبية. ولا تستطيع تصور مخرج أو مبرر للمؤلف وهو يواجه مسيحيي الكون بأن قصة ولادة عيسى وعذرية مريم هي من الأساطير الباطلة.

ء ــ **ولكي تتبدد الشكوك.** ويتبين تجاوز المؤلف وفقدان الحياد العلمي لديه. نستعيد من الإنجيل نصين، ومن القرآن نصًّا واحداً لنرى التشابه الكبير.

ــ **ففي الإنجيل:**

أ ــ ظهر الملاك لزكريا واقفاً عن يمين مذبح البخور فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا. لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمراً ومُسِكراً لا يشرب ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس.

فقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأنني شيخ وامرأتي متقدمة في السن. فقال الملاك: أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك. وها أنت تكون صامتا ولا تقدر اليوم الذي يكون فيه هذا.

(لوقا ــ ١/١١ ــ ٢٠)

ب ــ وفي الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داوود اسمه يوسف و العذراء مريم.

فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المنعم عليها الرب معك، مباركة أنت في النساء فلما رأته اضطربت من كلامه وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية فقال لها الملاك لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع. (لوقا ــ ١/٢٦ ــ حتى ٣١).

http://kotob.has.it

د ــ وفي القرآن:

ــ ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، فَنَادَتْهُ الْمَلَآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ، قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ (آل عمران: ٣/٣٨ ــ ٤١).

تلك الآيات التي تشابهت في الإنجيل والقرآن:

ــ تأنسن الملاك لزكريا ومريم.

ــ الملاك هو جبرائيل.

ــ الآية لزكريا ومريم تجاه الناس هي الصيام عن الكلام فلا يتكلمان طيلة مدة الصيام إلا رمزاً، بالإشارات.

ــ اليصابات عاقر. ومريم عذراء.

ومع ذلك فقد ولدت أليصابات يحيى، وولدت مريم عيسى.

وقائع: كيف يقول نولدكه: إنها أباطيل. في القرآن وينسى أنها موجودة في الإنجيل.؟

فهلا تساءل مع سواه: كيف سيكون موقف المسيحيين في العالم لو نصحهم بتكذيب ما جاء في لوقا لأنه نوع من الأباطيل ــ كما قال؟

ط ــ ويقول في ص ٩ ــ :

إن الآية من «الأنبياء ــ ٢١/١١٥» منقولة حرفياً عن الآية «المزمور ــ ٢٩/٣٧».

لذلك كيلا نستبق القارئ بالجواب: نضع بين يديه الآيتين لكي يحكم على قول المؤلف

ــ ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء: ٢١/١٠٥).

ــ «لأن الرب يحب الحق ولا يتخلى عن أتقيائه، إلى الأبد يحفظون أما نسل الأشرار فينقطع» (مزمور: ٣٧/٢٩).

أي نقل حرفي أو غير حرفي هنا؟ والآية لا تلتقي مع المزمور لفظاً ولا معنى.

http://kotob.has.it

حتى لو قال قائل: إن المؤلف قصد التماثل الحرفي بين الآية القرآنيه وبين الآية «مزمور ــ ٣٠/٣٧» التي قالت: «الصديقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد»

فهذا النص أيضاً يختلف عن الآية في الأمور التالية:

١ ــ آية الزبور تقرر.

٢ ــ آية القرآن تروي عن الزبور.

ثم أين وجه السطو؟ وقد جاء هذا الحكم القرآني في أكثر من مكان:

ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (الأنبياء: ٢١/١٠١).

ــ ﴿.. إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الأعراف: ٧/١٢٨).

ــ ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ (طه: ٢١/١٣٢).

ــ ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا..﴾ (الأعراف: ٧/١٣٧).

ي ــ في هذه الفقرة يتحدث عن أمية النبي تحت العناوين التالية:

ــ الأمية التي تبنّى معناها من الفكر اليهودي.

ــ منه ينطلق إلى نفي الأمية عن النبي (ﷺ)، كما يعتمد على مبررات افتراضية.

ــ ويتحدث عن كتابة القرآن. ونظراً لما لهذه الأقوال من أهمية. نفرد مناقشتها، بالعناوين التالية:

ــ **الأمية:** أطلقتها اليهود على الأمم التي لم ينزل في لغتها كتاب، فالأمة بذلك تكون أمية. (الأمم ــ غوييم).

ــ أما في اللغة العربية، أي اللغة التي نزل بها القرآن ووردت فيه بالحرف العربي، فهي تعني عدم المعرفة بالقراءة والكتابة، وكان يشار إلى الاثنين (القراءة والكتابة) بالكتاب.

ــ قال الزجاج: الأمي هو الذي على خِلقة الأمة لم يتعلم الكتاب أي على جبلته.

وفي التنزيل:

ــ ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ (البقرة: ٢/٧٨).

ــ وقال أبو اسحق: معنى الأمي هو المنسوب إلى ما عليه جَلَبَتْهُ أمه أي لا يكتب فهو في أنه لا يكتب أمي: لأن الكتابة مكتسبة فكأنه نسب إلى ما ولد عليه.

http://kotob.has.it

ـ وكان عرب الطائف أخذوا الكتابة من أهل الحيرة وأهل الحيرة أخذوها من الأنبار.

ـ **أمية محمد** (ﷺ): من الثابت تاريخياً أن الدعوة الإسلامية كانت محراثاً قلب البنية الاجتماعية في «العقيدة» و«الفكر» و«أساليب الحياة» و«العلاقات الاجتماعية».

لذلك: عورض معارضةً شديدة من بيئته بادئ الأمر. وكان أشد المعارضين وأكثرهم قسوة: الملأ من قومه، أي الوجهاء النافذون.

ولذلك لم يستجب لدعوة النبي (ﷺ) غير الفقراء والعبيد المستضعفين. وكان الملأ يعيرونه بهذه الشريحة الاجتماعية المتخلفة ويطلقون عليهم اسم «الأراذل».

والرذيل: هو الدُّون من الناس، الخسيس، الرديء من كل شيء، وقد جاء خطاب الملأ لنوح بشأنهم منذرِّعين في استنكافهم عن اتباعه بهذه الشريحة الاجتماعية الخسيسة، ترفعاً عنها.

ـ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء: ٢٦/١١١).

ـ ﴿.. وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ..﴾ (هود: ١١/٢٧).

ـ ومن المعروف «تاريخياً»، أن الوحي لم ينزل على محمد (ﷺ)، إلا بعد أن بلغ الأربعين، وأنه كان يعيش طوال تلك المدة في «مكة» وهي آنذاك قرية.. أي محدودة بسكانها وبيوتها، بحيث لا تخفى أمور سكانها عن بعضهم. خاصة القراءة والكتابة في زمن سيطرت الأمية ـ أي عدم الإلمام بالقراءة والكتابة ـ على أبنائه. فكان النادرون جداً من يعرفون قراءة الكتب أو كتابة الحرف.

والمعارضون من الملأ، أدركوا أن دعوة الإسلام تهدف إلى بناء مجتمع جديد على جثة المجتمع القديم، فكرياً وعبادياً واجتماعياً لذلك ناصبوها عداءً شديداً، ولم يوفروا بذاءة كلامية أو محاولات لحذف «الداعية محمد (ﷺ)» من الوجود.

في مثل هذا الجو: لو كان محمد (ﷺ) يحسن القراءة والكتابة ـ كما يزعم المؤلف ـ لما سكت عنه أولئك المعارضون بما يمتلكون من وجاهة وهو يتلو الآية ٤٨ ـ من سورة العنكبوت التي أعلنت لهم ولغيرهم أن النبي محمداً (ﷺ) لا يحسن القراءة والكتابة.

http://kotob.has.it

وذلك رداً ودحضاً لمن قالوا: إن ما يتلوه من آيات هو من الكتب المنزلة في السابق، التي قرأها محمد (ﷺ) واستوعب ما فيها استيعاباً كاملاً.

- ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٩/٤٨).
- ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ...﴾ (الأعراف: ٧/١٥٧).
- ﴿...فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ (الأعراف: ٧/١٥٧).
- ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ...﴾ (الجمعة: ٦٢/٢).

أولئك الملأ بما كانوا يملكون من مال ونفوذ في قريش وفي قبائل العرب كافة ضغطوا على بني هاشم حتى أجبروهم على ترك مكة حيث اضطروا من الحصار والجوع أن يأكلوا أوراق الشجر.

أولئك الذين اتهموه بالسحر، لو كان يحسن الكتابة والقراءة لملأوا الدنيا العربية ضجيجاً، بالكذب المفضوح ــ وهو يتلو آية العنكبوت وآيتي الأعراف وآية الجمعة، وغيرها مما تضمنت واقعاً لا جدال فيه.

- وبعد فما ندري إلى أي مدى يريد الوصول إليه من يصر على أن النبي كان يحسن القراءة والكتابة.

فهل بين من يحسنونها، منذ أن ظهر القرآن من استطاع أو يستطيع حتى الآن أن يأتي المجتمع الإنساني، بقرآن أو كتاب مماثل له؟

فالقرآن:

- لم يكن مجموعة من نصائح أخلاقية فقط.
- بل كان إلى جانب هذا دستوراً إنسانياً شاملاً جميع الظروف الإنسانية من «عبادة» و«تشريع» و«ميراث» و«أحوال شخصية» و«علاقات عامة».

وأقسم لو توافرت لدي قناعة «نولدكه» بأن محمداً (ﷺ) هو مؤلف القرآن وواضعه، لما نقص احترامه وتقديسه عندي مقدار ذرة، لأن إذ ذاك يصنِّفُهُ في قمة الاستثنائية الإنسانية، إن جمهورية أفلاطون، لا تزال تتمتع بالاحترام مع جميع ما سقط فوقها من الانتقادات ولكن أفلاطون، كشخص يكاد أن يختفي من ذاكرة الناس. أما القرآن فهو الكتاب الذي مازال يحافظ على كل حرف منه مليار ونصف مليار من البشر. ومحمد (ﷺ) مازال يذكر اسمه بعد اسم الله، في الأذان اليومي والصلوات اليومية.

http://kotob.has.it

ثم: لو قارنا بأسلوب علماني حيادي بين شخصية محمد (ﷺ) وشخصيات الأنبياء السابقين وتتبعنا مراحل كينونتهم من الأرحام حتى القبور لما وجدنا من الفروق غير المعجزات التي زود الله كلاً منهم وفقاً لظروف الزمان والمكان.

- جميعهم قبل أن يبصروا نور الدنيا، مكثوا في الأرحام تسعة أشهر.
- جميعهم خضعوا «لقانون الطفولة».
- جميعهم عاشوا بين البشر مثل البشر «غذاءً» و«كساء» و«نوماً» و«يقظة» و«راحة» و«وتعباً» و«سفراً» و«عملاً».
- جميعهم قضوا أعمارهم في تهذيب البشر وتجاوز القديم المترهّل من العادات والتقاليد، والتوجه بالناس إلى عبادة الخالق ونبذ الآلهة، التي صنعها الإنسان من الحجر والشجر والحيوان.
- جميعهم انتصرت رسالاتهم.

لأن الله لم يخذل أي واحد من رسله.

- ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (المجادلة: ٥٨/٢١).
- ﴿إِنْ يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ٣/١٦٠).
- جميعهم جمعت رسالاتهم في كتب اتخذها الأتباع من بعدهم دستور حياة بعد هذا الاستقصاء والمقارنة:

نود: لو كان «نولدكه» على قيد الحياة أن نجد لديه الأجوبة عن الأسئلة الآتية:

- هل يجد في تاريخ حياة الأنبياء ما يميزهم عن محمد (ﷺ)؟
- هل يجد في الكتب المنزلة السابقة أكثر شمولاً وعمقاً من القرآن؟ وهل استطاع أي من الكتب أن يضاهيه في توافر الحلول التي قدمها لكل ما يعترض حياة الإنسان من ظروف عبادية أو تشريعية أو أخلاقية أو علمية؟

نحن هنا: لا نفاضل. ولا نميز. لأننا مؤمنون بأن جميع الكتب موحاة من الله، وقد وجّهت إلى الناس بواسطة رسلٍ منهم وبلغاتهم، مراعية ظروف التطور الذي حققه الإنسان في مسيرته الزمانية. بهذا الإيمان، نستطيع أن نقول:

http://kotob.has.it

ـ لو أرسل الله موسى في زمن محمد (ﷺ) لزوَّده بالقرآن.
ـ ولو أرسل محمداً (ﷺ) في زمن موسى لزوَّده بالتوراة.

وذلك لأن الله أدرى بمعرفة مرحلة الوحي التي يستطيع بها الإنسان أن يدرك أبعاد كلمة الله. ولقد اختارهم الله من البشر، وأرسلهم بلغات البشر لكي يستطيعوا التفاهم والإفهام. تلك البشرية ـ أو الأنسنة كانت تشمل حتى الملائكة الذين كانوا يُكلفون بمهمة بشرية مثل:

ـ الملاك الذي خاطب موسى من العليقة.
ـ والملاك الذي ظهر لزكريا بجانب المذبح.
ـ والملاك الذي ظهر للعذراء وبشرها بالحبل وولادة المسيح.
ـ وفي القرآن وردت أسباب الأنسنة .
ـ ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللّهُ بَشَراً رَّسُولاً، قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ (الإسراء: ١٧/٩٤ ـ ٩٥).
ـ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ (الأنعام: ٦/٩).
ـ ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ . . . ﴾ (يونس: ١٠/٢).

وما دام جميع الناس، بمن فيهم المؤلف، ومن روى عنهم. لم يشاهد أي منهم عملية وحي، لا قبل النبي محمد (ﷺ) ولا بعده، وذلك لأن الوحي كلام بخفاء فالنبي (ﷺ) مثل غيره من الأنبياء، كان يتحدث بأحاديث فوق أحاديث الناس، مبنى ومعنى، ثم مات مثل البشر، ولكنه ترك بينهم من القواعد «العبادية» و«التشريعية» و«الأخلاقية» ما يستطيع أن يضبط حركة المجتمع قروناً من الزمن.

فمادام أن ذلك قد حصل بين الناس، وعلى مرأى ومسمع منهم، ومادامت رسالة ومنهاج كل منهم قد انتصرت على التخلف السائد، ونقلت الناس من ظلام الجهل. فليس للمؤلف، ولا لسواه، أن يُسقط هؤلاء الأفذاذ عن مواقع الاستثنائية وأن ينشر رسالاتهم على منضدة المحاسبة يعمل فيها تهشيماً وتمزيقاً.

ك ـ وفي إصرار المؤلف على عدم أمية محمد (ﷺ) ومعرفته القراءة والكتابة وحفظه الشعر، والخطب قال:

ـ كان يحتاج الكتابة كتاجر لتسجيل الأسماء والبضائع والأسعار والأسماء.
ـ كان قارئاً متعمقاً بالكتب اليهودية والمسيحية.

http://kotob.has.it

ـ كان يحفظ خُطب زيد بن عمرو بن نفيل وأشعار أمية بن أبي الصلت.

ـ كان يعتقد بالخرافات السائدة «الجن». «الكعبة». «الحج».«سيل العرم». التي كانت سائدة فعدَّلها. ففي تلك التأكيدات نقول:

ـ **أما أمية محمد (ﷺ)**: فقد تحدثنا عن «الأمية» سابقاً.

ولكن افتراض المعرفة بالقراءة والكتابة في شخص ليس دليلاً على إمكانيته في وضع كتاب مثل القرآن.

فالقرآن ـ بما احتواه من تجديد معجز للعبادات والعادات والأخلاق يفوق طاقة أي كاتب وقارئ.

ومادام أن المؤلف، متأكد من عدم معرفة محمد (ﷺ) بلغات الكتب السابقة ومتأكد أيضاً من أن ترجمة تلك الكتب إلى العربية لم تكن قد ظهرت في زمن النبي (ﷺ).. كما جزم في الصفحة ١٥ ـ بأن محمداً (ﷺ) لم يقرأ بتاتاً الكتاب المقدس أو آثاراً مهمةً أخرى[١]

فقد كان عليه الايجزم بأن مئونته الفكرية كانت من اليهودية والمسيحية ولنفرض جدلاً، أنَّ النبي (ﷺ) كان يعرف القراءة والكتابة العربيتين.

فهل يستطيع المؤلف أو سواه أن يدل على كتاب أجنبي كان مترجماً إلى العربية آنذاك؟ فالترجمة إلى العربية لم تعرفها البلاد الإسلامية قبل المأمون الذي تولَّى الخلافة سنة ١٩٨ هـ أي بعد النبي (ﷺ) بحوالي قرنين من الزمن.

طبيعة التجارة.

إن قارئ نولدكه فقط، يظن أن محمداً (ﷺ) قطَّع الآفاق في العمل التجاري وأنه مارس التجارة سنوات عديدة قبل الدعوة ، وأنه كان يتعاطى تجارة الأنواع المتعددة وكان يبيع نسيئةً أو نقداً. وتلك افتراضات ليس عليها أي دليل.

ـ فقد ذهب مرة واحدة مع عمه وكان حينذاك غلاماً. وذهب مرة ثانية في تجارة لخديجة حينما كان في أواسط العقد الثاني، وكان يرافقه ميسرة مولى خديجة. وكانت تجارته صنفاً واحداً. فكان البيع في تلك الأيام هو تبادل السلع. ولم يكن ثمة حاجة لتدوين أسماء الزبائن ومقادير الدفعات وأوقاتها.

---

[١] قال في ص ـ ١٥: إن محمداً (ﷺ) لم يقرأ بتاتاً الكتاب المقدس أو آثاراً أخرى مهمة. (فشبرنغر)، يريد أن يجعله عالماً بالكتب.

http://kotob.has.it

أما حفظ الخطب والأشعار:

حتى لو كان هذا القول صحيحاً فهو لا يستطيع أن ينجب نبياً ولا أن يؤلف قرآناً لقد توفي زيد قبل الهجرة بـ ١٧ عاماً أي سنة ٦٠٦ سنة.

وأمية توفي في السنة السابعة للهجرة. نعم: لقد قابل النبي (ﷺ) وقال بعد أن سمع شيئاً من القرآن: «أشهد أن محمداً (ﷺ) على حق. غير أنه امتنع عن الإسلام لأن اثنين من أبناء خاله قتلا في معركة بدر» وقال النبي عنه: آمن لسانه وكفر قلبه (الميسرة ـ ص ٤٠٤) ولكن:

ـ أن كان زيد توفي قبل الهجرة بسبع سنوات فأين الخطب التي تركها؟ ولِمَ لمْ يحفظها غير محمد (ﷺ)؟

ـ وأين آثارها أو آثار أشعار أمية في القرآن؟

ولو كان الأمر كذلك فلماذا لم يفضح أعداؤه هذا الأمر؟ وقد كان بينهم من يقول الشعر ويمارسه، ويخطب في الناس ويعرف فصحاء أهل زمانه؟.

أما الخرافات: التي قال المؤلف عنها إنها كانت سائدة وأن محمد (ﷺ) آمن بها جميعاً. فإننا نستعرضها بالفقرات الآتية.

الجن مشتقة من فعل (جنَّ ـ جنن) أي استتر. ومن الاشتقاقات «الجنين» لأنه يستتر في الرحم. كذلك «المجنون» لاختفاء عقله.

والجن مخلوقات يرون الناس ولا يراهم الناس. وهم يقطنون النفس ويوجهونها إلى الأعمال الشريرة. وقد ورد ذكرهم (٢٢) مرة في القرآن بلفظ «الجن» كما ورد في القرآن لفظ «الجان» (٧) مرات وورد لفظ «الجنة» (٥) مرات.

والجن هي الأرواح الشريرة:

ـ وردت في فكر يهود ما بعد السبي، أنها نجسة. وتشترك مع إبليس وأعوانه وهي تتميز «بالفجور» و«تعذب البشر» و«تسعى لدفعهم على طرق الشر».

ـ مع أن المسيح، طردها من الممسوسين وقهرها:

(متى ـ ١١/٤). (يوحنا ـ ٣١/١٢). (مرقس ـ الاصحاحات ـ ١ ـ ٥ ـ ٧ ـ ٩). (متى ـ الاصحاحات ـ ١٢ ـ ١٧). (لوقا ـ الاصحاح ـ ٨).

ـ ولكن المسيح لم يُفنِها. بل لا تزال باقية تفعل فعلها في النفوس.

http://kotob.has.it

كانوا يقولون للمسيح:

أنت بعلزبول ــ أي سيد الشياطين لذلك بقوة هذه السيادة تستطيع أن تطردها فيقول: كلا بل بقوة الله أطرد الشياطين.

«فالجن» الذين هم جنود الشياطين، كان رمزاً شائعاً بين الناس يطلق على جميع ما يطرأ من تغييرات جوهرية على سلوك الإنسان ونوازعه.

الحج:

لغةً، هو القصد: ولكنه بالمفهوم الشرعي في الأديان الثلاثة: هو: «القصد إلى أماكن مخصصة، معظمة» وهي:

ــ البيت الحرام ــ الكعبة، في مكة بالنسبة إلى المسلمين.

ــ كنيسة المهد ــ والقيامة ــ في القدس بالنسبة إلى المسيحيين.

ــ الكنيس ــ عند اليهود وهو المكان الذي كان اليهود يقيمون فيه صلاتهم بمدينة القدس.

ومع أن تيتس الروماني هدمه في سنة ٧٠م، كما إن «الإمبراطور ــ إيليا هادريان» فلح القدس في سنة ١٣٠م وأقام معبد لجوبيتر في مكان الهيكل. فإن اليهود يعتقدون ــ مع ثبوت هذه الوقائع في التاريخ ــ أن الحائط الغربي للمسجد الأقصى هو «حائط المبكى» أي هو «ما تبقى من الهيكل» لذلك ما فتئوا منذ قيام كيانهم في فلسطين يحفرون تحت المسجد الأقصى، بحثاً عن آثار الهيكل، حتى تحولت الأرض تحت المسجد إلى غربال. ومع هذا لم يجدوا أي آثر. نقول أخذاً من التاريخ:

ــ إن تيتس هاجم اليهود بكتائبه في سنة ٧٠ م وهدم الهيكل.

ــ إن الإمبراطور «إيليا هادريان» فلح أرضه في سنة ١٣٠م وأقام مكانه معبد جوبيتر.

ــ في سنة ٣٢٥ م تحول معبد جوبيتر إلى كنيسة بأمر من قسطنطين الكبير.

ــ الفتح العربي للقدس هو في سنة ٦٣٨ م أي بعد أكثر من خمسماية سنة على بناء معبد جوبيتر. وأكثر من مئة وسبعين سنة على تحويله إلى كنيسة.

ــ المسجد الأقصى بني بالحجر، أقيمت قواعده في عهد الوليد بن عبد الملك بعام ٩٠ هـ أي ٧٠٩م حيث استمر العمل فيه حتى ٩٦ هـ وكان من قبل مبينا بالخشب، من أيام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه).

http://kotob.has.it

ـ في أيام الصليبيين، تحول بسنة ٤٩٣هـ تساوي ١٠٩٩ ميلادية عما كان عليه:

ـ فصار جانب منه كنيسة.

ـ وصار جانب منه مسكناً للفرسان.

ـ وأقاموا بجانبه بناءً استخدموه مستودعاً للأسلحة.

ـ وحولوا قبة الصخرة إلى كنيسة.

ـ بعد حطين: عاد إلى المسلمين.

والقدس، التي كانت تحمل اسم «إيليا» وهو الجزء الأول من اسم الإمبراطور «إيليا هادريان» أخذت اسم القدس الذي أعطي لها من قبل صلاح الدين[1].

والحج: عند المسلمين تمتَّع بمزايا ليست موجودة عند غيرهم. فهو:

ـ ركن من أركان الإسلام.

ـ وهو فرض عين على المسلم العاقل البالغ المستطيع.

ـ وقد فرض في السنة التاسعة للهجرة. أما فوائده. فمعنوية ومادية.

ـ **ففي المعنوية:** إن الله يغفر به الخطايا. وفي الحديث «من حج ولم يرفث[1] ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» (البخاري ومسلم).

ـ **وفي المادية:** حيث يجتمع المسلمون من كل الأصقاع تحت سماء الأخوة. موحدي اللباس، والشعائر. فيكون الحج مناسبة زمانية ومكانية للاجتماع والتعارف والوحدة.

وكلما تقدم الزمن، ازداد عدد الحجاج، حتى صار في السنوات الأخيرة يقارب الثلاثة ملايين. اختلفت لغاتهم وأجناسهم وعاداتهم، ولباسهم. ووحَّدتهم شعيرة الحج.

الكعبة: هي البيت المربع جمعه «كعاب». والكعبة هي البيت الحرام سميت بهذا الاسم لتكعيبها أي لتربيعها. ويقال: سميت كذلك لارتفاعها وتربعها.

---

[1] في العهدة العمرية التي كتبها عمر بن الخطاب لأهل القدس حين استسلموا. ورد اسم القدس «إيليا» وظلت الوثيقة العمرية، تحمل هذا الاسم.

[1] الرفث، هو الجماع.

وفي القرآن: ـ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ...﴾ (البقرة: ٢/١٨٧).

ـ ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ..﴾ (البقرة: ٢/١٨٧).

http://kotob.has.it

وقد كان لربيعة بيت يطوفون به يسمونه «الكعبات». وذكره «الأسود بن يعفر» في شعره حين قال: **والبيتِ ذي الكعبات من سنداد..**

إلى الكعبة كان ومازال يحج المسلمون. وقد جاء في القرآن أن الذي بناه هو «إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل». وذلك في الآية ١٢٥ من سورة البقرة.

ـ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (البقرة: ٢/١٢٥).

كما يعتقد المسلمون أن دعاء إبراهيم هو الذي أنعم على مكة وجعلها ـ وهي المقذوفة في الرمال مهوى أفئدة الناس.

ـ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (إبراهيم: ١٤/٣٥ ـ ٣٧).

سيل العرم: «العَرِم» هو جمع مفرده «عَرِمة» ويعني السيل الذي لا يطاق. وقد كان للسبأيين، سدّ، جمعوا وراءه مياه الوديان واستفادوا من مياهه في الزراعات والأشجار المتنوعة، حتى صارت سبأ بفضله تعرف باسم «اليمن السعيد».

ولأسباب لا مجال إلى ذكرها هنا، تهدَّم السد، فتحولت المياه المحبوسة إلى سيل جارف، خرَّب المزارع والمساكن القائمة أمامه، فتشرد الأهالي من جراء ذلك. والسد، بإيجابياته، وسلبياته، ظل محفوراً في ذاكرة الناس وهو في حالتيه، من حوادث التاريخ التي لا تنسى. لذلك ورد ذكره في الآيتين ١٥ ـ ١٦ من سورة سبأ في القرآن.

ـ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [1] (سبأ: ٣٤/١٥ ـ ١٦).

تلك العناوين قال المؤلف: هي خرافات آمن بها محمد (ﷺ). وهناك قال: «القصص التي وردت في القرآن أسطورية». وهو: إنما يعني المعاني الذميمة، تخفيفاً لموازين القرآن من جهة وموازين محمد (ﷺ) من جهة ثانية.

---

[1] الأكل الحمط: الجني المر: قال ابن عباس الشجر الذي له شوك.
الأثل: الخشب: السدر: شجر البنق قال ابن زياد: السدر من العضاه وهو نوعان: «عُبري» و «ضال» فالعبري لا شوك له أما الضال فهو ذو شوك: قال ذو الرُّمَّة:

http://kotob.has.it

فالأساطير: قصد بها الأباطيل، وقد رددنا على ذلك. والخرافات: منسوبة إلى «خُرافة ــ من بني عذرة» الذي قالوا بأن الجن قد اختطفته، ثم عاد إلى قومه بدأ يحدّث بالأحاديث الكاذبة فصار يضرب المثل بمن يماثله: قال الشاعر: «حديث خرافة يا أم عمرو» فالخرافات: أجريت على كل ما يكذب من الأحاديث. وليت «نولدكه» عرف معنى كلمة «خرافات» لأنه لو عرفه لما وصف «الحج» و«سيل العرم» و«الكعبة» بالخرافات. مع وجودها التاريخي الباهر.

ل ــ يقول في ص ١٩: «إن محمداً (ﷺ) وَضع نفسه في مرتبة أسمى من جميع الأنبياء مستدلاً بالآية ٤٠ من سورة الأحزاب»

وفي هذا القول تجنٍّ وضَحَالة ثقافة قرآنية:

ــ ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ...﴾ (الأحزاب: ٣٣/٤٠).

وهي: أولاً لا تشير أبداً إلى التفاضُل بين الرسل.

وهي: ثانياً نزلت في زينب ابنه عمة رسول أي إبنه «أميمة بنت عبد المطلب». فهي عندما خطبها النبي لزيد بن حارثة، وهو مولى لمحمد من الأدعياء[1] رفضت. فنزلت الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٣٣/٣٦).

وحينما طلقتها زيد تزوَّجها النبي ليخرق عادتين:

أولاهما: وجوب نسب الأدعياء إلى آبائهم.

الثانية: تحليل ما كان مرفوضاً في الجاهلية وهو الزواج من مطلقة الدَّعي.

لذلك نزلت الآية ٤٠ ــ مؤكدة أن محمداً (ﷺ) ليس أباً لأحدٍ بل هو رسول الله. أما الأدعياء فقد جاء فيهم.

ــ ﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ، ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب: ٣٣/٤ ــ ٥).

---

[1] الأدعياء ــ الذين يُحصل تبنيّهم من الغير. وزيد كان المتبنَّى للنبي. حتى كان الناس ينادونه «زيد بن محمد»

http://kotob.has.it

وفوق ما تقدم فقد مال عن آيات ثلاث من سورة البقرة وآية من آل عمران وآية من النساء. وفيها جميعها صراحة على أن ليس لأحد من المخلوقين أن يفضل أحداً على أحد لأن التفضيل بيد الله إن آيات عدم التفريق بين الرسل هي: البقرة ــ ١٨٥/٢ ــ ١٣٦ وآل عمران ٨٤/٣ والنساء ١٥٠/٤.

وآية اختصاص التفصيل بالله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...﴾ (البقرة: ٢٥٣/٢).

فعدم ذكر تلك الآيات التي تدحض فكرة المؤلف. لا يمكن تعليله إلا بأحداثين:

ــ إما ضعف في الثقافة القرآنية. أو تحيُّز مذموم.

ثم إن «خاتم النبيين» الواردة في الآية من سورة الأحزاب. والتي قد تكون هي العبارة التي أشار إليها المؤلف وقرأ فيها تفضيل محمد (ﷺ) لنفسه على بقية الأنبياء ففيها نقول:

ــ ليس فيها تفضيل ولا تقديم.

ــ محمد (ﷺ) لم يضع هذه الآية ولا أية كلمة قرآنية من عنده.

ــ في قناعة النبي محمد (ﷺ) أن ما في القرآن من قواعد التشريع والعبادات والأخلاق والاجتماعات والأحوال الشخصية وأسس بناء المجتمعات قابلة جمعيها إلى الاستمرار مدة طويلة. غير أنه، مثلما قال المسيح: سوف يأتي «الباركليتوس» ليبقى إلى آخر الزمان. قال محمد (ﷺ): «سوف يأتي من يملؤها عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً».

* * *

http://kotob.has.it

ب ـ حول الوحي الذي تلقاه محمد (ﷺ)

من ص ـ (٣٠) ـ (٥٣)

تحت هذا العنوان. بدونٍ أي تقسيم، وضع المؤلف أكثر من ثلاثين صفحة دعمها بآيات من القرآن، باذلاً من الجهود ما بلغ به حدَّ الإجهاد لكي يثبت من خلالها أنَّ ما ادعاه النبي محمد (ﷺ) وحياً كان وهماً وحديث «خرافة» لذلك سوف نقف لنعالج كل فكرة تستحق الوقوف والمعالجة. وسوف نقيم مع المؤلف جدلاً حيادياً، بعيداً عن التحيز والضَّغينة.

١ ـ **قال في ص ـ ٢٠ ـ :** اعتبر محمد (ﷺ) أن الوحي كان يتلقاه تارةً «من الروح القدس» و«تارةً من جبرائيل» واعتمد لتأييد قوله الآتيتن ١٠٥ من سورة النحل و١٩٣ من سورة الشعراء. فالآية ــ ١٠٥ ــ من سورة النحل رقم ١٦ لا تحتوي على روح القدس بل على الكذب والافتراء:

ــ ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (النحل: ١٦/١٠٥).

ولعلَه أخطأ. فالآية ١٠٢ هي التي أشارت إلى الروح القدس بقولها:

ــ ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٦/١٠٢).

وهذه ليستَ الآيةَ القرآنية وحدها التي ذكرت روح القدس. بل هناك العديد من الآيات: (يوسف ٧٥/١٢) و(البقرة ٨٧/٢ ــ ٢٥٣) و(النساء ١٧١/٤) و(المائدة ١١١/٥) و(غافر ١٥/٤٠).

فروح القدس ليس من إعلانات محمد الذاتية. إذ قالت الإناجيل عنه أنه كان يقود يسوع في كل مسلكه. ويُعلن للفقراء كلمة الله. (متى ١١/٤). و(لوقا ١٤/٤ ــ ١٨) و(معجم اللاهوت الكتابي ــ ص ــ ٣٨٨ ــ ٣٨٩) ولوقا (٢٥/٢). و(١٦/٣). فقط أقدم نص بعض هذه الآيات.

ــ «وكان يوحنا المعمدان ينتظر روح القدس ويقول: أنا أعمدكم بالماء من أجل التوبة أما من يأتي بعدي هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحمل حذاءه هو سيعمد كم بالروح القدس ونار» (متى: ١١/٤).

هذه الكلمة «روح القدس». يعبَّر عنها:

ــ في العبرية بكلمة «رووَّح »

ــ وفي اللاتينية ــ SPIRITUS ــ

ــ وفي اليونانية ــ PNEUMA ــ

http://kotob.has.it

وذلك اقتباساً من الظواهر الطبيعية كالريح والتنفس.

وفي الآية ٣٠ من المزمور ١١٤: «ترسل روحك فتُخلق وتجدد الأرض»

ويقول «يوحنا»: «من المستحيل على البشر سواء أكانوا عاديين أم رسلاً أن يتحكموا في روح القدس أو يعرفوا من أين يأتي وإلى أين يذهب. المولود من الروح هو روح.

الريح تهبُّ حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتي ولا إلى أين تذهب. هكذا كل من ولد من روح». (يوحنا ــ ٣/٦ ــ ٧).

فالوحي الذي أوحى بالكتب السماوية. له فيها وعند أتباعها مكانة خاصة.

وإن كانت هناك أديان لا تؤمن بالوحي مثل: «البوذية» التي تؤمن بالإلهام البشري الذي صدر عن بوذا و«الهرمسية» التي وإن كانت تؤمن بالمرجع السماوي، فإنها تنسب جميع ذلك إلى هرمس، المؤسس الأسطوري.

فهذا ما يميز تلك العقائد عن «الوحي الإلهي».

ــ فالله: في الكتب السماوية والوحي الإلهي، هو الذي يوحي بقواعد السلوك ــ التي يجب أن يسلكها الإنسان، تجاه الخالق والمخلوقات.

ــ وروح القدس: هو في القرآن والإنجيل ــ الملاك جبرائيل وصف بالروح، لأنه يحيي بالبينات، مثلما تحيي الأرواح الأبدان.

ولأنه روحاني لا يرى.

ووصف بالقدس: لأن القدس هو الطهر والبركة وقيل: «القُدُس» هو الله.

أما لماذا أيَّد الله عيس بروح القدس:

ــ ﴿... وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ...﴾ (البقرة: ٢/٨٧).

فلأنه اختص من صغره إلى كبره بروح القدس يسير معه حيث سار ولماَّ همَّ اليهود بقتله لم يفارقه بل صعد معه.

أما الحديث عنه أنه جبرائيل. فقد ورد في إنجيل لوقا (١/١٩ و٣٦) حيث تأنسن وأعلن أنه جبرائيل فتحدث إلى زكريا وبشره بيوحنا وتحدث إلى مريم وبشرها بيسوع.

٢ ـ **قال المؤلف:** لا يقتصر المسلمون بكلمة الوحي، على القرآن بل إن أكثر أنواع الوحي التي يُعَدِّ دُونَها هي غير قرآنية، كما قال «السيوطي» و«الطبري» و«البيهقي».

http://kotob.has.it

هذا القول الجزاف يحتاج إلى التصحيح كما يلي: جميع أنواع الوحي، الذي توجه إلى الإنسان أم ذلك الذي توجه إلى غير الإنسان، ذكرت في القرآن. فأما ما توجه إلى الإنسان فهو الذي نزل على الأنبياء والرسل. وأما إلى غير الإنسان:

ـ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... ﴾ (النحل: ١٦/٦٨).

ـ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ﴾ (فصلت: ٤١/١٢).

ـ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾ (الزلزلة: ٩٩/٤ ـ ٥).

ولكن: يلاحظ أن الموحي دوماً هو الله، فالجميع مخلوقاته، يوحي ما يشاء لمن يشاء.

لقد أوحى إلى النحل أي ألهمها: أن تتخذ المنازل والمساكن والأوكار والبيوت في الجبال والشجر أو غير ذلك لتصنع العسل بطريقة لا يقدر عليها البشر. كما أوحى لها أن تتناول غذاءها من جميع ما تشاء من الثمرات. وأن تسلك الطرق التي جعلها «ذُلُلاً»[1].

فالله، يعلو على الأفكار، ويعلو على الكلام المباشر.

ـ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ (الشورى: ٤٢/٥١)[2].

فقد أوحى لداوود بالزبور. وكلم موسى من وراء حجاب، وأرسل جبرائيل إلى محمد (ﷺ). فالوحي في اللغة ـ كما مرمعنا: هو الإيماء والتنبيه بالشيء.

ومن وراء حجاب ـ هو حجب الكلام عن غير المخاطب أو يرسل رسولاً فيوحي ـ الرسول هو أحد الملائكة وهو هنا جبريل ـ روح القدس.

---

[1] ذُلُلاً ـ أي جاهزة للسلوك

[2] باستثناء موسى الذي كلمه بلا واسطة إبانةً له عن سواه.

ـ ﴿... وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً... ﴾ (النساء: ٤/١٦٤)

ـ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ... ﴾ (البقرة: ٢/٢٥٣)

ـ ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ... ﴾ (الاعراف: ٧/١٤٣)

موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجهٍ في جميع الآيات والعجائب التي أرسله الرب ليعملها في أرض مصر بفرعون وبجميع عبيده وكل أرضه وفي كل اليد الشديدة وكل المخاوف العظيمة التي صنعها موسى أمام أعين جميع، إسرائيل: تثنية ـ ٣٤/١٠ ـ ١١ ـ ١٢.

http://kotob.has.it

٣ ـ **قال في ص ٢١ ـ :** مراتب الوحي القرآنية. كما وردت في كتاب المواهب اللَّدنيَّة. هي:

١ ـ الحلم.	٥ ـ جبريل في صورته الحقيقية.
٢ ـ وحي جبريل.	٦ ـ الوحي من السماء.
٣ ـ جبريل في شخص وحية.	٧ ـ الله نفسه لكن من وراء حجاب.
٤ ـ في صلاصل.	٨ ـ الله كاشفاً عن نفسه دون حجاب.

وتابع في ص ٢٣: انبثقت الكيفية السادسة من رواية المعراج (سورة رقم ٧٠). الكيفية الخامسة من (النجم ٥٣) والتكوير (٨١).

* * *

إن تعدد كيفيات نزول الوحي تابع لله الموحي، لعلَّةٍ لا ندركها ولا يدركها سوانا. فالكيفيات الثمانية التي عددها كتاب «المواهب اللدنية» هي افتراض، لم يقدم عليها الأدلة القرآنية.

حتى إنها لم تحظ بقناعة المؤلف، بل ذكرها بتحفظ وتردُّد. فقط كما جاء في «المعارج» و«النجم» فيهما ما عليه دليل من القرآن أما «المعراج» وكان يجب أن يقول عنها «المعارج» مثلما وردت في القرآن، حيث عنونت «بالمعارج» ووردت في الآية الثالثة من السورة:

ـ ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ **(المعارج: ٣/٧٠).**

فالذي قال: عن سورة المعارج: «إنها نزلت دون وحي. نزلت من السماء مباشرة».

تناسى أن ليس فيها ولا في سواها آية من القرآن دون وحي لأن النبي الذي يوحي إليه بشر.

ـ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ...﴾

(الشورى: ٥١/٤٢).

أما كيفية الوحي الخامسة «جبريل نزل بصورته الحقيقية». التي استدل عليها بسورة النجم (٥٣) وسورة التكوير (٨١). فمن المؤسف: أن القناعات العاطفية المسبقة فرضت على المؤلف ألا يقرأ القرآن. وإن قرأه فبتسرع ودون إمعان.

http://kotob.has.it

ولقد كان من حق الحقيقة على المؤلف أن لا يغفل عن ظهور جبرائيل بحقيقته الإنسانية لزكريا بجانب الهيكل. ثم لمريم كما هو ثابت في العهد الجديد.

ولكنه استكبر أن يكون لمحمد (ﷺ) عند ربه مثل «زكريا» أو «مريم» ومع هذا: فإن الوحي: ليس جبرائيل. والقرآن. لم يقل ذلك أبداً. بل قال: إن الوحي هو كلام الله حمله جبرائيل، وألقاه في قلب النبي (ﷺ).

لذلك جاء وصفه «بأنه أمين» أي أمين على وحي الله. ورسالاته وهذا ما جعله يقول في سورة النجم:

ـ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٥٣/٤).

أي القرآن يوحى به من الله ويكلف جبرائيل بنقله إلى النبي (ﷺ).

أما أوصاف جبرائيل:

ـ بأنه شديد القوى.

ـ وأنه ذو مرة ـ أي مرور في الهواء ذهاباً وإياباً.

ـ وأنه دنا من الأفق الأعلى.

فإنها صفات جبرائيل. وليس لها بالوحي الذي هو كلام الله أية علاقة. فقط هي وصف الوحي الذي أبلغ إلى محمد (ﷺ)، أنه «غيب». وأن ما ينشره محمد (ﷺ) من الوحي، هو صدق، وأنه نزل على لسانه أي سمعه من جبرائيل بأمر الله، ولم يقله بنفسه. فجبرائيل هو رسول كريم على ربه، وقوله، هو وحي من الله الذي أرسله. فهو ـ أي جبرائيل.

ـ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ (التكوير: ٨١/٢٠).

إن جميع قرّاء السورتين ٥٣ و٨١ وجميع المفسرين، اتفقوا على أن النبي (ﷺ) رَأى جبرائيل مرتين، وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلّى فكان من النبي (ﷺ) قاب قوسين أو أدنى. كما كان يأتي النبي (ﷺ) بصورة الآدميين، أي «الأنسنة». كما كان يوصل صوته إلى النبي (ﷺ) دون أن يراه.

ذلك جميعه: «لا يدل إلا على أنه مرسل من الله، بوحيٍ يبلغه إلى النبي (ﷺ) لكي يقوم بنشره بين الناس». فكما أن محمداً (ﷺ) لم يقل شيئاً من نفسه. كذلك جبرائيل. ومثلما، كان جبرائيل رسولاً بالوحي إلى النبي (ﷺ). هكذا النبي (ﷺ) هو رسول بما أوحي إليه، لكي يبلغه إلى الناس.

http://kotob.has.it

٤ ـ في الصفحات ٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥:

يصف الحالات التي كانت تنتاب النبي عند نزول الوحي، بأنها «صرع» و«جنون». نعم ــ كما روى الكثيرون ــ كانت تمتلكه نوبة شديدة عند تلقي الوحي. غير أنه لم يخبر عن ماهيتها. ولكنها لا تلبث أن تزول ثم يبدو بعدها بكامل العافية، فيتلو سورة، أو آيات تلقّاها أثناء النوبة، تلك النوبات سماها المؤلف «صَرَعاً». ثم لم يلبث في الصفحة ٢٤ ــ أن سماها جنوناً. وهذا ــ من المؤلف ــ كلام عاطفي مرسل.. فالجنون علة مقيمة وهي غياب العقل، والتفكير. لذلك، لا تذهب ولا تجيء برغبة صاحبها ومشيئته، فما علمنا، وما نظن أن المؤلف علم، بأن رجلاً جنَّ عندما أراد واستعاد وعيه وعقله عندما أراد.

ثم ما علمنا، وما نظن أن المؤلف علم، بأن مجنوناً أنجبت حالات جنونه رسالة مثل القرآن، فيها هدى ورحمة لكل الناس، بل هذا الذي يسميه المؤلف «مجنوناً» حينما كان يصحو من الشدة كان أكثر الناس التزاماً بالفكر والعلم والأخلاق والتنظيم. نحن والمؤلف وجميع من أخذ عنهم، لم نكلَّف من قبل الخالق برسالة تربوية إلى الناس. فإن كان العقل أباح لنا أن ندرس هذه الحوادث والظواهر فقد قيدنا بالمنطق والحياد، خاصة إذا كنا نؤرخها.

فللتاريخ منطقه الخاص، وهو أن يعرض المؤرخ ما وقع من الأحداث بأمانة وحياد. وليس له أن يعتبر نفسه طرفاً فيها، فيمدح ما ينسجم مع رغباته ويذم ويهاجم ما لا يتلاءم معها.

وللمؤلف، من باب الحرية، وحرفيه التربية، ألا يؤمن بنبوة محمد بن عبد الله (ﷺ). ولكنه، كمؤرخ لفترة الرسالة وشخصية صاحبها ملزم في أن يتقيد بالأحداث وأن يسردها مثلما وقعت لا أن يتحول إلى ناقد بل منتقد. فالمؤرخ المسلم، وحتى المؤرخ اليهودي، حينما يستعرض الأحداث السابقة، قاصداً إيصالها إلى غيره. هو مؤاخذ إن أغفل بعضها أو انتقد ما لا ينسجم منها مع رغباته.

والمؤرخ اليهودي مثلاً وهو لا يؤمن بالمسيح إن أغفل من التاريخ المسيحي، معجزة الولادة دون أب بشري. ومعجزة إحياء الميت، وإبراء المرضى، بكلمةٍ أو لمسة، يؤاخذ ويعتبر مقصراً ورائداً غير أمين. ولا يعتبر عدم الإيمان بالمسيح عذراً لكتم المعلومات التاريخية.

http://kotob.has.it

إن جميع من اعتمد المؤلف على ما تركوه من تواريخ ومصنفات نافضاً يافته من المسؤولية، ملقياً بها على عواتقهم. ولم يكن أي واحد منهم في عصر الرسالة. لذلك كان ما تركوه افتراضاً، ليس عليه مؤيد[1].

فابن هشام:	توفي في سنة	١٣٢ هـ	
والواقدي:	توفي في سنة	٢٠٧ هـ	وقد ولد في سنة ١٣٠هـ
وابن سعد:	عاش بين سنة	١٦٨ و٢٣٠	
والبخاري:	عاش بين سنة	١٩٤ و٢٥٦	
والقسطلاني:	عاش بين سنة	٨٥١ و٩٢٣	
والنسائي:	عاش بين سنة	٢١٥ و٣٠٣	

هؤلاء الذين لم يشاهدوا النبي (ﷺ) ولم يعيشوا عصره. وضعوا مصقاتهم على السماع والعنعنة والافتراضات. فإن حَظَوْا ببعض العذر عن سردهم، دون تمحيص، بسبب البعد الزمني والتخلف. فليس للمؤلف ذلك. وهو من أبناء القرن العشرين الذي ملك العقلُ والمنطقُ فيه كل تصرُّف وإن جاز أن يعتمد على السابقين، فقد كان يجب ألا يغيب عنه البعد الزمني الفاصل بينه وبينهم، وهو الذي كان يجب أن يكون كفيلاً بانتهاج المنطق فيما ينتقي من أخبار وآثار.

ألم ير المؤلف أن القرآن والحكمة التي رافقت تصرفات محمد (ﷺ) لا يمكن، أن تصدر عن رجل مصروع؟ بل وأثناء نوبات الجنون؟ ألم يدرك المؤلف أن الجنون علة مقيمة لا تحل ولا ترحل متى يشاء المجنون؟ ألم ير أن هذا الذي اعتبره مجنوناً قدم إلى البشرية ما لم يقدمه عقلاء الإنسانية كافة؟

مئات التساؤلات، لا تجد غير جواب واحد، هو أن المؤلف استغلَّ مناسبة التاريخ، لينطلق منها إلى نثر أفكار لدودة شربها منذ الطفولة وإلا كيف تفسر قناعته بجنون رجل يقول عنه «مايكل هارت»: أنه أعظم رجل عرفته الإنسانية ويصفه في أول الأوائل المئة الذين مروا في تاريخ الإنسانية؟

---

[1] نتحدث في هذه الفقرة عن الصرع والجنون المنسوب إلى محمد (ﷺ).

http://kotob.has.it

إن ما لا يعقل لا يجوز تسويقه بين الناس. ولا يجوز الإصغاء إليه ولو رافقته الطبول.

لقد كان البخاري والواقدي[1] أكثر «علمانية» وإنصافاً من العالم «نولدكه» فهم ــ إذ ثبت أن رهْبَةَ الوحي كانت تغمر شخصية النبي (ﷺ) عند حضور الوحي، فتنتابُه شدة، قالوا إنها «البرحاء» هذان وغيرهما، سميًّا تلك الحالة التي كانت تنتاب النبي (ﷺ) وفقاً لما وردت أوصافها بالبرحاء إلى الشدة الموقتة، اشتقاقاً من «بَرِح» وكان العرب يصفون الحمى الشديدة بالبرحاء.

فكل شدة غير مستقرة، تذهب مثلما تأتي، لم يجر وصفها بالصرع أو بالجنون أبداً.

ومع أن تلك التي كان النبي (ﷺ) يعاني منها، كانت بُرَحَاء، إلا أنها اختلفت عن بُرَحاء الناس. بأنها كانت تنقشع عن النبي (ﷺ) بسور قرآنية، هي في المباني والمعاني معاجز.

البرحاء أو الغيبوبة التي كان يصاب بها النبي (ﷺ) حينما ينزل عليه الوحي. أي: أنها كانت تغمر شخصه بقوة الأسباب الخارجة عن إرادته. إذ ليس في مقدور أي شخص أن يسكب الغيبوبة في كيانه مثلما يسكب كوباً من الماء. ولكننا أمام حالة ثابتة تواتر الصدق في روايتها وقد أجمعت جميعها على أن النبي (ﷺ) كلما صحا من غيبوبة تلا آيات أو سورة جديدة. مما يضعنا أمام مجهول لا نستطيع حله إلا إذا وافقنا النبي (ﷺ) على قوله، بأنه كان مغموراً بعظمة الوحي الأمين ذي القوي المكين. لذلك ومادام أن تلك الغيبوبة كانت تنقشع عن معجزات المباني والمعاني ومادام أن التاريخ يقدم لنا شخصية النبي (ﷺ) متمتِّعةً بمزايا استثنائية منها الصدق الذي لم تتسرب فيه كذبة. والأمانة التي عاشت العمر بدون خيانة.

نقول: مادامت ثوابت الأمور هكذا، فمن المنطق السليم، ألاَ تعزوها إلى سواها من الافتراضات اللدودة. والمؤلف الذي قرأ ذلك وفهمه، كان تخصيص الصفحتين ٢٦ و٢٧ لسرد أقوال «فايل» و«شبرنغر» التي منها:

ــ أن شخصاً كان يسخر من محمد (ﷺ) فلقنه بعض الآيات.

ــ وأنَّ دحية الكلبي كان في بعض الأحيان تأنْسُنَ جبريل، مع أن هذا الرجل ظل وثنيا إلى ما بعد الهجرة بزمن طويل.

---

[1] توفي البخاري في سنة ٢٥٦هـ، والواقدي في سنة ٧٤٧ هـ.

http://kotob.has.it

إن إيراد تلك الأقوال عن لسان فايل وشبرنغر. يفيد: أن المؤلف غير مقتنع بها. ولكنه يُحِب تسويقها ونشرها في كتابه.

وفي اليقين لو فكَّر المؤلف بحياد ونزاهة. لما وضع في كتابه ما قاله هذان «فايل» و«شبرنغر» فالقرآن امتد على مدى زمني يزيد على عشرين عاماً. واحتوى على أكثر من ستة آلاف وستماية آية.

ــ فأين كان ذلك المعلم الذي لقن النبي (ﷺ) بضع آيات؟

ــ وكيف تليت بقية الآيات دون تلقينه؟

ــ وما هي الآيات التي لقنها إلى النبي (ﷺ)؟

ودحية بن خليفة بن فروة بن فضالة الكلبي الذي توفي عام ٤٥ هـ ــ وإن لم يكن ثمَّة أي شك في صدق إيمانه، فقد شهد بدراً، والخندق وأحُد، كما حضر فيما بعد عدداً من المواقع مثل معركة اليرموك. ويروى انه حمل رسالة النبي (ﷺ) إلى القيصر. فليس من الحصافة أن نتهكم على رواية أنسنة الوحي بشخصه إذ مادام أننا لا نملك دليلاً على الإيجاب أو السلب في تأنسن الوحي عند محراب زكريا وحديثه معه كذلك تأنسنه وحديثه مع مريم.

فجدير بنا ــ تجاه ما نجم عن تلك الأنسنة ــ أن نطوي افتراضاتنا. وأن نبعد تهكمنا على تلك الظواهر التي مازالت متغلغلة في عقول مليارات من البشر منذ أكثر من ألفي عام.

ــ قال المؤلف في ص ٢٧:

إن «شبرنغر» بذل كثيراً من الجهد لإثبات قيام مؤامرة بين محمد والراهب بُحيرا. لتكوين الإسلام. وأن بُحيرا هو معلِّم النبي (ﷺ) ومؤلف الصحف، طبعاً: يقصد المؤلف بالصحف، سور القرآن .

أما نحن، وإن كنا نفتقد حسن النية عند المؤلف ــ نقول: إن ما نعرفه عن «بُحيرا» وما نظنُّ أن المؤلف أو شبرنغر يعرفان عنه أكثر من هذا، وهو أنه راهب مسيحي نسطوري من أعلم أهل زمانه في الكتب المقدسة عاش في القرن السادس الميلادي ومات قبل البعثة النبوية وقد شاهد محمد (ﷺ) مع عمه «أبي طالب» وكان عمر محمداً (ﷺ) اثني عشر عاماً. فتفرس في وجهه وسأله عن تفاصيل حياته وأسرته وطعامه وشرابه وماذا يحب وماذا يكره. وكان محمد (ﷺ) يجيب عن كل سؤال فيقول «بحُيرا» له أحسنت وصدقت.

http://kotob.has.it

ويقول المؤرخون أن بحيرا قال بعد ذلك لأبي طالب: ارجع بابن أخيك إلى البلد وأحذر عليه من اليهود فوالله لئن راؤه وعرفوا منه ما عرفت أنا لقتلوه فإنه كائن لابن أخيك شأن نجده في كتبنا ورويناه عنه آباءنا.

(الميسرة ــ ج ــ ٣ ــ ص ٤٥٤).

بحيرا لم يدرك الإسلام. وقد شاهد محمداً (ﷺ) وهو غلام، قبل الإسلام بحوالي ثلاثين عاماً. كل ما صدر عنه أنه تفرَّس في وجه الغلام وأعجب باتزان أقواله وأوصى عمه به، خوفاً عليه من اليهود فقال أبو طالب «إن كان الأمر كما قلت فإن مشيئة الله تحفظه».

فجميع كتب التاريخ، لم تذكر أن محمداً (ﷺ) اجتمع مع بحيرا غير تلك المرة التي كانت في سنة ٥٨٢ م. فكيف يمكن إن يقال:

ــ إن بحيرا هو الذي ألف القرآن.

ــ وإنه عقد مؤامرة الإسلام مع محمد (ﷺ).

إذا كان الوحي قد نزل بأول الرسالة في سنة ٦١٠. فإن المدة الفاصلة بين هذا التاريخ، وتاريخ اللقاء تقارب الثلاثين، فلا يعقل أن يكون بحيرا الذي غادر الحياة قبل مجيء الوحي بزمن طويل، هو الذي ألف ووضع القرآن، الذي لم ينتهِ إنزاله إلا في سنة ٧٣٣.

ثم: في اليقين أنَّ كليهما، المؤلف وشبرنغر، لو عرفا المعنى اللغوي لكلمة المؤامرة، لما اعتبرا الدعوة الإسلامية والقرآن والمجتمعات الإسلامية، هي نتائج تلك المؤامرة. فثمة استحالتان، دون هذا الاعتبار:

أولاهما: ليس من المعقول أن تقوم مؤامرة بين غلام لم يتجاوز الثانية عشرة وبين راهب متقدم في السن والعلم لنشر دعوة بعد ثلاثين عاماً.

الثانية: إن الدعوة الإسلامية والقرآن الكريم تضمناً تنظيماً عبادياً أخلاقياً وتشريعاً للمجتمع الإنساني. وهذه معانٍ تختلف اختلافاً جذرياً عن معنى المؤامرة. فالمؤامرة والتآمر، هو اتفاق بين اثنين أو أكثر على القيام بأمرٍ غير شريف. (لسان العرب)

ــ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾

(القصص: ٢٨/٢٠).

http://kotob.has.it

وبمنطق عامٍ نقول:

ـ ليس منَ المعقول ولا من المقبول إن يكون القرآن والإسلام منسوبين إلى تلك المقابلة.

ـ إن بحيرا كان راهباً نسطورياً وكان يتقن الآرامية السائدة آنذاك فلم يكن يملك بلاغة القرآن، ولم تكن لديه القدرة على التنبؤ بما سوف يحصل من أحداث بعد ثلاثين سنة وعلى مدى ثلاث وعشرين سنة بعدها، ليكتب آيات قرآنية يعالج بها سلفاً ما يقع من الحوادث.

ـ في ص ـ ٢٧ ـ :

بذل المؤلف جهداً مضنياً في تسقُّط ما قيل عن نزول الآيات والسور معتمداً في جهوده على منقولاته عن «البيضاوي» و«السيوطي» و«الزمخشري» و«السمر قندي». هؤلاء وسواهم ممن كتبوا عن تاريخ تلك الفترة، لم يعاصروها، بل اعتمدوا على العنعنة وعليها بنوا افتراضاتهم. فإن علمنا أن:

ـ الزمحشري عاش بين ٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ

ـ البيضاوي توفي في سنة ـ ٦٥٨ هـ

ـ السيوطي عاش بين ٨٤٩ ـ ٩١١ هـ

ـ السمر قندي توفي في سنة ٣٧٣ هـ

أدركنا لماذا لم تنل تلك المراجع أهمية لدى المسلمين كافة من مؤرخين وغير مؤرخين. إذ مادام إن توزيع الآيات على السور وتسمية السور كان النبي (ﷺ) قد استقلَّ به لوحده. وأن ترتيب السور كما هي حصل في عهد عثمان.. على مسمع ومرأى من الصحابة المعاصرين وبمعرفتهم وموافقتهم فما الحاجة إلى هذا التيه الذي خلقه الجدل بين افتراضات المتأخرين حول سبق هذه الآية، تلك الآية في تاريخ النزول وفي ترتيب الوضع فالمهم لديهم: أن ما في الكتاب، يمثل تمثيلاً حقيقياً جميع الأحكام التي جاء بها الإسلام، في العبادة والتشريع والأخلاق والعلاقات.

لذلك: يستطيع المسلمون أن يقولوا لهذا المؤلف وأمثاله:

ـ إن كنت تكتب لنا، فإن المصادر التي انتقيت منها نتفاً، هي بين أيدينا كاملة وبلغتنا. منا من قرأها، ومنا من يستطيع أن يعود إليها حين الحاجة.

http://kotob.has.it

وبالتالي لا يحتاج جميعنا إلى من يعيد علينا ما قرأناه ومازلنا نقرأه ونتعبد به منذ أربعة عشر قرناً.

- وإن كنت تكتب لغيرنا فقد كان من حق الحقيقة عليك أن تكون حيادي التفكير والقلم، وأن تسرد ما جرى ــ كما جرى ــ لا أن تنتقي ما تحب، وتترك ما لا تحب. لأنك هدفت من كتابك أن يكون مرجعاً لجميع الباحثين عن تاريخ تلك الفترة. وتاريخ الكتاب الذي يتعبد به مئات الملايين فالمسلمون وجميع المؤرخين متفقون على أن:
- تسمية السور وتوزيع الآيات عليها انفرد به النبي (ﷺ).
- وأن الجمع الأول للقرآن حصل في عهد الخليفة الأول.
- وأن التصحيف النهائي تم من قبل لجنة رباعية شكّلها الخليفة الثالث على مرأى ومسمع وموافقة الصحابة. وأن اللجنة اعتمدت في تصحيفها على الجمع الأول وعلى ما اتفق عليه الحفظة والقراء.
- وأن ذلك المصحف الذي اتفقت عليه اللجنة، وهو المصحف الإمام، الذي توحدت عنده كلمة المسلمين كافة من جميع الطوائف وفي جميع البلدان.

لذلك قلنا ونكرر القول: إننا لسنا في حاجة إلى إعادة النظر في القرآن لمعرفة المتقدم والمتأخر من سُوَرِهِ وآياته، فما بين أيدينا، مضموناً وترتيباً أخذ مكانه الثابت في نفوسنا وتاريخنا. فما يقبل تعديلاً ولا تبديلاً من أحد خاصة إذا جاءنا التعديل «لدوداً» وبلغة غير لغتنا وجنس غير جنسنا.

ثم: إن الذين أخذ المؤلف نُتفاً من مصنفاتهم.. عرضوا وما فرضوا واجتهدوا وما انتقدوا. وقد كان خليقاً بالمؤلف أن يكون حيادياً لا انحيازياً يضع سيرة سيدٍ هذه العقيدة على المنضدة ويعيد كتابتها بالمبضع والسكين لا بالحبر والقلم.

ــ وفي الصفحة ــ ٢٨ ــ :

يعيد «معزوفة الصرع المحمدي» فيقول: «يدعي بعضهم أن محمداً (ﷺ)، تلقىَّ الآيات أثناء نوبات الصرع التي كانت تأتيه والتي لم تكن تدوم طويلاً».

آ ــ من هم الذين يدعون؟

ب ــ ما هي الآيات التي تلقاها أثناء نوبات الصرع؟

ج ــ ممن تلقى تلك الآيات؟

http://kotob.has.it

د ــ وهل يسمع المصروع، شيئاً من التلقين أثناء الصرع؟

هـ ــ هل سبق للجنون أن حل وارتحل وفقاً لمشيئة المجنون؟

و ــ كيف يمكن الاقتناع بأن القرآن بما فيه من إعجاز بياني ومعنوي وأخلاقي، كان نتائج جنون يحل ويرحل دون ضابط؟

للمؤلف حريته في أن يعتقد بسماوية القرآن أم ينكرها. ولكن لتلك الحرية حدود. منها ألا يستهين بعقول الناس فيقدم إليهم طبقاً من الأقوال التي تفتقر إلى أبسط قواعد المنطق.

فحتى الذين يكرهون محمداً (ﷺ) ويناقضون تعاليمه، لا يستطيعون اتهام عقله، أو التخفيف من موازينه وما كان لأي منهم يحترم نفسه أن يقول: «إن محمداً (ﷺ) كان مجنوناً». و«إن القرآن والدين الإسلامي كانا من ثمرات ذلك الجنون». وإن كان ذلك جنوناً. فماذا. يقول ــ رحمه الله ــ فيمن ضرب البحر بعصاه الخشبية فانقسم إلى قسمين منفصلين ــ يمتد بينهما طريق ترابي من الضفة إلى الضفة، سلك عليه أكثر من مليون إنسان بحوائجهم وحيواناتهم ثم ضرب بها ثانية. فانطبق فكّا الماء على فرعون والآلاف من جنوده وأغرقهم جميعاً؟

وماذا كان يقول في غير صاحب العصا، وهو يخرج الموتى من القبور ويشفي «الزمنى» بنظرة أو كلمة أو لمسة؟ هل هؤلاء جميعاً كانوا مجانين؟ أم إن الله الذي خلق الموت والحياة زوَّدهم بقدرات تعجز الإنسان؟

إن كنا لا نملك التعليل المادي لذلك الإعجاز. فليس مباحاً لنا إنكاره أو استنكاره، حتى لو حلّقت بنا أجنحة العلمانية بعيداً فليس من العدل، إن نستنكر سيرة، ونقدس الأخرى، في حين أنهما متشابهتان تماماً.

ــ وقال في ص ــ ٢٩ ــ :

«لقد بذل المسلمون جهوداً كبيرة لمعرفة معنى كلمة «السورة» التي وردت في القرآن: «سورة البقرة» و«التوبة» و«يونس» و«النور» و«محمد». فمن المسلمين من قال إنها من جذر «سَوَرَ». ومنهم من قال: «هي رتبة» أو «بقية من شيء» «سؤر».

لقد فات المؤلف أن الملكة اللغوية فيهم، كانت كافية لفهم بلاغة القرآن وفصاحته وبالتالي فهموا من القرآن الفرق اللغوي من «السَّوْرة» من السور..

http://kotob.has.it

أي الجدار وبين السورة التي تجمع الآيات. ففي سورة (الحديد: ١٣/٥٧): ﴿... فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾، وفي (البقرة: ٢٣/٢): ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ ...﴾، وفي (هود: ١٣/١١): ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

وفي القرآن الإمام:

الذي صُحِّف وظل على ما هو عليه منذ ما قبل أن يخلق الله جميع الذين زعم أنهم اختلفوا على معنى «السورة». ففي القرآن ١١٤ مجموعاً لآيات، سمّي كل مجموع باسمه وأعطي له وصفاً خاصاً به هو «سورة». هذا الوصف، كان معروف الدلالة من أيام النبي (ﷺ). حيث لم يأت خبر عن أيٍّ اختلاف في ذلك العهد. فإن كان قد حصل خلاف فيما بعد فإنه يعود إلى ترديٍّ الفهم اللغوي عما كان عليه. وفي الآية التي أوردناها من سورة هود: تحدٍّ صريح لمن اتهم محمداً (ﷺ) بالافتراء، أن يفتري عشر سُوَرٍ من مثله حتى ولو استعان بجميع من لا يؤمن بالله.

والمؤلف، الذي طفق في طي الألفاظ القرآنية وليها حتى يسقطها في بئر اللغة العبرية، غاب عن ذهنه أن «السورة من القرآن» معناها «الرِّفعة». وذلك لإجلال القرآن وتعظيمه. فابن الأعرابي يقول: «سور الإبل كرامها». و«السِّوار» و«السُّوار» معناه القلب: والجمع «أسوره» وجمع الجمع «أساور».

ـ وفي الصفحتين ٣٠ و٣١:

احتار في الأصل اللغوي لكلمة قرآن فقال: قد تعني أدَّى، قد تعني تلا، وقد تعني معاني أخرى مثل الكلمة «شالوم» في الآرامية العبرية.

وقدم الأدلة على المعاني المذكورة. الآيات (١٦/٩٨) و(٩٣ـ ١٧/٩٥) و(٦٦/١٩) و(٣٧/٢٠) و(٨٧/٦). على أن ما يجب ابتداء المناقشة به هو أن الآرامية ليست العبرية، فالآرامية هي الأصل. والعبرية هي خليط من الآرامية وسواها من اللغات واللهجات السائدة.

وإذ عدنا إلى الآيات التي قال إن كلمة القرآن دلت فيها على غير التلاوة فوجدناها كثيرة فاخترنا:

ـ الآية (الإسراء: ٩٣/١٧). ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾

http://kotob.has.it

ـ الآية (الفرقان: ٣٢/٢٥).﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾

ـ الآية (القيامة: ١٧/٧٥ ـ ١٨ ـ ١٩). ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾

ـ الآية (الواقعة: ٧٧/٥٦ ـ ٧٨). ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾

ـ الآية (الإنسان: ٢٣/٧٦). ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾

ـ الآية (الروم: ٥٨/٣٠). ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ...﴾

هذه الآيات وكثير من أمثالها تؤكد على ما يلي:

١ ـ القرآن نُزِّل: والتلاوة لا تنزل.

٢ ـ القرآن كتاب: والتلاوة غير الكتاب.

٣ ـ القرآن مجموع: والتلاوة غير مجموعة.

ثم: إذا كانت التلاوة تعني القراءة ففي الآية ١٧ من القيامة تفريق بين القرآن، وجمعه. أما قول المؤلف، بأن الاستعمال اللغوي لكلمة قرآن، مشتق من قرأ وقرأ تعني تلا. فالقرآن هو التلاوة. وقد استدل ـ كما قلنا ـ بالآيات التي أوردناها في بداية هذه الفقرة أما نقاش هذه القول فهو كما يلي:

ـ الآية (النحل: ٩٨/١٦). ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ هذه الآية، لا تنفي أن تكون قراءة بعض الآيات هي من الكتاب كما لا تثبت إن قراءة بعض آيات الكتاب تعني أن الكتاب هو تلاوة.

ـ الآية (الحاقة: ١٩/٦٩). ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ﴾ هذه الآية تفرق بين (قراءة ـ تلاوة) الآيات. والكتاب ولا نعرف لماذا اعتمد عليها المؤلف في نفي صيغة الكتاب عن القرآن.

ـ الآية (المزمل: ٢٠/٧٣). ﴿ .. فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ..﴾ لا يمكن أن تفسر: اقرأوا ما تيسَّر من كتاب القرآن. إذ لا يستقيم المعنى إن قلنا: اتلوا ما تيسَّر من التلاوة.

ـ الآية (الأعلى: ٦/٩٧). ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى﴾ فلا يمكن قراءتها بالمعنى الافتراضي.

مما تقدم تبيَّن أن كلمة «القرآن» في جميع الآيات تدل على الكتاب الذي يتعبَّد به المسلمون. حتى الآيات التي اعتمد عليها لتأييد نظريته التي اختطفها من الغير.

http://kotob.has.it

ـ **وقال في ص ـ ٣٢ ـ:** إن كلمة «الفرقان» لا تعني «الكتاب» بل تعني «الوحي» وقد استدل بالآيات ـ (٣/٣) و(٢٥/١) و(٢/١٨٥) و(٢/٥٣) و(٢١/٤٨). وقال في الحاشية: أصل هذه الكلمة آرامي:

ـ فكلمة القرآن ـ في رأيه آرامية.

ـ وكلمة الفرقان ـ هي أيضاً في رأيه آرامية.

لن نتوسع في تاريخية الخط العربي في الحجاز ولن نعود إلى ما كان عليه في زمن الدعوة الإسلامية ولا يهم أن كانت حلقته الأولى هي الخط الديموطيقي وحلَقته الثانية هي الفينيقي بأرض كنعان والثالثة هي الخط الآرامي المسند[1].

كما لا يهم الاختلاف التاريخي بين مؤرخي الغرب ومؤرخي العرب. حول أصل الخطوط. فالثابت الذي يطفو على كل اختلاف هو:

ـ أن مكة كانت عاصمة القبائل العربية وان الكعبة كانت تضم ثلاثمائة وستين صنماً وصحيفة. وكان لكل من تلك الأصنام والصحف قبيلة تعبدها وتتقرب إليها بالحج كل عام، وكانت ملتقى قوافل التجارة «الذاهبة والآيبة». كما كانت ملتقى اللهجات الكلامية التي ترسَّبت في ألسنة القبائل وأدائها فما كان من السهل توحيدها. أو تعديلها. وكانت خلافاتها واضحة في «الإدغام» و«الإمالة» و«نطق الجيم» و«الهمزة». كما كانت في الأداء تختلف باختلاف الأعمار بين «الغلام» و«الرجل» و«الكهل» و«الشيخ».

ـ وكان الجمُع القرآني الأول في عهد أبي بكر (رضي الله عنه)، على أثر معركة اليمامة التي قتل فيها سبعون رجلاً من حَفظَة القرآن وقرائه.

أمَّا التصحيف أي الترتيب والتبويب والوضع النهائي للقرآن فقد كان بعهد عثمان، حيث كلِّف بهذا العمل لجنة مؤلفةً من أربعة رجال معروفين بصدق القول والعقيدة وكرم الأخلاق ومنذ عهده، بقي المصحف ـ القرآن على وضعه لم يتغير فيه سطر ولم تتقدم كلمة منه على كلمة حتى الآن. وعرف عند جميع المسلمين بمختلف طوائفهم باسم «المصحف الإمام».

---

[1] **كان** في مصر ثلاثة أنواع من الخطوط: «الهيروغليفي» هو خاص يكتب به رجال الدين و«الهيراطيقي» وهو خاص بالدواوين لكتاب الدولة. و«الديموطيقي» يكتب به عامة الشعب.

فينيقيا: هي البلاد التي كانت تمتد قديماً من مصب العاصي شمالاً حتى رأس الناقورة جنوباً وكانت في أيام الرومان: «فينقيا الساحلية وعاصمتها صور» «وفينيقيا اللبنانية» وعاصمتها دمشق وكانت تشمل سهل البقاع وبعلبك ودمشق وحمص وتدمر.

http://kotob.has.it

ـ واختلاف اللهجات: هو الذي سبب «الإذن بقراءة القرآن على سبعة أحرف» أي سبع لهجات. متفقة في المعاني مختلفة بالأداء. مثل «هلُمَّ ـ أقبِلَ ـ تعالَ» و«عجِّل ـ أسرِع» و«امضِ ـ سِر».

وفي الروايات الثابتة: أن عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، اختلفوا في التلاوة، دونِ المعاني، فاحتكموا إلى النبي (ﷺ)، فصوَّب الجميع بعد أن أقرأهم جميعاً وقال: «إن الله أمرني أن أقرأ القرآن على سبعة أحرف».

ـ إلا أنه روعي الالتزام بلغة قريش عند ترتيبه. وذلك:

ـ لأن الناس اختلفوا حول القراءة حتى اقتتلوا في عهد عثمان.

ـ وأن الحفَظَة والقرَّاء تفرق الكثير منهم في «الشام» و«العراق» و«بأرمينيا» و«أذربيجان».

وبطلب إلى عثمان (رضي الله عنه) تقدم به حذيفة بن حسان بن جابر بن اليماني. «صحابي الرسول وفاتح همذان». شكل عثمان لجنة من عبد الله بن الزبير، وزيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. وأمرهم بنسخ السور في مصحفٍ واحد على ستة نسخ. قائلاً لهم: إن اختلفتم أنتم وزيد في شيء، فاكتبوا بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم.

أما النُسَخ: «فواحدة بقيت عنده» و«الثانية للمدينة» و«الثالثة لمكة» و«الرابعة للكوفة» و« الخامسة للبصرة» و«السادسة للشام».

وما كان ذلك من عثمان (رضي الله عنه) إلا لضمان وحدة النص. الذي كان مختلفاً من منطقة إلى أخرى. من ذلك مثلاً. كلمة «تابوت» كتبتها اللجنة بالتاء المبسوطة مثلما كانت تكتبها قريش في حين أن أهل المدينة كانوا يكتبونها بالتاء المربوطة «تابوة».

وفي الأخبار: أن زياد بن أنعم المغافري قال لعبد الله بن عباس: هل كنتم معاشر قريش تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي؟ قال: نعم.

قال: فمن علمكم؟ قال: حرب بن أمية[1]

---

[1] هو حرب بن أمية بن عبد شمس، تعلم الخط في أسفاره ومعه بشر بن عبد الملك أخو «أكيدَر» صاحب دومة الجندل. وفيه أي في بشر قال الشاعر:

ولا تجحـدوا نعمـاء بـشر علـيكم ... فقـد كـان ميمـون النقيبـة أزهـراً
أتـاكم بخـط الجـزم حتـى حفظتمـوا ... من المـال مـا قـد كـان شـتى مبعثـراً
واغنيتمـوا عـن مـسند القـومِ حِمْيَـرا ... وما زبـرت فـي الكتـب أقيـال حِمْيَـراً

http://kotob.has.it

تلك الثوابت التاريخية تؤكد أن اللغة العربية التي نتداولها الآن، كانت لغة قريش عند مجيء الإسلام. وبها كتب القرآن. وكانت مكتملة، في الكتابة والتلاوة، في المباني والمعاني.

لذلك حينما وضعت القواميس العربية لم يدخل إليها من الألفاظ غير العربية إلا ما كان قد «عُرِّبَ» وصار متداولاً على الألسنة والأقلام ومع ذلك لم يهمل أصحاب القواميس العودة بها إلى أصولها.

أما كلمة «قرآن» و«فرقان» التي أصرَّ المؤلف على أنها وكلمات كثيرة غيرها. من أصل آرامي حيناً وحينا من أصل يهودي. فإنها ثابتة الجذور في اللغة العربية.

ومادمنا هنا، نبحث في القرآن فقط، نكتفي بدراسة كلمتي «القرآن» و«الفرقان».

ـ فكلمة القرآن درسنا عائديتها العربية سابقاً، واعتمدنا على آيات قرآنية صريحة في أصولها العربية وفيما يلي بعض الآيات الأخرى.

ـ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢/١٢).

ـ ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٢٨/٣٩).

ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ..﴾ (طه: ١١٣/٢٠).

ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ..﴾ (الشورى: ٧/٤٢).

أما كلمة فرقان:

فقد أكد المؤلف أنها لا تعني «الكتاب» بل تعني «الوحي» واستدل على تأكيده بالآيات: (٢/٥٣ و١٨٥) و(١/٢٥) و(٤/٣) و(٤٨/٢١).

ولقد، صدمنا من سوء قراءة المؤلف وفهمه للآيات. فالآيات هي:

ـ الآية (البقرة: ٢/٥٣). ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

ـ الآية (البقرة: ٢/١٨٥). ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾

ـ الآية (الفرقان: ١/٢٥). ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾

ـ الآية (آل عمران: ٤/٣). ﴿..مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ..﴾

ـ الآية (الأنبياء: ٤٨/٢١). ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾

http://kotob.has.it

أما لماذا صدمنا وكيف؟ فلأن متوسط الفهم اللغوي والعقائدي حينما يقرأ تلك الآيات لن يجد فيها المعنى الذي أصر عليه المؤلف:

- فالآية ١٨٥/٢ جاءت صفة من صفات القرآن «هدى الناس» و«بينات من الهدى» و«بينات من الفرقان».
- والآية ٥٣/٢ جاءت للتفريق وهي مصدر فيقال: فرق فرقاناً وفرقاً، ويُسمَّى كل فارق فرقاناً. وقد سمي الله «القرآن» فرقاناً لأنه يفرق بين الحق والباطل. كما يُسمَّى يوم بدر فرقاناً بقوله في سورة الأنفال ﴿.. وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ (الأنفال: ٤١/٨) لأن الله فرَّق بين المسلمين والمشركين الذين هزموا وكانوا ألفاً من صناديد قريش. هزمهم المسلمون وكانوا ثلاثماية هزموهم وقتلوا منهم أكثر من سبعين، وأسروا أكثر من سبعين.
- والآية ٤/٣ هنا: كلمة الفرقان تعني القرآن. وقد تكررت لاختلاف دلالات الصفات في القرآن. لأنه يفرق بين الحق والباطل فيما يحتاج إليه الناس من أمور الدين كالصلاة والأحوال الشخصية، والحج، والزكاة.
- والآية ٤٨/٢١ لا يختلف فيها معنى الفرقان عما تقدمه فالفرقان الذي أعطي إلى موسى وهارون هو «الضياء» وهو «الكتاب» الذي فرَّقا به بين حق «بني إسرائيل» وباطل «فرعون».وأضاء به سُبل دينهم ودنياهم.
- الآية ١/٢٥ كلمة فرقان، تعني هنا القرآن لأنه يفرق بين الحق والباطل والصواب والخطأ في أمور الدين بما فيه الحث على أعمال الخير والزجر عن الأعمال القبيحة.

يتبين مما تقدم: أن كلمة «فرقان» لا تعني «الوحي» بل «بما أوحى به الوحي» من توراة وإنجيل وقرآن وصحف سابقة. كما إنها تطلق كصفة لكل من وما يفرق بين الحق والباطل.

فعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) غلب وصف «الفاروق» الذي أسبغه عليه النبي (صلى الله عليه وسلم)، لأنه يفرق بين الحق والباطل. ولم يوصف كتابا التوراة والقرآن بصفة الفرقان، إلا لأن الله فرق بكل منهما بين الحق والباطل.

وفي التهذيب: إن الله وصف عمر بالفاروق لأنه ضرب بالحق على لسانه في حديث ذكره.

http://kotob.has.it

وقيل: لأنه إذ أظهر الإسلام بمكة، فرق بإسلامه بين الكفر والإيمان. وقد قال الفرزدق في عمر بن عبد العزيز، حفيد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه):

أشبهت من عمر الفاروق سيرته فاق البرية وائتَّمت به الأمم

وقال عتبة بن شماس يمدح عمر بن عبد العزيز.

من أبوه عبد العزيز بن مروان ومن كان جده الفاروقا

وفي القرآن:

أعداد كثيرة من الآيات تقطع كل شك لتؤكد أن كلمة «القرآن» وكلمة «الفرقان» تعني كل منهما هذا «الكتاب ــ المصحف» الذي يتعبد به المسلمون. ويستطيع أي قارئ للقرآن حتى الذي يطلع على الفهرس القرآني فقط، أن يتأكد من هذه الحقيقة.

ــ في الصفحات التالية من نصف الصفحة ٣٢ ــ حتى آخر الصفحة ٥٢:

انصرف المؤلف بكلِّيته العلمية إلى نقد عام. «للأسلوب القرآني» و«الناسخ والمنسوخ» و«طريقة التنزيل» و«تدوين السور» و«اختلاف الآيات بين قارئ وقارئ» و«أحرف التنزيل» و«مناقشة التحدي بإعجاز القرآن». ففي ذلك نقدم التحليل والنقد اللازمين كما يلي:

١ــ **الأسلوب القرآني:** من المعروف لدى جميع المثقفين أن العرب في الجاهلية كانوا مميزين بالبلاغة والفصاحة وكان ذلك سليقة، حتى إن كثيراً من العائلات كانت ترسل أبناءها منذ الصغر إلى بيت من بيوت البادية ليعتاد لسانه على «فصيح القول».

وإذ قلنا «سليقة» فلأنهم لم يكتسبوها من غير العرب ولم يدينوا بها لأي قسط من التعليم. لقد أرسل النبي منذ صغره إلى بيت من بيوت بني سعد، في البادية. وهو القائل لتلك المرأة التي خافت من لقائه «لا تخافي فأنا ابن امرأةٍ كانت تأكل القديد[1]. أدّبني ربي فأحسن تأديبي وربيت في بني سعد» «الغساسنة» و«اللخميون» و«التنوخيون» و«قبائلِ عباد وثعلبة وحنيف وكندة وعبس وطيء وبكر وتغلب وسواهم، كانوا عرباً بجميع ما تعنيه هذه الكلمة من معان، وكانت لغتهم هي العربية الواضحة الفصحى التي نزل بها القرآن.

---

[1] القديد: هو اللحم المملح الجاف.

http://kotob.has.it

ولابد لأي مثقف متتبع لتاريخ اللغويين والشعراء من أن يتذكر على الفور أمير الشعراء امرئ القيس والمعلقات وأصحابها والعرب عامة الذين فطروا على الإحساس بالبلاغة والفصاحة.

والنابعة الذبياني [1] الذي عاش بين ٨٩ ــ ١٨ ق.هـ. وقد مدح «أبا قابوس ــ النعمان بن المنذر» ثم هرب من بلاطه لأنه وصف المتجردة وصفاً فاضحاً. وذهب إلى الملك الغساني «عمر بن الحارث» الذي استقر عنده حتى مات. لذلك: جاء القرآن بالمعجز من القول. والمعجز هو الذي يعجز المميَّزين عن مضاهاته. والمعجزة في التعريف المتفق عليه: «هي ثبوت غير المعتاد أو نفي المعتاد مع خرق العادة» (البغدادي ــ أصول الدين).

كان القرشيون قد وضعوا حكماً لجزاء القاتل كي تخف جرائم القتل وهو: «القتل أنفى للقتل» واعتبروا إن هذا الاختصار ينطوي على منتهى البلاغة فكتبوه في صحيفة وعلقوه على جدار الكعبة تكريماً وتعظيماً له.

ولكن: حينما نزلت الآية ١٧٩ ــ من سورة البقرة: أدركوا كم هو الفرق البلاغي كبير بينها وبين ما كتبوه على الصحيفة. فالآية:

ــ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢/١٧٩).

أوضحت أن ذلك قصاص. وأنه يؤمن استقرار الحياة، وأنه يتوجه إلى العقلاء الذين يديرون حركة المجتمع. لقد وقف بلغاء العرب من خطباء وشعراء مبهورين من ذلك الأسلوب الذي جاء به القرآن ووقفوا عاجزين عن مضاهاته وعن قبول تحديد لهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله، فقال: ﴿.. فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ..﴾ (البقرة: ٢/٢٣).

حتى قال: «النظَّام المعتزلي» و«الشريف المرتضى» أن القرآن معجز، بالصَّرفة أي: إن الله صرف العباد حتى آخر الزمن عنه وخلق فيهم العجز عن مضاهاته أو مماثلته.

وقال: أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر المعروف «بابن الباقلاَّني» الذي عاش بين (٣٢٨ و٤٠٣ ــ هـ) في كتابه «إعجاز القرآن».

---

[1] هو «أبو امامة» زياد بن معاوية بن سعد من ذبيان أمير الشعراء في عصره وحَكَمَ الشعراء في عكاظ عرف «بالنابغة الذبياني» لتمييزه عن النابغة الجعدي نابغة بني شيبان.

http://kotob.has.it

«لو لم يكن القرآن معجزاً ــ على ما وصفناه ــ من جهة نظمه الممتنع لكان مهما حُطَّ من رتبة البلاغة فيه، ووُضِع من مقدار الفصاحة في نظمه كان أبلغ في الأعجوبة إذا صُرِفوا عن الإتيان بمثله ومُنِعوا عن معارضة على أنهم لو كانوا صُرِفوا على ما ادعاه لم يكن من قِبَلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدِل به في الفصاحة والبلاغة وحسن النظم وعجيب الوصف. لأنهم لم يُتَحَدَوْا إليه ولم تلزمهم حجَّته. فما لم يوجد مثله في كلام قيل قبله. وما ذلك إلا لأنه معجز»

والباقلاَّني، كان يرفض الصرفة من الله وكان يقول «الإعجاز قائم في ذات أسلوب القرآن».

وقد ردَّ على الباقلاَّني معاصره: أبو سليمان الخطَّابي (٣١٩ ــ ٣٨٨ هـ)[1]. فقال «بالصرفة» محتجاً بالآية ٨٨ ــ من سورة الإسراء التي جاء فيها أمر الله إلى النبي (ﷺ) بقوله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: ١٧/٨٨).

فالتحدي ــ كما يقول الخطَّابي ــ جاء بأمر الله وليس بقوة النبي (ﷺ) البلاغية أما الأمام فخر الدين الرازي: أبو عبد الله بن محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني، المفسِّر المتكلم الأصولي صاحب التصانيف.

فهو يقول: «القرآن معجز بذاته وبالصرفة. فإما أن يكون أو لا يكون. فإن كان معجزاً بذاته حصل المطلوب. وإن لم يكن وكانوا قادرين على الإتيان بمثله. وكانت الدواعي متوفِّرة ولم يقم دونهم عائق، وكان دحضه من أول مهمَّاتهم فعدم قيامهم بمعارضة هو نقص مردُّه إلى الله.

أما العلاَّمة الطباطبائي (محمد بن حسن الطباطبائي) فقد قال في الميزان بتفسير الآية ٨٢ ــ من سورة النساء ٤:

ــ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً﴾ (النساء: ٤/٨٢).

«إنه ظاهر في أن الذي يعجز الناس عن الإتيان بمثل القرآن إنما هو كونه في نفسه على صفة عدم الاختلاف فيه لفظاً ومعنى ولا يسع لمخلوق أن يأتي بكلام غير مشتمل على الاختلاف، لا أن الله صرفهم عن مناقضته.

(ص ــ ٧١ ــ من الجزء الأول من التفسير).

---

[1] هو من نسل زيد بن الخطاب أخي عمر بن الخطاب واسمه: أحمد بن محمد بن الخطاب.

http://kotob.has.it

وخلاصة القول: ليست المعجزة التي تستند إلى سبب سواء أكان طبيعياً أم مفارقاً للعادة. فالمريض الذي يشفى بالدعاء يمكن أن يشفى بالدواء. ولكن الشفاء الأول معجزة لأن استجابة الدعاء كرامة من حيث استندت إلى سبب غير مغلوب بسبب مادي ظاهر. في حين أن الشفاء الثاني قام على سبب مغلوب والغالب هو الدواء.

فالمعجزات: التي مُنِحت للأنبياء كانت برهاناً على صدق الرسالات وكانت دافعاً إلى الإيمان. والأنبياء الذين عاشوا بين البشر مثل البشر زُوِّدوُا بما يُعجِز الإنسان عن إتيانه لذلك جاءت معجزاتهم في كل عصر متحديةً أرفع درجاته في التقدم.

- ففي عهد موسى كان السحر أقصى ما وصل إليه العقل البشري وكان السحرة يتربعون على عرش التقدم والتميز فتزوَّد موسى بما أعجزهم فوقفوا تجاه آياته مستسلمين.
- وفي عهد المسيح كان طب أبقراط (٣٣٧ ــ ٤٦٠ ق.م) وطب جالينُس (١٣١ ــ ٢٠١) قد اجتاز الإغريق وساح في جميع بلدان العالم. معتمداً على الأدوية المستخلصة من خليط الأعشاب في مداواة المرضى فجاءت معاجز المسيح، بشفاء الزِّمنى[1] بنظرة أو كلمة أو لمسة. فاثبت، أن المرض الذي يشفى بالدواء، ويشفى بالدعاء المعجز. وفوق ذلك مُنِح المسيح معجزة إحياء الميت. وبثَّها في كتلة مادية صمَّاء. تلك الآيات، سواءً آيات موسى أم آيات عيسى، طرحت بين الناس لكي يشاهدوها مشاهدة مادية. لذلك، ولأن الإنسان في ذلك الزمان لم يكن يؤمن إلا بما يُحِسُّ به ويراه، سميت آيات مبصرة.
- «أما بعد أن طويت قرون عديدة في جيب الزمن وأصبح لدى الإنسان بصيرة إلى جانب البصر، وصار جاهزاً لأن يتلقى بعقله لا بعينه ويده فقط. جاء فَن قال عنه المسيح الذي سوف يمكث مع الإنسان إلى الأبد: أي الذي تمكث تعاليمه إلى الأبد، وليس جسده وناسوته» (**يوحنا** ــ ١٦/١٤).

لقد أُرسل محمد، بإعجاز مختلف. فالمعاجز الأولى، كان لابد من أن يراها البصر. أما المعاجز المحمدية فقد صيغت للبصائر. هي القرآن. الذي وضع بين

---

[1] الزِّمنى هم المرضى المزمنون.

http://kotob.has.it

يدي الإنسان سعادة دنياه وآخرته المعاجز الأولى: لم تتحدث إلا تلميحاً عن «المبدأ والمعاد» و«التوحيد» و«البعث» و«بدء الخلق وكيفيته» و«كيفية خلق الموت» و«تقنين الأحوال الشخصية» و«الاجتماعية». لأن ذلك جميعه، كان فوق طاقة العقل الإنساني.

أما بعد مرور عدد من القرون، فقد بلغ التطور بالعقل، إلى إمكانية التلقي والاستيعاب. فكان القرآن صفحة نقية من الأكدار واضحة المباني والمعاني شارحاً هذه الأمور جميعاً ومؤكداً على أن الله منح الهداية إلى جميع بني الإنسان، كما منحهم الاختيار بين الهدى والضلالة وأوضح أن الثواب جزاء الإحسان، وأن العقاب جزاء النكران:

ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ (الإنسان: ٣/٧٦).

هنا: نختلف مع المؤلف الذي قوّلته حرفية تربيته بأن محمداً (ﷺ) كان ذا نبوغ، استحضر به حاجات الناس، وتصوَّرَها على أكمل وجه، فقام بتغطيتها موهماً نفسه والناس، أنه مدفوع إلى ذلك بقوة غير منظورة هي الله. وهو بالجملة لم يكن إلا مصلحاً اجتماعياً. وأن روح القدس لديه كانت دوافع الخير في الإنسان، والشيطان هو دافع الشر، فلا مرسل ولا رسول ولا رحمان ولا شيطان، ولا مؤمن ولا كافر بهذا الفكر، ففسَّر المؤلف شخصية محمد (ﷺ) ومضامين القرآن. كما قال: إن الجنة والنار والمئآب والحياة والموت والشريعة والتشريع واللوح والقلم والكرسي والعرش جميعها ابتكارات رجل ذي عقل جبار وجد ضرورة تنظيم المجتمع وإحلال الهدوء فيه محل الفوضى فوضع برنامج حياة يغطي حاجات الإنسان في دينه ودنياه، ونسب ذلك إلى قوة خارقة غير منظورة منها تصدر وإليها تصير الأمور.

قلنا: هنا نختلف مع المؤلف. ولكننا قبل بحث وجوه الاختلاف، وجدنا ضرورة تذكيره بما صدر عنه من تناقض، في وصف شخصية محمد (ﷺ).

هناك: ومنذ عدد من الصفحات، قال: كان القرآن نتائج، لنوبات من الجنون كان يغيب فيها محمد (ﷺ) عن الوعي ثم عندما يستفيق كان يتلو الآيات والسور.

وهنا: يراه ذا عقل جبار وضع برنامج الحياة وغطى به حاجة الإنسان ديناً ودنياً. فأي المحمدين يثبت عليه المؤلف يا ترى؟

هناك: وقف مبهوراً بالقرآن، فلم يجد له تعليلاً ينسجم مع تربيته غير العودة به إلى الجنون، أي إلى ما لا يصنعه العقلاء.

http://kotob.has.it

وهنا: وقف مبهوراً أمام هذا التنظيم الشامل للفرد تجاه ذاته وللفرد تجاه مجتمعه. وللمجتمع تجاه استمراره وللمجتمع تجاه أفراده. فلم يجد تعليلاً، غير الفكر المحمدي الجبار الذي استوعب حاجات الإنسان فغطاها: عبادةً، وأخلاقاً، وتنظيماً.

نعود بعد ذلك إلى الاختلاف مع المؤلف لنقول: هو اعتقادي من جانبنا. وفلسفي من جانبه. غير أن الشيء البارز في فكر المؤلف، بل الطاغي هو حرصه الشديد على نفي الرسالة المحمدية، وتركيم الحجج على أنها كانت تمثيلاً أمام الناس واستغفالاً لعقولهم. واستجلاباً لمواقفهم.

هذا الشعور الطاغي. هو الذي قفز بالمؤلف من فوق الغايات التاريخية ليغدو ناقداً لاهوتياً، مثل أي إكليركي متعصب. وإلا فما حاجة التاريخ عند المؤرخ، لينقد الحوادث التاريخية، وليعلن فيها آراءه الشخصية وعواطفه الخاصة تقييماً وتقويماً؟ فحينما يتسلل هذا الباحث التاريخي إلى أعماق النفس المسلمة، ويقول: أيها المسلمون في جميع الدنيا، إنكم تعيشون في ظلام عقائدي دامس فما دعوة محمدكم. غير حركة إصلاحية، مثل حركة «آدم سميث» و«كارل ماركس» وغيرهما.

وحينما ينسى مهمته في البحث التاريخي، ألا يحق لقارئه أن يقول له لست ثقة في جميع ما تقول. وليس هدفك عرض الوقائع ــ كما صرَّحت ــ بل التسلل منها لنِفْثِ أطنان العواطف الشخصية. تجاه حقيقة نواياه نقول: ثق أيها المؤلف: إن ما ترمي إليه مستحيل التحقيق.

فالنبي محمد (ﷺ) لم يخدع أحداً. والقرآن ليس من صنعه. بل كل كلمة منه هي وحي من الله. لأنها كانت ومازالت منذ أكثر من أربعة عشر قرناً إعجازاً تستحيل مضاهاته. فاستعادة الأوصاف الشركية «شاعر وساحر» وإغداقها على النبي (ﷺ) من قبل المؤلف ليست في نظر المسلمين والمنصفين غير تكذيب للرسول والرسالة قال الله فيه وفي الكذب والمكذبين:

- ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ، فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾ (الماعون: ١٠٧/١ ــ ٢).
- ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ..﴾ (آل عمران: ١٨٤/٣).
- ﴿..فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ..﴾ (الأنعام: ١٤٤/٦).

وبعد: جولتنا مع المؤلف في مرجعيَّه القرآن وموضوعيته. لنعودَ إلى الأسلوب القرآني وما أثر عنه وما قيل فيه:

http://kotob.has.it

ـ أخرج الحاكم عن ابن عباس قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي (ﷺ) فقرأ عليه من القرآن، فكأنه رقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه وقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوك لئلا تأتي محمداً (ﷺ) لتعرض لما قاله: قال الوليد: لقد علمت قريش أني من أكثرها مالاً. قال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له: قال وماذا أقول فيه؟ فوالله ما فيكم أعلم بالشعر مني. ولا برجزه، ولا بقصيده ولا بأشعاره.

والله إن لقوله الذي يقول لحلاوة. وإن عليه لطلاوة. وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله. إنه ليعلو ولا يُعلى عليه. وإنه ليحطِّم ما تحته.

قال أبو جهل: لا يرضى قومك حتى تقول فيه. قال: فدعني أفكر. فلما فكَّر قال: هذا سحر يُؤثَرْ: فنزلت فيه عشرون آية من سورة المدثر:

ـ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً، وَبَنِينَ شُهُوداً، وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ، كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً، سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً، إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ، وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ، لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ، لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (المدثر: ٧٤/١١ ـ حتى ٣٠).

وقال أبو بحر الجاحظ:

«بعث الله محمداً (ﷺ) في أمةٍ أكثر ما كانت شاعراً وخطيباً، وأحكم ما كانت لغةً وأشد ما كانت، عدة. فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته فدعاهم بالحجة. فلما أزال الشبهة وقطع العذر. وصار الذي يمنعهم من الإقرار «الهوى» و «الحمية» دون الجهل والحيرة. نصَبَ لهم الحرب ونصبوا له. وقتل من عليَّتهم وأعلامهم وأعمامهم وبني أعمامهم.. وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباحاً ومساءً على أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة أو بآيات يسيرة. فكلما ازداد تحدياً لهم وتقريعاً بعجزهم تكشَّف عن نقصهم ما كان مستوراً. وظهر ما كان خفياً. فحين لم يجدوا حيلة قالوا له: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف لذلك يمكنك ما لا يمكننا. فها توها مفتريات. فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر».

ويتابع: دلَّ ذلك على عجز القوم مع كثرة كلامهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم. فكانت سورة واحدة وآيات يسيرة أنقض لقول الشاعر وأفسد لأمره وأبلغ في تكذيبه».

http://kotob.has.it

ثم يتابع فيقول: ما يصلح أن يكون رداً على ناقد الأسلوب القرآني: «كان لهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور ثم يتحدى به أقصاهم. فمحالٌ ــ أكرمك الله ــ أن يجتمع هؤلاء كلهم على الغلط في الأمر الظاهر، والخطأ المكشوف البيِّن مع التفريق بالنقص والتوقيف على العجز وهم أشد الخلق أَنَفَةً وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم». لهذا ولكثير من أمثاله نستطيع أن نقول: إن المؤلف، ومن اعتمد عليهم من الباحثين والنُّقَّاد والشعراء لم يستطيعوا حتى الآن أن يصنعوا كتاباً ولا جزءاً من كتاب مثل القرآن.

أما ما بسطه في كتاب حول «التقديم والتأخير» و«المجمل والمفصّل» و«الإيجاز والإطناب» و«فواصل الآيات» و«السجع» و«الأمثال» و«الأقسام». فهي مما لا يعيب القرآن بل هي من مظاهر إعجازه وتفوقه وحينما نصَّب المؤلف نفسه «سيبَوَيْهاً» عصرياً، وبدأ بنقد لغوي للقرآن مثل «عدم التقيد بالتنوين الممدود في أواخر بعض الآيات» و«تجاوز الموقع الإعرابي» و«الوظيفة اللغوية» نسي، أن هذا منه تغريد في غير سربه. وأن سيبويه يستمد الأمثلة على قواعده من آيات القرآن. وأن القرآن مرجع جميع اللغويين والمؤلفين الذين اعتمد عليهم المؤلف لأن قواعد اللغة من نحو وَصَرْفٍ وإعراب ومجاز وكنايات وتشابيه كانت عند العرب سليقة، فتسقطها المتأخرون وقعَّدوها في القواعد فكأن أول المشتغلين في هذا الباب «أبو الأسود الدؤلي» أخذاً عن الإمام علي بن أبي طالب.

فأنت: أيها المؤلف الحصيف. لا تستطيع أن تعيب لغة امرئ القيس والنابغة الذبياني، ولبيد وعنترة. لأن اللغة كانت في صميمهم ولأن ما بين أيدينا من القواعد هو من فتات موائدهم. وهكذا يجب التعامل مع الأسلوب القرآني.

ثمة أمثلة، أوردها من القرآن، تبين ذلك المدى المعجز الذي بلغه أسلوبه. اكتفي هنا باثنين منها.

١ ــ [ــ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (البقرة: ٢/٢٦٠)]

هنا يجب التمعن في «صُرهُنَّ إليك» و«سعياً». فصُرهن إليك: يعني اضممهنَّ إليك واجعلهن بين يديك. ولكن الغاية هي إحياء الموتى. لذلك قال: ضع على كل جبل

http://kotob.has.it

جزءاً منهن وهذا يستدعي ذبحهن وتنظيفهنَّ من الريش وتقطيعهن إلى أجزاء. هذه المسافة القولية الطويلة، اختصرتها بلاغة القرآن في «صرهن إليك..» تاركة للسياق أن يقوم بالتوضيح والتفصيل.

أما سعياً: والطيور لا تتنقل إلا طيراناً. ولكنها هنا تأتي سَعْياً على أقدامها لكي يتأكد إبراهيم أنها الطيور الأربعة التي ذبحها فيطمئن قلبه.

٢ ــ [ــ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الشعراء: ٢٦/١٨٣)]

فالأشياء، هنا تشمل جميع النواحي المادية وجميع المواهب المعنوية ولو أراد الاقتصار على الأشياء المادية، لقال حقوقهم.

أما التكرار، الذي اعتبره عيباً من عيوب الأسلوب القرآني. أعطى عليه مثالاً: تكرار

ــ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٥٥/١٣).

التكرار في القرآن ليس عيباً ــ كما رآه المؤلف ــ بل هو إعجاز بلاغي.

ففي سورة الرحمن:

ــ قالوا عنها «إنها عروس القرآن».

ــ وتكرار آية ــ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن: ٥٥/١٣).

كان ضرورة بلاغية لتعدد المعاني، التي جاء كل واحد منها على حدة، فكان الاستفهام الاستنكاري وراء كل منها.

الله: «خلق الوجود أرضاً وسماء» و«خلق الأنس والجان» و«هو رب المشرقين والمغربين» و«خلق البحرين ووضع بينهما برزخاً من الماء فاصلاً فلا يلتقيان» و«هو الذي يسيِّر السفن في البحار»

وهكذا،على مدى ثمانية وسبعين آية تتكرر عجائب الله. وبدائع صنعه فيتكرر وراء كل منها الاستفهام الاستنكاري متحدياً المكذبين أن يأتوا بآية عجيبة أو إبداع.

ــ وإذ قال: الجنة والنار و الحياة والموت، والرحمن والشيطان والحياة والموت... وغير ذلك من الثنائيات التي ابتكرها عقل محمد (ﷺ). هي خيالية لا وجود لها. هذه الأقانيم موجودة في الكتب المقدسة وقد وردت على ألسنة الأنبياء، لأنها كلمات أوحي بها من الله.

http://kotob.has.it

ـ **فالجنة:** هي الحياة الأبدية: وردت في (٣/١٧) من يوحنا عن لسان المسيح: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته». كذلك وردت في ص ٢٩٠ من معجم اللاهوت الكتابي.

ـ **والنار أو جهنم:** «نار الدينونة». «نار الغضب». «النار الإلهية» «العقاب الذي لا دواء له»

ـ وردت بهذه الأسماء في ص ٧٥٥ من معجم اللاهوت الكتابي.

ـ ووردت في «إشعيا ٣٣/٢٧ و ٦/٣١ و ١٦/٦٦»

ـ ووردت باسم نار جهنم في: متى ٢٢/٥ و٤٢/١٣ و ٢٩/١٠.

ـ ووردت «نار جهنم التي لا تطفأ «في مرقس ٤٦/٩».

ـ **الرحمن:** وردت في تيموثاوس ١/١ باسم الرحمة وفي متى بصيغة الرحمة ٧/٥ ـ وفي لوقا ٥٠/٨ و٥٨ و٧٢ و٧٨ ـ ومتى: طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ٧/٥ ـ وفي فيليبي: ٨/٢.

ـ **الشيطان:** جمعه شياطين. إبليس جمعه أبالسة، هزمها يسوع وهزم الأرواح الشريرة التي لها سلطان على البشرية الخاطئة: (متى ـ ١١/٤) و(يوحنا ٣١/١٢).

هذا هو معنى المشاهد الإنجيلية التي طرد فيها المسيح الشياطين من الممسوسين.

لذلك: كان قول المؤلف: تلك المفاهيم ابتكرها عقل محمد (ﷺ) ونسجها خياله.

هو قول خيالي جزاف، ليس فقط لا يعتمد على دليل. بل تناقضه صراحة وجودها في الكتب المقدسة.

ـ **فالجنة والنار:** والحياة الأبدية في كليهما.

ـ **والرحمان والرحيم:** من الرحمة أي عطف القوي على الضعيف. وفي قمة الرحمة ـ الله الذي هو أرحم الراحمين.

ـ **والشيطان:** أو إبليس عندما يتطور: هو سيد الشرور والمعزي بها.

ـ **الموت والحياة:** اقنومان أو كلمتان من كلمات الله موجودتان مثل غيرهما منذ أن وجد الوجود. فالحياة، في الأصل مشتقة من «الحي القيوم» الذي هو الله. والذي لا يدركه الموت، لأنه خالق الموت.

ففي القرآن: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (**الملك:** ٦٧/١ـ ٢).

http://kotob.has.it

وفي التوراة: ابتهل يشوع بالله الحي ــ «يشوع: ١٠/٣» وأعلن دانيال المثول لديه «كعبد الله الحي»: ٢١/٦.

وفي الإنجيل: يفضل يسوع الحياة على الطعام ــ متى ــ ٢٥/٦.

والله هو إله أحياء وإله المعجزات التي تعطي الحياة (مرقس ٤/٣) و(مرقس ٢٧/١٢).

٢ ــ **الناسخ والمنسوخ:** قال المؤلف في ص ٤٩:

آ ــ النسخ في القرآن يدعو إلى السخرية.

ب ــ إن كثيراً من المسلمين، ينكرون النسخ بمجمله.

ج ــ إن تحدي الشعراء والبلغاء أن يأتوا بسورة مماثلة لسُوَرِه. كان من ناحية الجوهر لا من ناحية الخطابة والشعر والبلاغة.

د ــ ومع ذلك التحدي ظهر في حياة محمد (ﷺ) وبعد موته أنبياء تلوا على الناس كتباً.

ومع أن بعض هذه الفترات لا صلة لها بمبدأ «النسخ» فإننا نقدم التحليل الإجمالي دون تقيد مقتصرين على البقاء مع «النسخ».

أ ــ جاء الناسخ في القرآن بعد المنسوخ.

وهو في أكثره، يعالج الأحكام الشرعية، أي الأحكام التي تنظم المجتمع، وترسم علاقة الإنسان بربه وبمجتمعه. فعلاقة الفرد مع ربه تنطلق من الضمير والإيمان. وعلاقته مع مجتمعه تحددها الأحكام والضوابط الشرعية. فالمجتمع الإنساني (عربي أو غير عربي) كانت تسود فيه عادات وتقاليد وممارسات، تحول دون تطوره مثل:

ــ استعمال اليد اليمنى في «السلام» و«الاستنجاء» و«الأكل». شرب الخمر بلا حد ولا ضابط ولا وقت معلوم. الإرث. الشهادة. الايلاء. الاستبضاع. وسواها.

وبما أن الشريعة هي استقصاء الأحوال الاجتماعية القائمة ووضع الضوابط المناسبة التي تكفل بقاء الاستقرار واستمرار الحياة الاجتماعية.

لذلك كان من الطبيعي إن تفرض بالتدريج وأن يكون فرضُ الجديد متلازماً ومتوافقاً مع تطور العقل الفردي والعقل الاجتماعي. فصِبْغَةُ الله، هذه التي خلق الناس عليها، أي السير إلى الأمام دوماً وتخطيِّ القديم. هي التي جعلت النبي (ﷺ) يصدع بالرسالة، منتقلاً بالإنسان انتقالاً تدريجياً من القديم الذي لم يعد يستسيغه العقل الاجتماعي إلى الجديد الحسن.

http://kotob.has.it

هذا هو التفسير الحقيقي:

ـ بِغَضِّ النظر موقتاً وفي البدء عن ممارسة القديم.

ـ وهجرات القديم إلى الجديد بعد سيادة القناعة بأحكام الرسالة ورسوخ الإيمان الإسلامي في الصدور.

في البدء الإسلامي، كانت تتحكم في عقول الناس ممارسات يابسة ضبابية المنشأ والتاريخ. حتى إذا اقتنع الناس بأن الله خلق السمع والبصر والفؤاد. في الفرد ليرى بعينه ويسمع بأذنه ويفهم ويستوعب بعقله لا بعيون وآذان وعقول الآخرين الأقدمين. انتقل الإنسان نقلةً نوعية، تناسب انتقال وعيه من القديم، وكان النسخ، هو الوسيلة الوحيدة لهذا الانتقال. لذلك:

يجب ألا يفهم النسخ، أنه إلغاء الجديد من الشرائع للقديم منها، بل على أنه انتقال تشريعي اقتضاه انتقال المجتمع من الحسن إلى الأحسن.

قال المسيح: لا تظنوا أني جئت لا نقض الناموس والأنبياء فلو زالت السماء والأرض مازالت كلمة من كلمات الناموس بل جئت لاكمل.

ومحمد (ﷺ) قال: جئت لأتمم مكارم الأخلاق. بهذا المنظار، وبهذا المنطق يجب أن نفهم المعنى الحقيقي والدوافع الحقيقية للناسخ والمنسوخ.

إن الاعتقاد بأن الشريعة من إرادة الله. وأن الله الذي لم يتخل عن خلقه. أرسل الأنبياء وأوصى إليهم بالشريعة لكي يبلغوها ويضبطوا بها حركة المجتمعات ونزعتها إلى التطور المستمر. لذلك نجد في القرآن ٢٢٨ ــ آية تخصصت للشريعة، وتوزعت على الجهات الاجتماعية التالية: «العائلة» و«القضاء» و«القانون الدستوري» و«المال والاقتصاد» و«العلاقات الدولية» و«القانون المدني» في رأينا ــ وهو إذ نرجو أن يكون صائباً ــ يتحمل المناقشة، أن رغبة الإنسان في الانتقال إلى الأحسن، هي نزعة خلقها الله فيه. فكلما عجزت الضوابط القائمة عن ضبط التطور الاجتماعي تحركت الجينات الرابضة في الذات الإنسانية ونسَّقت ما ترهل من القوانين وأودعته بكل احترام في جيب الزمن، لأنه كان فيما مضى علاجاً للأمراض الاجتماعية، ثم عادت فملأت صفحة المجتمع بما يساعده على تخطي المرحلة القادمة.

ذلك هو مبرر وضع «سلَّة» القوانين، بين حين وحين.

هذا التحرك الذي هو، صِبْغَةُ الله في الإنسان تداولته المجتمعات الإنسانية من الرسالات السماوية، التي كانت الواحدة منها حينما تتلو السابقة تقول للناس أنها مكملة لما سبق.

http://kotob.has.it

فالمسيح، مع كثرة تعاليمه، التي انتقلت بالإنسان إلى الجديد في علاقته مع ربه وعلاقته من أخيه الإنسان. قال جئت لأكمل ولم آت لا نقض الناموس والأنبياء. وأعلن عن القادم «المعزي» في الزمن القادم، ليكمل بدوره.

ومحمد (ﷺ) قال: إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. وأعلن: عن القادم في مستقبل الزمن ليملأها عدلاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً.

لقد تركزت عيون الرسالات على حياة الناس، فتفاعلت معها ووضعت لكل مشكلة من مشاكلها، الحل المناسب لها. وفرزت فرزاً صريحاً محكماً بين ما هو «إلهي» عما هو «بشري». فرسخت في النفوس قناعة بخلود الأول وثباته. وأفسحت المجال أمام البشري لكي يدور مع الزمن كيفما دار وان يسير وراءه حيثما سار.

وفي المرحلة الإسلامية الأولى، لم يكن في صالح الدعوة أن تعلن إلغاء ما في المجتمع الجاهلي من عادات دفعة واحدة ولو فعلت «لرفضها العتاة ولما تابعت الحياة».

ـ ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً﴾

(المعارج: ٧٠/١٩ ـ ٢٠ ـ ٢١)

لذلك: اتبعت أسلوب التعليم، الذي قضى بأن تعطى المعلومات تدرجاً مع تطور الاستيعاب عند المتلقي: «الصيام» و«الخمر» و«المراباة» و«الرق» و«الجزية». وسواها سكبت في عقول الناس على مراحل، مراعاة لدرجة التدرج في الرسوخ العقائدي، وأعطيت مثل جرعات الدواء التي تعطى مقاديره للمريض وفقاً لمراحل الشفاء. حتى إذا تملك الإيمان في النفوس وأضحى العاقل قابلاً لتلقي المزيد أعطي الجرعة الأخيرة من الدواء الاجتماعي.

لقد تعامل الإسلام مع العادات بأسلوب يختلف عن أسلوبه في العبادات فالعادات التي ألفها الناس بالممارسة، أخذها بالرفق والهدوء حفظاً للروابط الاجتماعية أن تنقطعَ وتتباعد.

ولنأخذ، قصة التحريم للخمر، كمثال على الأسلوب التربوي الذي اتَّبعَهُ القرآن مع الإنسان. فالخمر ـ كما هو معروف في اللغة ـ كلمة مشتقة من الخمار أي غطاء الرأس ولكنها هنا رمز لحالة المخمور الذي تغطي الخمرة عقله وتحجبه عن الحضور. فبينَّ في بادئ الأمر لمن يعاقرونها قائلين: إنها تساعدهم على نسيان همومهم. فقال: نعم: إذ الخمر تنسيكم الهموم. ولكنها لا تزيلها: والنسيان هنا هو حالة احتجاب العقل، الذي ما إن يصحو حتى يجد الهموم من بين يديه ومن خلفه.

http://kotob.has.it

وتابع: لا يزيل الهموم غير مجابهتها. ولا تكون المجابهة إلا بالعقل النظيف. لذلك، وتأكيداً للمقولة، واستحضاراً للعقل بكامل النظافة صار بالعلاج على مراحل مع المراقبة الشديدة لهؤلاء المرضى.

ـ نزلت الآية (البقرة: ٢/٢١٩) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَفعِهِمَا..﴾ لقد تحدث عن الواقع المَعاش الذي لا يختلف عليه اثنان. فالناس ألِفُوا من المخمور ارتكاب الآثام وهو في «اللاوعي» والتجارة وتسويق الخمر مَجْلَبَةً للنفع المادي. ولكن الآية إذ ذكرت «الآثم والنفع» أعطت الجرعة الأولى بقولها. ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نفعِهِمَا..﴾

ـ ثم نزلت الآية (النساء: ٤/٤٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ..﴾ يقال: نزلت هذه الآية في أحد المسلمين وقف في الصلاة وقال وهو مخمور: «قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون» وهي في الحقيقة: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، ولكن الخمر التي غزت عقله ألقت به في غيابة الجهل وعدم التمييز.

ـ بعد ذلك: أي بعد أن استقر الإيمان في الصدور ونظفها من فوائد الخمر المزعومة وبين لها بجلاء كم هو كبير ضررها على دين الإنسان ودنياه.

وبالجملة بعد أن صار الإنسان قابلاً لتلقي كامل الأحكام. نزلت الآيتان ٩٠ و ٩١ من المائدة ٥: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ (المائدة: ٥/٩٠ ـ ٩١).

هذا التدرج في مراحل سكب الأحكام الاجتماعية في النفوس، هو الأسلوب الذي اتبعه الإسلام، ليحفظ العقل بعيداً عن عادات السوء والفاسد من الأمور، لأنه «مناط التكليف» ووسيلة الاختيار بين البدائل.

فالمؤلف الذي قال: «النسخ في القرآن يدعو إلى السخرية».

نعم: كان ساخراً، ولكنه لم يفهم حقيقة النسخ. ولو فهمه لأدرك كم هو غافل عن حقيقته. وأدرك أنه سخر من المسيح ومن محمد (ﷺ) كليهما:

ـ «فالمسيح الذي أكَّد على أن السماء والأرض تزولان ولا تزول كلمة من ناموس موسى. تجاوز الناموس قائلاً ما جئت لانقض الناموس والأنبياء بل جئت لأكمل. فالعلاقات كافة، والديانة المسيحية، هي تكملة لما سبق. ومع هذا النسخ والتجديد: بشر سلفاً بمجيء المعزي الذي يبقى إلى آخر الزمان»

(يوحنا ـ ١٤/١٥).

http://kotob.has.it

ـ ومحمد (ﷺ) الذي آمن بالرسل السابقين دون تفريق، قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». ومع هذا. فقد كان الدين الإسلامي الذي نشره بين الناس محراثاً فكرياً فعل في البنية الاجتماعية ما يفعله المحراث في الأرض، تنفيذاً لمشيئة الله التي أمرت بالنقلة التشريعية من القديم إلى الجديد. لذلك لم يرد في سيرة هذين الاستثنائيين العظيمين أي نص أو تصرف يوحي بالاستمرار على الماضي مهما تجاوزه الزمن، بل كان المسيح يقول دوماً: اطلبوا تجدوا. وفي القرآن: تلا محمد (ﷺ): ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٩/٢٠). أي اكتشفوا بأنفسكم كل ما تستطيعون من «مجاهيل الحقيقة» وما خلق الله لكم السمع والبصر والفؤاد إلا لكي تمارس فعاليتها بنفسها كيلا تقرأوا بعيون السابقين، وتسمعوا بآذانهم، وتفكروا بعقولهم.

طبعاً: سواء كان الأمر بالاجتهاد وتجاوز أردية الأزمنة الأولى مأموراً به من المسيح أم من محمد (ﷺ)، فإنه يتعلق بالعلاقات وليس بالعبادات التي ليس للإنسان إن يجتهد فيها تعديلاً أو تبديلاً. لأن ذلك منوط بالله.

ـ ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا..﴾ (البقرة: ٢/١٠٦).

ـ ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ١٦/١٠١).

وقبل أن يقول لسان حال المؤلف أو من يرون رأيه. «كيف جاز النسخ في المجتمع المحمدي وتخطرَّ في غيره؟».

نبادر فنقول: لم تحرم المسيحية ولا الإسلام على الإنسان أن يجتهد في الدنيا وأن يتجاوز قديمها. وخاصة في الإسلام. لأنه نزل وسطاً:

ـ بين من لا يؤمن بوجود الله وبين من يؤمن بوجوده مع الشركاء، فجاء الإسلام بالتوحيد وسطاً رافضاً الاثنين.

ـ وبين من لا يؤمن بغير المادة. ومن لا يؤمن بغير الروح فجاء الإسلام وسطاً إذ قال القرآن :

ـ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا..﴾ (القصص: ٢٨/٧٧).

ـ ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ..﴾ (الجمعة: ٦٢/١٠).

وقالوا: روي عن النبي (ﷺ) قوله: «أعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، وأعمل لأخرتك كأنك تموت غداً».

ويروي عن أبي عبد الله أنه قال في تفسير «فانتشروا في الأرض....».

«أرأيت لو أن رجلاً دخل بيتاً وطينَّ عليه بابه ثم قال رزقي ينزل علي. فهل كان لينزل عليه رزقه؟».

http://kotob.has.it

في قوله تعالى:

ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك: ٦٧/١٥).

أمر قرآني، إلى الناس، بالمشي في مناكب الأرض (طرقها وفجاجها) لطلب المنافع والقفز من بؤس الواقع. لذلك يجب إلا يغيب القصد القرآني، من تفرُّدِ يَدِ الله، بالنسخ والتبديل في الآيات. فيقود ذلك إلى الخلط بين العبادات والعادات. فالآيات، التي تتحرك في حقل العبادات لتربية الإنسان. هي فوق طاقة المخلوقين. أما ما سواها من أمور الدنيا سواء ذكر أم لم يذكر في القرآن فهو ضمن حاجة الدنيا، وضمن حدود الإمكان الإنسان. وإلا كيف نستطيع قراءة التاريخ الإسلامي، والحضارة التي أتى بها ونشرها في الشرق والغرب؟ هل كانوا كفرة؟ أم هل تجاوزوا أمور دنياهم، ليعدلوا في العبادات والمصائر؟ أليس الأمر: باكتشاف المجهول. والأمر بالمشي في مناكب الأرض. دليلاً قرآنياً على أن القرآن لم يقف عند حدود إباحة النسخ الدنيوي بل أمر به، لأنه لم يُرد أن يبقى الإنسان قعيد القواقع المزمنة.

بل: أو ليس في تصرف عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو بلا شك أدرى من المؤلف بالناسخ والمنسوخ ـ ما يكفي للإقناع بأن نسخ ما تقدم، حتى المقرون بعضها ببعضٍ، استجابةً لحاجة الزمان دليل على أن الإسلام لم يوقف التطور والاجتهاد. فقط «منع قطع السارق في عام المجاعة وقال: اكفوهم ثم اقطعوهم.» و«قال لصاحب الحقل رُدَّ إلى شرحبيل ثيابه ـ وكان قد سلبها منه عندما ضبطه يقطف من سنابل حقله ليأكل ـ وأضاف: كان جائعاً فلم تطعمه. ومع أن القرآن يقول:

ـ ﴿. . مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا. .﴾ (المائدة: ٥/٣٢).

فقد أثر عن أبي ذر الغفاري، وهو من الصحابة الإجلاء ـ عجبت لمن عنده عيال وليس عنده مال. كيف لا يخرج إلى الناس بالسيف».

وختام القول: هو أنه لما كان النسخ هو التبدل والتداول. فيكون الشيء مكان الشيء في المعاملة والممارسة دون المحو والإلغاء. وبما أن ما تقدم من تصرفات الصحابة والفقهاء. واجتهاداتهم التي تجاوزت حتى النصوص، استجابة للظروف التي مرت بها المجتمعات. أدلة حاسمة، على أن النسخ الدنيوي بمعناه التطوري هو من أهم الأركان الاجتماعية التي أمرَ بها الإسلام. لذلك كان يحق له أن يحترمه «نولدكه» لا أن يراه سخرية وسخافة. ثم: أليس ما نزل على موسى هو كلام الله وأوامره؟ كذلك، أليست مواعظ المسيح، والأخلاقيات الفردية

http://kotob.has.it

والاجتماعية هي كلام الله وأوامره؟[1] فهل يمكن اعتبار نصائح المسيح ومبادئه. التي اختلفت اختلافاً جذرياً مع كلمات الناموس، دحضاً ورفضاً وإلغاءً؟ قبل إن نسمع جواباً من أحد: نطلب قراءة قول المسيح «لا تظنوا أني جئت لانقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لانقض. بل لأكمل. فإني الحقَّ أقول لكم. إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد ولا نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل»[2] (عذراً للتكرار وذلك كان لتعدد المناسبات).

ليس ثمة جواب معقول: سوى إن السابق من كلام تطورت أحكامه بالكلام اللاحق، ولكن بقيت تلاوته. هذا هو المبدأ الذي قام عليه النسخ في الآيات التعبدية.

٣ ــ طريقة النزول ــ التنزيل القرآني:

لسنا، ولا غيرنا، في حاجة إلى تتبع الآراء المختلفة حول كيفية نزول الآيات والسور: هل نزل جميع القرآن في ليلة القدر؟ أم هل نزل في رمضان؟ أم كان ابتداء النزول في رمضان ثم استمر منجماً، آياتٍ وسوراً حتى «أكمله الله»؟[3]. أم كان ــ كما قال الماوردي ــ في اللوح المحفوظ، فنجَّمته الحفظة على جبريل في عشرين يوماً فقام هو بتنجيمه على الرسول في أكثر من عشرين سنة؟

وليس مهماً ــ أن تكون بعض الآيات أو الكلمات أو الحروف سقطت من ذاكرات الحفظة. ذلك جمعيه، ليس مهماً تتبعه والتمسك بأحد اتجاهاته. لأن جميع تلك الأقوال افتراضية، ليس منها ما يعتمد على قرآن أو سنة. ولأنها على كثرة التعدد وكثرة المقولات ــ لم تُحدِ ثْ أي خلل اجتماعي أو تعبدي فما سقط من ذاكرة الناس ــ إن كان قد حصل ــ وما هجر من اللهجات القبلية المتعددة اكتفاءً بلهجة قريش. لم يكن له تأثير على المسيرة العبادية أو الأخلاقية فقد هدَف العمل العثماني إلى غايتَين:

أولاهما: توحيد اللهجة التي يجب أن يقرأ بها القرآن في كل مكان.

الثانية: توحيد كلمة الأمة.

لأن تعدد المصاحف، قد يولِّد في المستقبل تعدد الفئات والتعدد، بذاته، قد يولد العداء والتناحر. ومع أن الجمع الأول، أمر به الخليفة الأول. فإن علياً اعتكف في منزله بعد دفن النبي (ﷺ)، على جمع القرآن لأنه أقسم ألا يخرج من البيت

---

[1] الكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للآب الذي أرسلني (يوحنا ــ ٢٤/١٤)

[2] متى ــ ١٧/٥ ــ ١٨.

[3] المائدة ــ ٣/٥.

http://kotob.has.it

ولا يرتدي الثياب إلا لصلاة الجمعة، حتى ينتهي من جمع كتاب الله[1]. كما إن الخلفية الثاني عمر (ﷺ) وقف خطيباً بين الناس وقال: «من تلقي شيئاً من رسول الله فليأتنا به. ولكنه قتل قبل أن يكتمل تنفيذه لجمع القرآن ثانية[2]».

لقد كان عدد التابعين الذين جمعوا المصاحف كبيراً نذكر هنا بعضهم:

«عبد الله بن عباس» و«عبد الله بن عمر» و«عائشة زوجة النبي(ﷺ)» و«حفصة زوجة النبي (ﷺ)» و«أم سلمة زوجة النبي (ﷺ)» و«عبيد بن عمر الليثي» و«عطاء بن أبي رياح» و«عكرمة» و«مجاهد» و«سعيد بن جبير» و«الأسود بن يزيد بن علقمة» و«محمد بن أبى موسى شامي» و«حطان بن عبد الله الرياشي» و«صالح بن كيسان» و«طلحة بن مصرف» و«سليمان بن موسى الأعمش».

جميع تلك المصاحف، جرى إهمالها، بعد ظهور مصحف عثمان الذي وحد الأمة، عقيدةً وسياسةً. ووحَّد اللهجات القبلية المتعددة وساد أسمه في الأمصار «المصحف الإمام».

وقد رووا أن الناس وافقوا على اعتماده، كما وافقوا على حرق المجموعات الأخرى، تلافياً لما قد يحدث من اشتباه واختلاف.

فقد رووا عن علي (كرم الله وجهه) أنه قال: «رحم الله عثمان على ما فعله في المصاحف إذ لو لم يحرقها وكنت مكانه لفعلت هذا»

(ص ــ ١٢ ــ من كتاب المصاحف).

٤ ــ **التدوين. واختلاف القراءات:** تحت هذا العنوان كتب المؤلف ثلاث صفحات. ولكنها بمجملها دارت حول موضوعين:

أولهما: الآيات تليت مفرقة، ثم جمعت في سور بعد موت النبي (ﷺ). دون التقيد بزمان أو مكان نزولها. أما القول بأن وضع كلمة السورة، وتسميتها، وتوزيع الآيات عليها، كان وقفاً على النبي (ﷺ). فهو استدراك متأخر مرسل لا دليل عليه.

---

[1] جاء في ص ــ ١٠ ــ من كتاب المصاحف للسجستاني طبعة جديدة سنة ١٩٧٦: إن أبا بكر أرسل إليّ علي بعد أيام من بيعته قائلاً: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن قال: لا والله: إلا إني أقسمت ألاّ أرتدي رداءً قبل انتهائي من جمع القرآن إلا لصلاة الجمعة. ثم جاء إليه وبايعه وعاد.

[2] ص ــ ١٠ ــ من السجستاني

http://kotob.has.it

الثاني: تجريح حاقد بالنبي (ﷺ). ورفض لمصداقيته. ففي قصة عبد الله بن أبى السرح. وفي الإضافة على الآيات بعد تلاوتها. وفي اختراع قصة «توقيف التوزيع على النبي (ﷺ)».

ذلك: جمعيه. شكّل في نظر المؤلف مؤيدات أقواله. ففي كل ذلك نقول:

أ ــ توزيع الآيات:

مع أن الوضع الحالي للسور والآيات في جميع مصاحف الدنيا. مازال على حاله منذ أربعة عشر قرناً. ومع أن المسلمين في جميع الأصقاع، لا يفرقون كثيراً، وليسوا حريصين على معرفة فيما إذا كان التوزيع توقيفياً أم توفيقياً. فإننا، نبدّد شكوك المؤلف وظنونه بما يلي:

ــ عدنا إلى المراجع ذاتها، التي اجتزأ المؤلف من بعض بعضها. وما أسعفه على قول ما قال فوجدنا في «الإتقان ــ للسيوطي» الطبعة الرابعة سنة ١٩٧٨ ــ ص ــ ٨٠ ــ بالحرف ما يلي: «اجتمع الإجماع، واتفقت النصوص على أن ترتيب الآيات هو توقيفي. لا شبهة في ذلك.

أما الإجماع: فقد نقله كثيرون منهم: «الزركشي في البرهان» و«أبو جعفر بن الزبير ــ في مناسباته». وعبارة ابن الزبير مشهورة وهي: ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه وأمره صلى الله عليه وسلم. من غير خلاف في هذا بين المسلمين.

أما النصوص: فهي كثيرة منها حديث زيد قال: «كنا عند النبي (ﷺ) نؤلف القرآن من الرقاع..» ومنها ما أخرجه «أحمد» و«أبو داوود» و«الترمذي» «النسائي» و«ابن حبان» و«الحاكم».

عن ابن عباس قال: قلت لعثمان: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال ــ وهي من المثاني ــ وإلى براءة ــ وهي من المئين ــ فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينها سطر: بسم الله الرحمن الرحيم؟

فقال عثمان: كان رسول الله (ﷺ) تنزل عليه السورة ذات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها ــ كذا وكذا ــ وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة. وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً. فمن أجل ذلك قرنت بينها ولم أكتب سطر «بسم الله الرحمن الرحيم» ووضعتها في السبع الطوال» (انتهى)

http://kotob.has.it

وفي الصفحات ٨٠ ــ ٨١ ــ ٨٢ من الإتقان. «روى السيوطي أحاديث وشهادات عديدة، منها ما عاصر نزول القرآن ومنها ما عاصر جمعه وتصحيفه. اتفقت جمعيها على أن ترحيل الآيات إلى السور وتسمية السور، هو عمل موقوف على النبي (ﷺ)».

ثم: عدا عما تقدم من الإجماع والنصوص. هناك المنطق الذي يتعارض مع زعم المؤلف: فالاعتقاد الذي كان يملأ الصدور، لم ير في قيام النبي (ﷺ) بترحيل الآيات وتوزيعها على السور، دون التقيد بالزمان والمكان، تصرُّفاً غير طبيعي لأنه وحده النبي (ﷺ). ولأن عليه وحده ينزل الوحي بالسور والآيات. فهو أدرى وأحق من سواه، بالترتيب. كما إنه وحده، الذي أُمِر بنشره وإليه وحده أبلغت كيفية النشر.

ب ــ توزيع السور:

وفي وصف كل مجموع من الآيات «بسورة» وإعطاء كل سورة «اسمها» الوارد في القرآن. هو أيضاً، كان وقفاً على النبي (ﷺ) للأسباب ذاتها، التي قد مناها عن توزيع الآيات: (إجماعاً ، ونصوصاً ومنطقاً). الأمر: الذي ينفي عن الإسلام والمسلمين «قصة الاختراع» التي اتهمهم بها المؤلف. إذ لو لم تكن السور والآيات، من ترتيب النبي (ﷺ)، لحصل خلاف. ولكان الخلاف تطور إلى صدام. خاصة، وقد كان الرعيل الأول لا تأخذه في الدين لومة لائم. وكان يستهين بحياته دفاعاً عن كتاب الله ودينه. فالسكوت من جميع المسلمين ــ في جميع البلدان، على الترتيب القرآني الحالي، سوراً وآيات، يكفي لوحده أن يدحض اتهامات المؤلف.

ج ــ التجريح بمصداقية النبي: دوماً، تطغى «حرفية التربية» على أفكار المؤلف وتعابيره. فينسى أنه مؤرخ، ويطلق عبارات التجريح، على المقاتِل الإسلامية.

قلنا: له العذر إن لم يؤمن بنبوة محمد (ﷺ). ولكنه الملوم غير المعذور أبداً ــ وقد طرح نفسه باحثاً غوَّاصاً صادقاً في بطون التاريخ ــ أن يلغي مصداقيته في سرد الوقائع، مثلما وقعت. ليتحول إلى خصم فكري للكثير من أفكارها، ويحوِّل «سِفْرَه» التاريخي إلى ركامٍ من المجابهات والمواجهات.

وقصة عبد الله بن أبي السرح، هي أنه عندما كان يكتب للنبي (ﷺ) الآيات (١٢ ــ ١٣ ــ ١٤) من سورة المؤمنون رقم ٢٣:

ــ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

(المؤمنون:٢٣/١٢ ــ ١٣ ــ ١٤).

http://kotob.has.it

فلمَّا وصل الرسول في التلاوة إلى ـ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ قال عبد الله بن أبي السرح: «فتبارك الله أحسن الخالقين». فقال له النبي (ﷺ): اكتبها فهكذا نزلت.

ولكن، ثمة روايات كثيرة ذكروا بعضها أن «عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)» هو الناطق بهذه العبارة. وذكر بعضها أن القائل أيضاً كان «معاذ بن جبل».

وما كان ذلك من عمر أو معاذ إلا انفعالاً طبيعياً بقدرة الله وعجيب صنعه وبديع خَلْقِه، وهو ـ أي الانفعال ـ تجاوب بين السليقة العربية ـ اللسان العربي ـ وبين القرآن الذي نزل باللسان العربي. وكان في جملته من الاثنين استحساناً واستعظاماً لله.

أما عبد الله بن أبي السرح: فقد أعجب بنفسه عندما وافق قوله قول القرآن فادَّعى أنه يوحي إليه مثلما يوحي إلى محمد (ﷺ). وارتد عن الإسلام. فنزلت فيه الآية ـ ٩٣ ـ من سورة الأنعام:

ـ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ (الأنعام: ٦/٩٣).

على أن قصة (ابن أبي السرح) التي رفعها المؤلف فوق رأسه، ولوَّح بها بفرحة «ارخميدس، عندما قال وجدتها» تستدعي التوضيحات التالية:

ـ قلنا: إن كثيراً من المؤرخين نسبوا صدور هذه «الكلمة عن عمر وكثيراً منهم: رووا صدورها عن معاذ بن جبل. وإن الاثنين، والمؤرخين كافة، فسروا هذا التوافق بانفعال السليقة العربية مع لغة القرآن. وليس كما فسرها «ابن أبي السرح».

ـ بعد أن ارتد ابن أبي السرح عن الإسلام وهرب من الديار عاد مستغفراً نادماً، وتشفَّع له عثمان عند رسول الله (ﷺ). ولكن الرسول لم يرفض قبول توبته ولم يقبلها، بل قال بعد خروجه لمن كان في المجلس. أما كان فيكم من يقتله؟ قالوا: لو أومأت إلينا بعينك. فقال: لا ينبغي أن يكون لنبي (ﷺ) خائنة الأعين.

ـ ولكن عثمان منحه بركته حينما تولى الخلافة، كما يقول الشعراوي في تفسيره للآية ٩٣ ثم ولاه مصر، وكلَّفه ـ فيما بعد ـ بقيادة الجيش الإسلامي الذي افتتح إفريقيا.

http://kotob.has.it

ـ إن الذين، نسبوا إلى عمر النطق بعبارة «فتبارك الله احسن الخالقين» هم: «ابن أبي شيبة» و«عبد الله حميد» و«ابن المنذر». عن صالح أبي الخليل أن رسول الله (ﷺ) قال «والذي نفسي بيده إنها ختمت بالذي تكلمت به يا عمر»[1]. والذين شهدوا على أنها صدرت عن معاذ بن جبل هم: «ابن را هويه» و«ابن المنذر» و«ابن أبي حاتم» و«الطبراني في الأوسط» و«ابن مردويه».

كذلك: عن زيد بن ثابت قال:

«أملى عليَّ رسول الله (ﷺ)هذه الآية من سورة المؤمنون. (من ١٢ ــ ١٤) فقال معاذ بن جبل قبل أن تنتهي «فتبارك الله أحسن الخالقين» فَضَحِكَ رسول الله وقال: «هكذا ختمت».

تلك القصة: التي فرح بها المؤلف، واعتبرها سبباً للارتداد عن الإسلام. لو كانت قد صدرت عنه وما نسب إليه من أقوال. ولو أن الآية ٩٣ من سورة الأنعام نزلت فيه بسببها لما جاء إلى النبي (ﷺ)، نادماً على «الردة» طالباً السماح والمغفرة.

د ــ **نقد الأسلوب القرآني:** لقد نسي «نولدكه» أنه مؤرخ، عندما تحوَّل إلى خصمٍ فكري. وهنا، ينسى نفسه ثانية فيتحول إلى فقيه في اللغة العربية، قافزاً من فوق الجاحظ، وسيبيويه، وأبي الأسود الدؤلي، بل وحتى الأوائل الذين كانت اللغة، في طبائعهم، مثل الدماء في عروقهم. و«نولدكه» المستشرق الألماني. تفرَّس في الأسلوب اللغوي القرآني فوجد فيه كثيراً من العورات أورد بعضها وأورد مناقشته كالتالي:

قال: ــ ثمة تناقض كبير معيب بين الثنائية في سورة «الرحمان» والإقلاع عنها في سورة «الحاقة».

ــ إن الفاصلة والثنائية والسجع أدلة على العجز والنقص.

ففي ذلك نقول:

١ ــ ثنائية الرحمن:

ــ ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ **(الرحمن:٥٥/٤٦ ــ ٥٠).**

---

[1] السيوطي ــ في الدر المنثور ــ ١٢/١.

http://kotob.has.it

٢ ــ ثنائية الحاقة:

ــ ﴿وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ و﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة: ٦٩/١٦ ــ ١٧).

تلك هي الثنائية التي وجدها في الرحمن، وضاعت لديه في الحاقة، نعم: ولكننا لم نجد نحن أو سوانا ممن قرأ القرآن حتى الآن أي عيب أو نقص أو تناقض. فالتناقض، هو ورود الاختلاف في المعنى، بين قولين. واحدهم يختلف مع الآخر على معنى واحد. فكيف وجد التناقض؟ وأين هو المعنى المشترك بين آيتي الرحمن وآيتي الحاقة؟ ثم أين العيب، في الآيات الأربعة؟

ــ أما قول المؤلف بأن «الثنائية، والفاصلة، والسجع» هي عيوب في أسلوب القرآن. فهو قول، معيب في حد ذاته. لأنه وضع الفصحاء والبلغاء العرب، القدماء والمحدثين بين السبابة والإبهام من كفه المتين. فقد أجمع هؤلاء جميعاً على أن الأسلوب القرآني «معجز» إذ هو ــ كما قال الوليد بن المغيرة: «ليس سجع الكهان، ولا قوافي الشعراء بل هو معجز يعلو ولا يُعلى عليه، ويحطّم ما تحته».

وسواءً لدى اللغة العربية وأساليبها في الإيصال. أنال الأسلوب القرآني رضا المؤلف أم لم يحظ به. فذلك لن يغير شيئاً من الحقائق وهو أن فصَحاء اللغة وأمراءها، الذين يعتبر تجاوزهم تطاولاً غير كريم، أجمعوا ــ كما قلنا ــ على الإعجاز القرآني، مبنى ومعنى.

حتى الذين لم يؤمنوا بسماوية القرآن ونبوّة النبي (ﷺ)، وقفوا مبهورين تجاهه، عاجزين عن مضاهاته، ولو وجدوا عيباً أو نقضاً، مثلما وجد المؤلف، لما وفرّوا ذلك على النبي (ﷺ) والقرآن.

ــ وفي هامش الصفحة ٣٨ ألقى القبض على الآية ٨٧ ــ من سورة البقرة، لأنها أجرمت في حق اللغة العربية، إذ قالت في نهايتها ﴿وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ وكان يجب أن تقول «وفريقاً قتلتم»

وقال أيضاً: «ذلك الخلل اللغوي، نجم عن التمسك بالفاصلة. وكان على محمد (ﷺ) أن يقول: «ففريقاً كذبتم وفريقاً قتلتم»

الآية هي: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: ٢/٨٧).

http://kotob.has.it

فالعيب ليس في التركيب اللغوي للآية. ولكن في فهم المؤلف لها. فالآية: خطاب لليهود، كأنه يقول لهم: أكلما جاءكم رسول من رسلي بغير ما تهوى نفوسكم كذبتم من لا تستطيعون قتله، وقتلتم من تستطيعون مثل يحيى، وزكريا.

فالخطاب، إخباري، وإن ظهر بمظهر التقرير. ولقد أرادت الآية أن تعلن أموراً عديدة منها:

- إن الله أرسل كثيراً من الرسل إلى بني إسرائيل، وهم ــ على خطأ في تفاخرهم بأنهم أكثر الأمم أنبياء. لأن كثرة الأنبياء في أمة دليل، لاشك فيه، على كثرة فساد تلك الأمة، لأن الرسل يجيئون لإنقاذ الناس من الفساد والشقاء[1].
- لقد قتلوا كثيراً، وكذبوا من لم يستطيعوا قتله. على مدى حياتهم من عهد موسى. فهم: إذ جلبوا رأس يوحنا إلى الراقصة سالومي. وعجزوا عن قتل المسيح «الذي شبه لهم». وعجزوا عن قتل محمد (ﷺ).
- فيهود زمن الدعوة الذين توجهت إليهم الآية، سلكوا مسلك أسلافهم. من حيث التكذيب والرضا بما فعله الأسلاف ومحاولاتهم الفاشلة لقتل باقي الأنبياء ومنهم النبي محمد (ﷺ).

٢ ــ يعتمد على «الترمذي» و«التبريزي» ص ــ ٣٩ ــ الهامش.

ليقسم قراء القرآن إلى ثلاث فئات، كل منها، عللت ظاهرة الفواصل القرآنية، تعليلاً لغوياً خاصاً.

- ففئة قالت: الفاصلة مستخدمة في القرآن بأسره.
- وفئة قالت: الفاصلة هي للدقة والمساواة.
- وفئة: قالت بجمعها. ولكن الغالبية ــ خلافاً للفئات الثلاثة ــ قالت: أماكن الوقف القرآني تأتي دوماً وفقاً للتركيب النحوي، حيث تختفي الفاصلة، حينما لا يتفق التقسيم الخطابي مع الواقع. (انتهى قول المؤلف).

أما نحن فقد قلنا ونكرر: إن القرآن: قرئ ويقرأ كما فيه. وقد ظلَّ، كما تلاه الرسول.

أما النحو الذي قال: إن الأغلبية تعاملت مع القرآن على ضوء، قوانينه فقد كان تجميعاً متأخراً، لما كانت قد رسخت عليه السليقة العربية.

---

[1] جاء بعد موسى وهارون: موكب طويل من الرسل، نعد منهم:«يوشع» و«شمعون» و«داود» و«سليمان» و«شعيب» و«أرمياء» و«حزقيل» و«إلياس» و«إليسع» و«يونس» و«زكريا» و«يحيى»....

http://kotob.has.it

فأبو الأسود الدؤلي الذي عاش بين (١ ــ ٦٩ ــ هـ) كان أول من أطَّر وصنَّف تلك السليقة ضمن قواعد وضعها بين أيدي الأجيال القادمة التي يمكن أن تختلط بها أقوام يفتقرون إلى السليقة. فيعتمدون على قواعدها. لذلك: فهم الأقحاح من العرب، جميع ما عَنَتْه لغة القرآن.[1] وقد قرئ، جميعاً، بما فيه آية البقرة وسواها ــ مثلما ــ قرأها المؤلف، والترمذي والتبريزي، قبلهم بزمن بعيد، من قبَلِ من يتفوقون عليهم تفوقاً بالغاً. في اللغة والبلاغة والبيان.

٥ ــ **الأحرف التي نزل بها القرآن:** الحرف، بالمعنى القرآني، هو اللهجة، إذ اللهجة أحد «معانيه» وكان يطلق عليها لفظ «لغة» لاختلافها عن باقي اللهجات. وقد أثر عن النبي (ﷺ) قوله: «نزل القرآن على سبعة أحرف كلها شاف كاف» فأراد بالحرف (اللهجة ــ اللغة). وقال أبو عبد وأبو العباس:

نزل على سبع لغات من لغات العرب. وهي متفرقة في القرآن «فبعضه بلغة قريش» و«بعضه بلغة اليمن» و«بعضه بلغة هوازن» و«بعضه بلغة هذيل» وهكذا سائر اللغات. (لسان العرب) وقد روى البخاري في «صحيحه» عن عروة بن الزبير، أن «المسوِّر بن مخرمة وعبد الرحمن بن عبد القاري» حدثاه: «أنهما سمعا الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقول: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة «الفرقان» في حياة رسول (ﷺ) فاستمعت إلى قراءته فإذا هو يقرأ عن حروفٍ كثيرة لم يقرئنيها رسول الله (ﷺ) فكدت أساوره في الصلاة حتى سلَّم فلببته بردائه فقلت: من أقرأك هذه السورة؟ التي سمعتك تقرأ؟ فقال: أقرأنيها رسول الله. فقلت: كذبت. فإنه أقرأنيها على غير ما قرأت. ثم انطلقت به أقوده إلى الرسول (ﷺ): فقال: أرسله: أقرأ يا هشام فقرأ السورة كما، سمعت. فقال (ﷺ) كذلك أنزلت. ثم قال: أقرأ يا عمر: فقرأت القراءة التي أقراني فقال: وكذلك أُنزلت، إن هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما يتسَّر منه». (كذلك: مسلم ــ ج ــ ٦ ص ــ ١٨٥ والمسند ج ــ ٥ ص ــ ٢٤ والطبري ج ــ ١ ــ ص ١٠).

وفي الإتقان ص ــ ٦٠ ــ قال السيوطي: وهو مرجع اعتمد عليه المؤلف كثيراً إن الحديث الذي ورد عن النبي (ﷺ) «نزل القرآن على سبعة أحرف» رواه جمع من الصحابة منهم: «أبى بن كعب» و«أنس» و«حذيفة بن اليمان» و«زيد بن أرقم» و«سمرة بن جندب» و«سلمان بن صرد» و«ابن عباس»

---

[1] ليس في مقدور أحد أن يشكك بسلامة لغة المعلقات وسواها من شعر وخطب ذلك الزمان.

http://kotob.has.it

و«ابن مسعود» و«عبد الرحمن بن عوف» و«عثمان بن عفان» و«عمر بن الخطاب» و«عمرو حكيم» و«أبي بكرة» و«أبي جهم» و«أبي سعيد الخدري» و«أبي طلحة الأنصاري» و«أبي هريرة» و«أبي أيوب».

وفي الحديث عن عبد الله بن عباس أن النبي (ﷺ) قال:

«أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فمازالت استزيده، ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف» (ص ٦١ ــ من الإتقان ــ عن النسائي).

ويقول الطبري: في ج ــ ١ ــ من التفسير ــ ص ٤٦ ــ ٤٧: «الأحرف السبعة هي سبع لغات أو سبعة ألسن من بين ألسن العرب التي يعجز عن إحصائها»

وفي ص ــ ٥٧ ــ ٥٨ من الجزء التفسير ذاته يقول:

«وإن الأحرف السبعة التي أنزل بها القرآن هي لغات سبع. في حرف واحد وكلمة واحدة، باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني كقول القائل هلم، أقبل، وتعال إلي، وغير ذلك مما تختلف فيه الألفاظ، ولا تختلف المعاني».

واستدرك الطبري مقرراً: «إننا لم ندَّعِ أن ذلك موجود اليوم وإنما أُخْبِرنا»: أن معنى قول النبي (ﷺ) «أنزل القرآن على سبعة أحرف.. على نحو ما جاءت به الأخبار التي تقدم ذكرنا لها. وإن القراءة على حرف واحد دون الألسنة الأخرى هو باختيار الأمة ذلك»[1]

تلك: هي ما تعنيه كلمة «الحروف السبعة» في اللغة، وفي القرآن. فالقرآن، أثناء فترة الرسالة، كان يتلى على وفود القبائل بلغاتهم ولكنه جمع في عهد عثمان على لغة قريش لأنه ــ كما قال عثمان ــ نزل بلغتها. أما الرهط الذين كلفهم عثمان بتصحيفه، فهم: «زيد بن ثابت» و«سعيد بن العاص» و«عبد الله بن الزبير» و«عبد الرحمن بن الحارث بن هشام»[2] ومازال حتى الآن يتلى باللسان الذي جمع عليه. فما بال المؤلف يقول: «إن إيضاح معاني الحروف مضحك ومتناقض وذلك دليل على الجهل المخزي».

---

[1] عاش الطبري (ابن جرير) بين (٢٢٤ ــ ٣١٠ ــ هـ).

[2] قال عثمان: إذا اختلفتم فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم وفي الجزء الثالث من المبرد ــ الجزء الثالث: «إخبار سنة ثلاثين»: إن عمل زيد كان مستقلاً عن مصحف «حفصة بنت عمر» فأرسل عثمان إلى حفصة يسألها المصحف الذي لديها مقسماً لها أن يعيده فأرسلته وعند المطابقة على مصحف زيد لم يجد فرقاً فأعاد إليها المصحف.

http://kotob.has.it

إن الله والفكر الحر ــ إذ يسامحان من يرتكب الغلط خطأً ما فهما لا يسامحان من يرتكبه عامداً، وحاقداً.

فإن علمنا: أن قرآن الجمع العثماني ــ يقرأه مسلمو الكون دون سواه، وهو بحرف قريش. فإن العودة بهم إلى القراءات المتعددة التي كانت تتصاعد قبل عثمان في القبائل والأمصار. لا يهدف إلى تحقيق سبقٍ بحثي، بل إلى نفخ الرماد عن الجمر، وإشعال نيران الفتن، حول حقيقة الكتاب الذي يدين به المسلمون. وذلك بالإصرار على أن «لهجة القرآن الحالية ولغته» اعتدت على ستة لغات أخرى وطردتها من الساحة.

هذا العطف «اللدود» الذي يهب علينا من مستشرق، لا يقيم وزناً «للُّغة» ولا «للأحداث الثابتة» ولا «للواقع المعاش المستمر على مدى أربعة عشر قرناً دون تعديل حرف واحد». لسنا ملومين، إن شككنا في نواياه. فهو «مهما بذل من الجهود، وسوَّد الصفحات» لن يستطيع إقناع أي مسلم بترك القرآن، سعياً وراء قرآن يرسمه «نولدكه». وهو إذ يقول في هامش الصفحة ٥٢: «إن محمداً (ﷺ) فرض صلاتين في اليوم ثم وسعها إلى الوسطى، وفرض الصلوات فيما بعد بتأثير «كاه» الفارسية. يخطئ كثيراً، ويبدو فهمه للقرآن فهماً تعيساً: ففي الآية (البقرة:٢/٢٣٨): ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾.

إن كلمة «الصلوات» هي صيغة جمع وأوَّلُ جمع عددي هو ثلاثة: فإن وضعت الوسطى بينهما، بقيت اثنتانً، وهما بصيغة مثنى، لذلك وجب اللجوء إلى أول جمع بعد الثلاثة، وهو: الخمسة فإن اعتبرت الوسطى هي العصر، كانت وسطاً بين «المغرب والعشاء» وبين «الفجر والظهر».

وإن اعتبرت «الفجر هي الوسطى» كانت وسطاً بين «الظهر والعصر» وبين «المغرب والعشاء». وفي الآية (الإسراء:١٧/٧٨): ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ فدلوك الشمس زوالها: و«صلاة الزوال إلى غسق الليل، هي صلاة الظهر والعصر» ،«أما صلاة غسق الليل فهي صلاة المغرب والعشاء» و«قرآن الفجر» أي صلاة الفجر التي يجهر فيها بقراءة القرآن.

ثم: هناك الحديث الصحيح. أن النبي (ﷺ) صلى الأوقات الخمسة في مواعيدها وقال صلوا كما تروني أصلي، وحجوا كما تروني أحج. فسار المسلمون على هذا النهج أثناء حياته، ومن بعد مماته حتى الآن.

http://kotob.has.it

وعمل محمد (ﷺ) ليس بدعاً بين الرسالات. فالمسيح علم أتباعه الصلاة التي لا يزالون يكررونها حتى الآن بالعبادات التي صدرت عن المسيح عليه والسلام:

ـ «أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك، ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض، خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن للمذنبين إلينا ولا تدخلنا في تجربة ونجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين» (**متى ـ ٩/٦ ـ حتى ١٢**).

تلك هي ما فهمه العرب من آيات القرآن. وإنه لمن العسير، بل من المستحيل إن يفهم المستشرقون أسرار اللغة العربية وقوانينها أكثر من أبنائها الأوائل.

٦ ـ الإعجاز:

ـ كنا تحدثنا ـ من قبل ـ عن المعنى اللغوي للإعجاز، وفرّقنا بين «المعجزات المبصرة» وبين «المعجزات والفكرية التربوية».

ـ وتحدثنا عن تبشير المسيح بـ «الفارقليط» ـ «الباركلتبوس» الذي سوف يبقى مع الإنسان حتى آخر الزمان. أي: هذا البقاء الأبدي هو للأفكار والنصائح والتعاليم وليس للجسد الذي يتحول إلى تراب بعد مغادرة الروح.

ـ بقي أن تقدم لمحة عن نواحي الإعجاز القرآني. وهي مما أشبعه المؤلفون والمفسرون بحثاً واستقراءً وإحصاءً. ونحن هنا: لولا استخفاف هذا المستشرق بالقرآن «معنى ومبنى» وتعامله معه، على أنه واحد من الكتب البشرية التي استطاع الزمن سابقاً ويستطيع في كل حين أن يأتي بمثله، أو بما يتفوق عليه. في رؤية الحاجات البشرية والأمراض الاجتماعية والوجد الإلهي، وأن يصنع الدواء الفكري الناجع لأي مرض. لولا ذلك كله، لما استدعينا، عديد المصادر، وطلبنا منها، أن تمدَّنا بما وجدته في القرآن مما اعجز الإنسان. والذي سوف يبقى على عرش التحدي حتى آخر الزمان. لأننا واثقون: أن ذلك الاستهتار، ناجم عن ضحالة المعرفة بغرائب القرآن وعجائبه. والتي لا تزال حتى الآن مالكة للأبصار والبصائر.

قال السيوطي في الإتقان: «صَنَّف» الإعجاز «تصنيفاً» منفرداً كثير من الخلائق منهم: «الخطابي» و«الرازي» و«ابن سراقة» و«القاضي الباقلاّني» و«ابن العربي» الذي لم يصنف مثل كتابه.

http://kotob.has.it

فالمعجزة: أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالمً من المعارضة. وهي: إما حسية، وإما عقلية.

فأكثر المعجزات التي ظهرت لبني إسرائيل كانت حسية، لبدائيتهم وقلة بصيرتهم. أما المعجزات التي ظهرت في هذه الأمة فقد كانت ــ ومازالت ــ عقلية لأن الفهم البشري في حينها كان قد بلغ درجة علياً.

لذلك بقيت آيات القرآن وسوره، بما تضمنه من العلم والمعرفة إلى آخر الزمان. وقد أثر عن النبي (ﷺ) قوله: «ما من الأنبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أعطيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً..» (البخاري).

قيل: إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض عصورهم فلم يشاهدها إلا من حضرها أما معجزة القرآن، من خرقه للعادة في الأسلوب والبلاغة وتعدد المعاني في اللفظ الواحد والإخبار بالمغيبات مستمرة حتى آخر الزمان فما يقرأ في القرآن ــ مثلاً ــ أيَّةُ آيةً علمية، إلا أيدتها وبينت دقتها القوانين الحديثة، لأنها تدور حول القوانين الكونية. التي أقام الله الكون عليها، والتي يهدي إلى بعضها، من يشاء من العلماء.

وقيل أيضاً: معجزات الأنبياء السابقين: لم تنقرض بانقراض عصورهم. إلا لأنها جاءت حسية تشاهد بالأبصار لذلك وصفت «بأنها مبصرة».

أما ما جاء في القرآن، فإدراكه بالبصيرة. وهذا ما يوفِّر له البقاء وتجاوز الزمن الذي نزل فيه. (**الإتقان ــ ص ــ ١٤٩**).

فالإعجاز هو التحدي الأبدي الذي كتب له صحبة الزمان مهما امتد وتغيرت ظروفه وهو الذي منحته عناية الله امتداداً في المستقبل إلى ما شاء الله.

يقال: إن أول من أنكر وتنكر من المسلمين للإعجاز. هو: أبو الحسين، أحمد بن محمد بن اسحق الراوندي (نسبةً إلى راوند في أصفهان) مات سنة ٢٩٨هـ. وهو من أصل يهودي ثم أسلم فكان اليهود يقولون للمسلمين سوف يفسد عليكم القرآن، مثلما أفسد علينا التوراة.

وضع كتاباً سمَّاه «الدَّامغ للقرآن» نفى فيه الإعجاز وقال: إن كلام أكثم بن صيفي أحسن من «إنا أعطيناك الكوثر» كما تحدث عن اللحن اللغوي في القرآن

http://kotob.has.it

وطعن في نبوة محمد (ﷺ) بكتابٍ له سماه «الزمرد». فردَّ شيخ المعتزلة الجبائي واتهم مؤلف «الدامغ» و«الزمرد» بالجهل والسفه والفساد والكذب والافتراء[1]

وكان أبو اسحق إبراهيم بن سياد بن هانئ اللقب «بالنظَّام الذي مات في سنة ٢٣١ قد عاد بالإعجاز إلى الصرفة: أي إن الله هو الذي أعجز بني الإنسان أن يأتوا بمثل القرآن وصرفهم عنه. لقب بالنظام لأنه كان ينظم الكلام[2]

لذلك كله: ومن أجل تقريب المسافة، ولوضع النقاط على الحروف. ونَضَعُ بين يدي القارئ «نبذاً» من أنواع الإعجاز التي لا تزال متحدية، شامخة التحدي. لأي عقل، عالماً كان أم جاهلاً، إنسياً كان أم جنياً. رجلاً أم امرأة، تحدياً شاملاً لما يخطر وما لا يخطر على البال.

إذ: لو كان التحدي والإعجاز مقصوراً على بلاغة العبارة العربية لما تعدَّى العرب (الجاهليين والمخضرمين واللاحقين) ولكنَّ تفوُّقه وهيمنته، كانا وما زالا بالقواعد الأخلاقية والتشريعية والأحوال الشخصية والرؤية الغيبية لما مضى من أول الخلق حتى يوم القيامة.. والوصف الدقيق المجهري الشامل لمراحل الخلق منذ «الماء المهين» حتى ما بعد الموت. وفي ذلك الشمول المعرفي لجميع صور الوجود والموجودات من بشر وحيوان وشجر وحجر.

ومما زاد انبهاراً بذلك الإعجاز، أن تلك المواهب العظمى تجمعت في يتيم أمي عاش في بيئة يابسة العادات من «غزو ونهب وحمية قبلية وعائلية» ومن «وأد البنات خوف العار» و«قتل الأبناء خوف الإملاق» و«من عبادة الحيوانات والنجوم والأشجار والأحجار» لقد توسَّع العلاَّمة «محمد بن حسن الطباطبائي» في تعداد وجوه الإعجاز. وشرحها منذ أن وصل إلى شرح الآيتين ٢٥ ــ ٢٦ من سورة البقرة. فخصص لهذا البحث، من المجلد الأول من الميزان في تفسير القرآن الصفحات من ٥٩ ــ حتى ٩٠.

ثم في الكتاب الذي وضعه الدكتور حميد النجدي إحصاء وتعداد لبعض نواحي الإعجاز البلاغي والعبادي امتد على مدى مئتين وخمسين صفحة. كذلك الأديبة «فاديا عمر المقطرن» عددت في أكثر من خمسين صفحة بعض نواحي الإعجاز تحت العنوان الذي اتخذه الكتاب وهو: «لكنَّ أكثرهم للحق كارهون».

---

(١) الجبائي: أبو علي: محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجُبَّائي نسبةً إلى قرية «جُبِّي» إليه تنسب الطائفة «الجبِّية في الاعتزال» رد على ابن الراوندي فأحسن الرد. توفي ودفن في مسقط رأسه. عاش بين ٢٣٥ ــ ٣١٣.

(٢) قال تلميذه الجاحظ: وكان الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له فإن كان الأمر كذلك فهو النظَّام.

http://kotob.has.it

وهناك الكثير من المؤلفين والمؤرخين وأرباب البحث، وضعوا المؤلفات ودبجوا المحاضرات وعقدوا الندوات في مواجهة «الهجوم المستمر على الإسلام» نبياً وكتاباً وقواعد فكرية واجتماعية وأخلاقية. اخترت منها، بعض بعضها، الذي تحدثت فيه عن الإعجاز القرآني في جميع النواحي.

غير أني قبل الاسترسال في تعداد بعض صور الإعجاز القرآني سوف أتحدث عن تلك الشخصية الاستثنائية في تاريخ البشر وهي شخصية النبي «محمد بن عبد الله ــ القرشي ــ الهاشمي».

النبي محمد (ﷺ): ربِيَّ في حِجْر عمه أبي طالب[1] في تلك المنطقة الصحراوية اليابسة من وسائل، الحياة الكريمة، والمعرفة القديمة. بين أعراب عبدوا الأصنام.. وامتلأوا بالحمية، من غزوٍ وثأر ووأدٍ وقتل[2].

هذا الذي سموه صادقاً: «الصادق». لأنه لم يكذب قط.. ولأنهم كانوا يرون في الكذب حسن التخلص.

هذا الذي سموه أميناً «الأمين». لأنه لم يخن أمانة، في حين أن الوفاء بها كان في حدود المصلحة.

ذلك:

الطبع الرزين، الذي امتلك شخصيته، فوجهها بكليتها إلى التفكير في الأسباب التي جعلت الناس يعبدون الحجارة، والأشجار والحيوانات، ويمارسون عادات بعيدة عن الحق والخلق الكريم. فقصة ذلك الأعرابي، الذي رأى ثعلباً يبول على الصنم فقال:

أرب يبول الثعلبان براسه لقد ذَلَّ من بالت عليه الثعالب

وقصة بجيلة التي كان صنمها من التمر، فأكلته عندما جاعت. وغيرها الكثير من قصص العادات والعبادات، كانت روائحها تنتشر بين الناس ولكنها عجزت عن تغيير عقلية الناس. في تلك الأصقاع اليابسة وبين تلك الأشواك الأخلاقية نشأ صاحب الدعوة إنه بنشأته وطباعه الاستثنائية كان المعجزة الإسلامية الأولى.

ولعل الغربيين لا يقبلون شهادة العربي، في النبي (ﷺ)، لأنها ــ كما يقولون ــ مجروحة بالهوى الديني والقومي.

---

[1] الحجر ــ تعني التربية والرعاية

[2] عبر أحد شعرائهم عن الحمية فقال:

http://kotob.has.it

هذا واقع لا جدال فيه. ولكن ثمة واقع آخر لا جدال فيه. وهو أن العربي لا يقبل شهادة الغربي بمحمد العربي لأنها مجروحة بالفكر الاستشراقي اللدود والحقد التاريخي العميق.

لذلك كان لابد من العودة إلى الوقائع، التي تجتاز حواجز الانحياز والعواطف الضيقة. وفيما يلي نقاط عديدة تتفق وقائعها التاريخية مع المنطق الحيادي السليم.

أ ــ لقد أفرزت الجزيرة العربية موجات بشرية هاجرت منها واستقرت في وادي الرافدين وبلاد الشام. منذ ما قبل الأنبياء الثلاثة بزمن بعيد. ومنذ ثلاثينات القرن الثاني قبل الميلاد تعمقت فيها لغة جديدة اختلفت لهجاتها باختلاف القبائل[1] ثم ما لبثت أن تغلبت لهجة قريش لأن وفود القبائل كانت تأتي إلى مكة في كل عام، فانصهرت اللهجات في لهجة قريش إلا القليل منها. وكان سبب الوفود السنوية إلى مكة في كل عام، هو أن مكة كانت تحتضن آلهة تلك القبائل.

ب ــ إن شخصية محمد بن عبد الله (ﷺ) التي ظهرت في أواخر القرن السادس الميلادي. (ولد في سنة ٥٧٠ ــ م) مختلفة تمام الاختلاف عن شخصيات ذلك الزمن. فكان الالتزام الأخلاقي من صدق وأمانة ومحبة للناس، وعطف على الفقراء.. وتنديد بالأغنياء وخاصة الذين يستغلون حاجة الفقير وضعفه ــ من أهم صفات تلك الشخصية الاستثنائية.

لقد انقطع إلى التفكير العميق، في الوجود والموجودات وفي القوة التي أوجدت ذلك جميعه. فكانت خلواته التعبدية الصامتة، في غار حراء يعرفها جميع القرشيين.

ج ــ قال «غوستاف لوبون» في كتابه «حضارة العرب» (في الصفحات ٤٨ ــ ٩٥ ــ ٩٩ ــ ١٠٠) ترجمة زعيتر: محمد (ﷺ) هو الذي وحد العرب

---

[1] **الكنعانيون:** هم شعب سياحي. هاجر من الجزيرة واستوطن فلسطين وفينيقية وسورية في الألف الثالثة قبل الميلاد. **والآشوريون** هم شعب سامي ملك ما بين النهرين منذ القرن ١٨ ق.م ومن أشهر ملوكهم «أشور» الذي ملك بين ١٣٦٥ ــ ١٣٣٠ ق.م واشور بانبيال ملك بين ٦٦٨ ــ ٦٢٩ ق.م وشلما نصَّر. وسرجون وسنحاريب والأكاديون الذين استوطنوا ما بين النهرين وانشأ ملكهم سرجون الأول إمبراطورية كبيرة في سنة ٢٢٣٥ ق.م دامت قرنين من الزمن وقد حلوا محل السومريين الإيرانيين واستولوا على حقوقهم.

http://kotob.has.it

برسالة الإسلام معتمداً على ما كان شائعاً، بينهم من أن جدهم إبراهيم هو الذي بنى الكعبة ووضع قواعد الحج. فكان فيها عند قيام الدعوة ٣٦٠ صنماً كل صنم يخص قبيلة وكانت كل قبيلة تحج مرة في كل عام لتقديم فروض العبادة إلى صنمها. فكان في ذلك: تميز لهجة قريش واستيعابها لهجات القبائل. وتوحيد العبادات، بعبادة الآلة الواحد. (انتهى الاقتباس)

لقد تكاملت شخصيَّتُهُ القيادية وامتلأت بمكارم الأخلاق قبل النبوة، حتى إذا استوعب بفهم عميق حاجة العرب إلى الوحدة السياسية وأدرك أنها لن تتحقق قبل توحيد العقيدة، وصَهْرِ ذلك التشتت العقائدي في عقيدة واحدة وفكر واحد استجاب الكثيرون للدعوة. فالقيادة لا تسلمَّ زمامها إلا للاستثنائيين من أبناء البشر. وظل يمتلك عناصر هذه الاستثنائية طول حياته.

من البديهي: أن التركيب الأخلاقي والاستثنائية القيادية التي ظهرت فيه منذ أواخر العقد الأول من العمر.. لم يكن له يد في تكوينها. وسواء لَحَظَها المؤلف أم لا. وسواء عاد بها إلى الطبيعة أم سواها. فقد أدرك محمد (ﷺ) هذه الاستثنائية في شخصه، فعاد بها إلى الله القدير الذي يعطي ويمنع ما يشاء عمن يشاء.

د ــ ونيتشه، الفيلسوف الألماني[1] رمز إلى شخصية محمد (ﷺ) وحقيقته العظمى بالصحراء التي يستحيل الاستيلاء عليها. فقال: «إن الصحراء تتسع وتمتد فويل لمن يطمح إلى الاستيلاء على الصحراء».

«أراني ماثلاً أمام الصحراء ولكنني جدُّ بعيد عنها».

«ارتفع يا مظهر الجلال ولتهَّب مرَّة أخرى نسمة الفضيلة».

«يا ليت أسد الصحراء يزأر أمام غادات الصحراء فزئير الفضيلة يا بنات الصحراء أقوى ما ينبه أوربا ويحفز بها إلى النهوض».

«هاأنذا ابن أوربا لا يسعني إلا الخشوع والانتباه لدويِّ هذه الآيات البينات وقد توكلت على الله. (اقتباس من الصفحات: ٣٣٠ ــ ٣٣٢ ــ ٤٣٤ ــ ٤٥١ من «هكذا تكلم زرداشت» ترجمة فيلكس فارس).

---

[1] عاش بين ١٨٤٢ و١٩٠٠ م فيلسوف ألماني أخذ بمذهب التطور وقال: إن الإنسان الأعلى، هو هدف يجب الوصول إليه وهو من مؤسس «العرقية الجرمايتة» عنوان مذهبه «إدارة القوة» وقد وضع كتاباً بهذا العنوان.

http://kotob.has.it

لقد كرر «نيتشة» كلمة أسد الصحراء، وكلمة حي على الصلاة. وكان مقتنعاً بأن أوربا لن تنهض إلا بزئير الفضيلة «الذي ينبعث من أسد الصحراء. فعند مجيئه يقترب زمان الأبناء ــ ص ٣٥١ ــ وفي المقدمة أكد المترجم: على أن «ريتنجر» الأستاذ في جامعة فيينا، أكد له صِحَّة ترجمته لكلمة «صلاة» بـ «حي على الصلاة» أي: إن كلمة «صلاة» في النشيد تعني «حي على الصلاة» وكلمة «أسد الصحراء» تعني «محمداً».

ه ــ والفيلسوف الفرنسي ــ «إيفين دينييه» الذي أسلم ووضع كتاباً عنوانه محمد رسول الله (ﷺ) (ترجمه عبد الحليم محمود) فرَّق فيه بين «القرآن ــ كمعجزات باقية بقاء الزمن» وبين «معاجز السابقين التي سماها «معاجز وقتية ذهبت بذهاب زمنها». في حين أن معجزة القرآن تبقى شامخة أمام كل قارئ في أي زمان وفي أي مكان ثم غيَّر اسمه إلى «ناصر الدين».

و ــ كذلك فعل المستشرق اليهودي «لينولد فايس» إذ غيَّر اسمه إلى «محمد» بعد أن أعلن إسلامه ووضع عن الإسلام كتباً عديدة.

فالإعجاز: بدأ قبل القرآن، بل بدأ قبل الإسلام. ظهر في المواهب التي أغدقها الله على شخصية محمد (ﷺ) تهيئة لها، من أجل حمل الرسالة الإلهية القادمة.

وفي أحُد، وحنين: صَمَدَ إيمانه، فلم يتزعزع. كسرت رباعيته، ومشُبَّح حاجبه، وقتل «أسد الله ــ حمزة» وأحاط به المشركون، بعد أن فر الجيش، ولم يبق معه غير عدد من أقربائه لا يتجاوز عدد أصابع الكفين. «ومع ذلك ــ ظل صامد العقيدة وبعد أن انكشف عنه الضُرّ في» «حنين» نزلت الآية ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ **(التوبة: ٩/٢٥)**

لقد ظل قدوة، حتى قَبَضَهُ الله إليه: فذكر ذلك في قول الله بالقرآن مخاطباً الناس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ **(الأحزاب: ٣٣/٢١)**.

ومع ذلك فقد نزلت الآيات المؤكدة على أن جميع الأنبياء والمرسلين إلى البشر هم بشر وليسوا ملائكة. فكرر تلاوتها عليهم، وماثلهم في الطعام والشراب واللباس والزوج والولد. مؤكداً على أن الله خصَّهُ بأهلية روحانية قادرة «على تلقيِّ الرسالة» و«نشرها بين الناس».

http://kotob.has.it

ـ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً..﴾ (الأعراف:٧/١٥٨).

ـ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى:٤٢/٥٢).

فالله ـ مثلما جعل الإيمان بالقرآن، مصدر نور لهداية الإنسان. وصف النبي بقوله «وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم». ثم عرَّف «الصراط المستقيم» في الآية التالية بقوله:

ـ ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ (الشورى:٤٢/٥٢).

أما ما سوى الوحي. فالرسل والأنبياء مثل غيرهم من الناس. وأُمِروا أن يعلنوا إلى الناس هذه الحقيقة كيلا تختلط عليهم الأمور: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ (فصلت:٤١/٦).

ورداً على قول القائلين: «نحن أبناء الله». «نحن أحباؤه».

قالت الآية ﴿.. قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (المائدة:٥/١٨)

لقد كان محمد (ﷺ)، يؤمن أشد الإيمان:

ـ بأن دعوته سوف تجتاز الجزيرة إلى أصقاع الدنيا كافة.

ـ وأن القرآن هو دستور الدعوة.

ـ وأن العرب الذين نزل القرآن بلغتهم سوف يكونون أجدر من غيرهم بحمل القرآن إلى الأمم. لذلك أكد على اللغة العربية فجعلها واحدة من أواصر النسب إذ قال: «ليست العربية بأب وأم ، العربية باللسان، فمن تكلم العربية هو عربي». لذلك ـ من أجل الإسلام ـ تعلم العربية خلق كثير ليسوا ذوي أصول عربية فألَّفوا العديد من المؤلفات بهذه اللغة، وهم من الروم أو الفرس أو القبط أو الزنج أمثال: «البخاري» و«ابن سينا» و«الفارابي» و«ابن رشد» و«ابن خلدون» و«الرازي» و«البيروني» و«ابن عربي» و«سيبويه» و«الخوارزمي» و«الحلاج» وغيرهم.

محمد (ﷺ): كان بشخصه أعجوبة، بل كان عدداً من المعاجز: في السلوك والتفكير والعقل والذكاء. ومع أن تلك الشخصية منحتها العناية عدداً من أنواع الإعجاز. فإن الإعجاز الأكبر، كان في القرآن. نعم: كلاهما من الله: شخصية محمد (ﷺ) كانت من إبداعات الله. والكتاب وحيه. ولكن محمداً (ﷺ) مات، في حين أن القرآن باق على الزمان.

http://kotob.has.it

ـ ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٤/١٤٤).

لقد كنا تحدثنا عن الإعجاز البياني. وترددنا في الحديث عن نواحي الإعجاز الأُخرى.

ولولا أن «نولدكه» تهكم على القرآن، وخفَّف من موازينه. بل، ونفاه وفضل عليه شعر أمية بن أبي الصلت. وخطب أكثم، وصحف مسيلمة وعظَّم كتاب ابن الراوندي «الدَّامغ للقرآن» الذي نفى فيه «الإعجاز» و«كتاب الزمرد» الذي طعن فيه بنبوة محمد (ﷺ).

نقول: لولا أن يكون هذا البحث أخذ أغلى عواطفه وعباراته، وأبعد الحياد العلمي وقفز به بعيداً عن مهمة الكتاب، لما وضعنا هذه الصفحات. ولكننا وجدنا كتابنا مضطراً إلى نقد النقد وذلك بوضع بعض نواحي الإعجاز القرآني، بين أيدي الجميع، ليروا جميعاً كم كان المؤلف بعيداً عن الإنصاف، وضحالة الثقافة في علوم القرآن.

فالإعجاز القرآني: الذي هو ثبات النص والمعنى بتحد سافر، لمن سبق ولمن لحق ـ عبرت عنه الآية (الحجر: ١٥/٩) بقولها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

فالإعجاز فيه، هو أن الله نزَّله، وان الله حفظه. ولولا هذه «السَّمة» الإلهية، لا ندرس مثلما اندرست الكتب.

فثبات النص، يعني بقاء الجمل والكلمات بحروفها، فما تقبل تعديلاً ولا تبديلاً ولا تعبر عنها تعبيراً حقيقياً أية ترجمة.

وأما ثبات المعنى. فهو إن القرآن لم يقتصر على معنى واحد. بل حملت نصوصه من المعاني والاحتمالات ما يمكن كل جيل أن يستخرج منها ما يتلاءم مع حاجته ودرجة تطوره.

هذا الاستخراج لا يعني إيجاد ما لم يكن موجوداً أو أن المعنى القديم سقط من لوحة القيم. بل لأن المعاني المتعددة موجودة في النص منذ وجوده منتظرة حاجة الإنسان، التي تقوده إلى الاستخراج وتحقيق الانسجام بين النصوص والحاجات. ولنأت بالمثال على المتعدد والحكمة منه:

ـ ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٧٦/٣).

هذه الآية تجابه الذهن «بمبدأ الاثنينية» أي تمام المساواة بين المتضادَّين لأن على «حرية الاختيار» بين النقيضين. قامت مؤسسة الثواب والعقاب.

http://kotob.has.it

فمعنى الاثنينية، والتضاد المتساوي، يعبر عن حقيقة إلهية، وهي: إن الله خلق المتضادَّين متساويين. وخلق في كل إنسان إمكانية الاهتداء إليهما، فالهداية من الله. ولكن الاختيار من الإنسان. وبالاختيار يتحقق العدل.

ـ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: ٤/٤٠).

ـ حيث وضح التصرفات الحسنة وبيَّن أوصافها وأمر بها.

ـ حيث وضح التصرفات السيئة وبيَّن أوصافها ونهى عنها.

لذلك قال الإمام علي: إن الله أمر تخييراً ونهى تحذيراً. فلو شاء الله، أن يتغلب أحد النقيضين على ضده، لزَادَ نسبتَه، وبذلك كان يتعطل، الاختيار وتلغى مؤسسة الثواب والعقاب.

ـ فمن خُلِقَ لا يستطيع أن يعمل غير الخير، لا حاجة إلى دخوله الجنة.

ـ ومن خلق لا يستطيع أن يعمل غير الشر، لا مبرر لعقابه.

ولكن مبدأ العدل لا يتحقق إلا بالاختيار والاختيار لا يتحقق إلا بالمعرفة لكليهما، وإمكانية الاختيار بينهما.

لذلك: كان لا تكليف على الطفل ولا على المجنون. ولذلك: كلفت الرسل بهداية الناس إلى الخير، ونهيهم باسم الله عن الشر.

الإعجاز العددي:

ـ وردت في القرآن كلمة «يوم» ٣٦٥ مرة بعدد أيام السنة.

وردت كلمة «شهر» ١٢ مرة بعدد أشهر السنة.

وردت كلمة «ساعة» مسبوقة بحرف ٢٤ مرة بعدد ساعات اليوم.

ـ كلمة «سبع» وردت سبع مرات مع السماوات ووردت السماوات سبع مرات والأرض ـ وإن جاءت مثل السماوات. كما في الآية ١٢ من سورة الطلاق رقم ٦٥ [1]، إلا أنهم اختلفوا في تفسير الكيفية.

فابن عباس ـ مثلاً ـ قال: هي سبع أرضين ولكنها تستظل بالسماء ويفصل البحر بينها.

ـ كلمة «ركع» وردت بمختلف صيَغها سبعة عشر مرة بعدد ركعات الفروض اليومية وكلمة «سجد» بمختلف صيَغها وردت ٣٤ مرة بعدد السجدات لأن لكل ركعة سجدتين.

---

[1] ـ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ٦٥/١٢)

http://kotob.has.it

ـ وكلمة «صلوات» وردت خمس مرات بعدد الصلوات اليومية.

ـ لفظة «قيام» بمعنى العبادة وردت في القرآن ٥١ مرة وهو مجموع عدد الركوع والسجود ١٧ + ٣٤ = ٥١.

ـ وردت كلمة «فرض ومشتقاتها» ١٧ مرة بعدد الركعات اليومية.

وردت كلمة «قصر» ١١ مرة وهي الركعات في صلاة المسافر اليومية.

ـ كلمة «رجل» وردت ٢٤ مرة وكلمة «امرأة» وردت ٢٤ مرة.

ـ كلمة «البر» وردت ١٢ مرة وكلمة «البحر» وردت ٤١ مرة فلو اعتبرنا العددين عدداً صحيحاً ١٢ + ٤١= ٥٣ فإن نسبة اليابسة إلى الماء في هذا العدد ذات النسبة الجغرافية (٢٢,٥) للبر. و(٧٧,٥) للبحر.

ـ كلمة «الجنة» ٧٧ مرة وكلمة «النار» ٧٧ مرة.

ـ كلمة «عزم» وردت خمس مرات وأولو العزم خمسة.

ـ كلمة «الدنيا» وردت ١١٥ مرة وكلمة «الآخرة» وردت ١١٥ مرة.

ـ كلمة «الملائكة» وردت ٨٨ مرة وكلمة «الشياطين» وردت ٨٨ مرة.

ـ كلمة «الحر» وردت ٤ مرات وكلمة «البرد» وردت ٤ مرات.

ـ كلمة «الحياة ومشتقاتها» وردت ١٤٥ مرة وكلمة «الآخرة ومشتقاتها» وردت ١٤٥ مرة.

ـ كلمة «السيئات» وردت ١٨٠ مرة وكلمة «الحسنات» وردت ١٨٠ مرة.

ـ كلمة «الرهبة ومشتقاتها» وردت ٨ مرات وكلمة «الرغبة ومشتقاتها» وردت ٨ مرات.

ـ كلمة «الجزاء ومشتقاتها» وردت ١١٧ مرة وكلمة «المغفرة ومشتقاتها» التي هي ضعف الجزاء وردت ٢٣٤.

الأحرف المقطعة:

١ ـ قال السيوطي في «الجزء الأول من الإتقان»:

(يلاحظ أن كل سورة ابتدأت بالحروف المقطعة قد وردت في أكثر آياتها تلك الحروف. فسورة ق ـ مثلاً: تكررت الكلمات التي تتضمن حرف القاف.

(قرآن ـ خلق ـ تكرار القول ـ القرب من ابن آدم ـ قول القعيد والرقيب والسائق ـ الإلقاء في جهنم ـ المتقدم بالوعد ـ ذكر المتقفين والقلب والقرون والتنقيب في البلاد ـ تشقق الأرض ـ وغير ذلك).

وفي يونس التي ابتدأت بـ (الر) ورد أكثر من مئتي كلمة تضمنت «الر»).

http://kotob.has.it

٢ ــ تبين بالإحصاء أن كل سورة تبتدئ بالحروف المقطعة، ترد فيها تلك الحروف بالتتابع الآتي:

ــ الحرف الأول، أكثر عدداً من الثاني.

ــ والثاني أكثر من الثالث.

ــ والثالث أكثر من الرابع.

مثلاً: (المر) وهي الحروف الأربعة التي ابتدأت بها سورة الرعد:

ــ لقد ورد حرف الألف ٦٢٥ ــ مرة.

ــ وورد حرف اللام ٤٧٩ ــ مرة.

ــ وورد حرف الميم ٢٤٠ ــ مرة.

ــ وورد حرف الراء ١٣٧ ــ مرة.

هذه الظاهرة تنطبق على جميع السور التي تبتدئ بحروف مقطعة.

٣ ــ وردت الحروف المقطعة في ٢٩ ــ سورة.

ــ السور التي ابتدأت بحرف واحد هي (ص. ق. ن).

ــ والسور التي ابتدأت بحرفين هي (طه. يس. طس. حم).

ــ والسور التي ابتدأت بثلاثة هي (ألم. الر. طسم).

ــ والسور التي ابتدأت بأربعة هي (المص. المر).

ــ والسور التي ابتدأت بخمس هي (كهيعص. حمعسق).

٤ ــ وفي تفسير هذه الحروف ومعرفة معناها:

تعددت الآراء ولم يبد منها أي تفسير أو تحليل متفق عليه.

وقد أثر عن «الحسين بن علي» عليهما السلام رأي عام، إن لم يكن تفسيراً فهو تعريف تقريبي حيث قال:

«نزل القرآن بأربع مراتب»:

ــ الألفاظ الظاهرة: وهي للعموم. ــ الإشارات الخاطفة: وهي للخاصة.

ــ اللطائف: وهي لأهل الصفاء. ــ الحقائق: وهي للأنبياء والمرسلين.

غير أن الذي يجب إلا يحصل فيه خلاف، بين الناس، وهو أن الرسول محمد (ﷺ) كان يعرف ما تعني تلك الحروف إذ لا يعقل عكس ذلك، فالأسلوب القرآني على درجة من السمو، بما لا يمكن وصف كلمة منه «بالعبث» أو «باللامعنى» أو «باللاهدف» ومعرفة الرسول (ﷺ) لما جاء في القرآن،

http://kotob.has.it

من أوله إلى آخره افتراض منطقي ضروري إذ حتى لو كان هو واضع القرآن ــ كما يقول نولدكه والمتشرقون ــ فليس من المعقول أن يضع كلاماً لا يفهمه.

أما إن كان ــ كما يعتقد المسلمون ــ أن ما في القرآن جميعاً هو وحي من الله، أوحي به رسالةً شفوية إلى النبي (ﷺ) لكي يبلغها إلى الناس. فلا يعقل أيضاً إن يبلغ الناس شفوياً ما لا يفهمه. وإذن: يجب أن يزول أي شك في أن النبي (ﷺ) يعرف معنى هذه الحروف. لذلك: لا يمكن تفسير عجز الإنسان عن معرفة كنهها حتى الآن إلاَّ أنه من معجزات القرآن وإعجازه.

الإعجاز العلمي:

في القرآن آيات تحدثت عن بعض الظواهر والقوانين الطبيعية التي كانت مستغلقة على الإنسان، ثم كشف الله عنها الغطاء فأدرك أسرارها. وكانت دهشته عظيمة حينما وجد الإنباء القرآني عنها قد سبقه بأكثر من عشرة قرون.

على أن سردها في القرآن، لم يكن لإثبات أن القرآن كتاب يغني العلماء عن كتبهم ومخابرهم. بل لإبراز عظمة الله الذي قدَّر كلَّ شيء بأحكام وإتقان.

ومن الجدير، ألا ينسى، أن تلك الظواهر الكونية، ظلت عصيةً على قدرة الإنسان، فهو ــ وإن اكتشف بعض معادلاتها ــ لم يستطيع إحداث أي تغيير أو تبديل أو تعديل فيها. وإليك بعض من هذا البعض:

١ ــ القمر نور والشمس سراج وضياء:

ــ ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ (نوح: ٧١/١٥ ــ ١٦).

قد تبين للعلماء فيما بعد:

ــ أن الشمس تتوقد كالسراج ومن توقدها ينبثق الضياء.

ــ وأن القمر يستمد نوره من ضياء الشمس فينير ظلمات الليل.

٢ ــ كانت الأرض وجميع الإجرام ملتحمة «رتقاً» ثم تفتقت وتبرَّدت واستقل بعضها عن الكتلة، وأضحت مثلما هي عليه الآن:

ــ ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٢١/٣٠).

لقد اكتشف العلماء هذه الحقيقة، وخاصة منهم، علماء فيزياء الكون كما اكتشف العلماء، حقيقة أخرى، وهي: أن أصل الحياة هو الماء، فلا حياة

http://kotob.has.it

بلا ماء. وحينما يريد العلماء معرفة أي جرم سماوي وفيما إذا كانت عليه حياة أم لا يبحثون عن وجود الماء فيه.

- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٢٤/٤٥).
- ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ (طه: ٢٠/٥٣).
- ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ، رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ﴾ (ق: ٥٠/٩ ــ ١٠ ــ ١١).

٣ــ [ــ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (يونس: ١٠/٥)]

لقد فرق ــ كما قلنا ــ بين الشمس والقمر تفريقاً معبراً عن كل منهما. في حين أن «التوراة» تحدثت عنهما ووصفتهما دون تفريق فقالت:

«فعَمِل الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل، والنجوم وجعلها الله في جَلَد السماء لتنير الأرض ولتحكُمَ على النهار والليل، ولتفصل بين النور والظلمة» (تكوين ــ ١/١٦ ــ ١٧ ــ ١٨).

لابد من التنويه بأن التلسكوبات الحديثة ساعدت الإنسان على اكتشاف الفرق الطبيعي بين الشمس مصدر التوقد والضياء وبين القمر الذي يأخذ ضياءه من ذلك التوقد.

- وفي «التفسير الكبير» للإمام الرازي ــ ص ــ ١٠٢ ــ ١٠٣ من المجلد ٣ (٥ ــ ٦) روي: «إن معاذ بن جبل وثعلبة بن غنم ــ وهما من الأنصار ــ قالا يا رسول الله (ﷺ): ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد فيمتلئ ويستوي ولا يزال ينقص حتى يعود كما بدا على حالة واحدة كالشمس فنزلت الآية:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ..﴾ (البقرة: ٢/١٨٩).

وكانت قد نزلت الآية:

- ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس: ٣٦/٣٩).

والعرجون: هو عَذَقُ النخل اليابس الملتوي.

- وفي كتاب «بسام ضفدع» «الإنسان والكون»: «إن أشكال القمر التي نراه بها، مرجعها إلى أن القمر يدور حول الأرض مرة خلال الشهر القمري.

http://kotob.has.it

والشمس تنير نصفه دائماً في حين يبقى النصف الآخر مظلماً، فالوجه المضيء هو الذي يواجه الشمس وفي المحاق (أي آخر الشهر، عندما لا نرى القمر) يكون القمر بيننا وبين الشمس فالوجه المنير هو المقابل للشمس والوجه المظلم آنذاك يقابلنا، فلا نراه، ثم يبدأ في الارتفاع فنرى جزءاً من القسم المضيء (هلالاً) ثم إذا ارتفع، كبر الهلال، ولما نراه بدراً تكون الأرض بين الشمس والقمر، فالوجه المضيء نراه كله، والمظلم محجوب عنا كله لأنه من الخلف». (انتهى الاقتباس).

تلك هي من القوانين الإلهية، التي اكتشفتها علوم الإنسان، ولكن لم تكتشف كيفية إيجادها.

- ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (الزمر: ٣٩/٥).
- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (لقمان: ٣١/٢٩).

قال «محمد متولي الشعراوي» في تفسيره: تساءل الكثيرون قائلين: لماذا قالت الآية «يكوِّر» ولم تقل يبسط الليل والنهار؟ فأجاب عن تساؤلهم بقوله: «إنك إن جئت بشيء ولففته حول كرة تقول «كورَّت هذا القماش مثلاً» أي: جعلته يأخذ شكل الكرة الملفوف حولها. وإن أردت إن يصنع أحدٌ لك شيئاً على شكل كرة، تقول له: «خذ هذا كوِّره» أي أصنعه على شكل كرة.

من هنا: يمكن فهم الآية، هو أن الله يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل «أي يجعلهما يحيطان بالأرض على شكل «كرة» وإلا لما قال« يكور» إذ لو كانت منبسطة لقال لفظاً غير التكوير».

وفي تفسير المنتخب لهذه الآية (الزمرد ــ ٣٩/٥). قال: تشير هذه الآية إلى كروية الأرض وإلى أنها تدور حول نفسها لأن مادة التكوير تعني «لف الشيء على الشيء بالتتابع» ولو كانت الأرض منبسطة لخيم الليل أو طلع النهار على جميع أجزائها دفعة واحدة.

وفي الآية: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٧/٥٤).

http://kotob.has.it

ففي عبارة «يُغشي الليلُ النهارَ» دليل على تداخلهما، فالتغشية هي إلباس الشيء بالشيء، وفي ذلك إخبار عن تعاقب الليل والنهار ومحاولة لحاق أحدهما بالآخر دون أن يلحقه أو يدركه إدراكاً كاملاً فغاية ما يستطيع إدراكه أيٌّ منهما، هو أن يتصل أوله بآخر الثاني.

ذلك جميعه: يعطي الدليل على تصور القرآن للأرض بأنها كروية الشكل.

٤ ــ في جميع سور القرآن قبل زمن وجود «يوسف بمصر» لم يذكر حاكم مصر إلا «بلقب فرعون».

أما في عهد يوسف، فقد ورد «في سورة يوسف» لقب حاكم مصر بأنه الملك.. ولقد ظل هذا الأمر محجوباً عن المعرفة الإنسانية حتى استطاع العالم «شامبليون» في بعثة نابليون أن يقرأ الكتابة المصرية على حجر رشيد في عام ١٨٢٢ م ــ حيث عرف منها صفحة من تاريخ مصر، وخاصة تاريخ الهيكسوس فيها[1]. أولئك الذين لم يتخذ حكام مصر. منهم، لقب «الفرعون» بل ظلُّوا على لقب «الملك» وهم قبائل بدوية من الكنعانيين والعموريين، قدموا من سورية وحكموا مصر مدة ٥١١ سنة (بين القرن الثالث والعشرين والقرن الثامن عشر ــ ق.م)

٥ ــ [ــ ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: ٦/١٢٥)]

ــ ﴿ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء﴾

لقد ثبت، علمياً، أن كمية الأوكسجين تنقص، كلما ازداد الارتفاع في الجو، ونقصان الأوكسجين يجعل الصدر ضيقاً حَرَجاً.

٦ ــ [ــ ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٢٧/٨٨)]

---

[1] نقل المؤرخ اليهودي «بوسينوس» كلام الكاهن المصري «مامنثيون» الذي روى أنه أوّل من أطلق على الغزاة السوريين اسم «الهيكسوس» وقال: «واتفق على عهد تيماوس أحد ملوكنا، أن الإله غضب علينا فأذن لقوم لا يعرف أصلهم جاؤوا من الشرق وحاربونا وغلبونا على بلادنا وأذلوا ملوكنا وأحرقوا مدننا وهياكلنا وساموا النساء ذلا، فقتلوا الرجال وسبوا النساء والأولاد، ثم نصبّوا عليهم ملكاً منهم اسمه «سلاطيس» أقام في مدينة ممفيس بمصر وضرب الجزية على أعلى البلاد وأسفلها واقام الحاميات، في المعاقل لدفع الأشوريين.. وبنى مدينة أغاريس في ولاية صان، وحصنها بالأبراج والقلاع، ووضع فيها حامية من ٢٤٠ ــ ألف شخص وكلمة «هيكسوس» مؤلفة من مقطعين (هيك ــ تعني الملك) و(سوس تعني راع). ومجموعهما يعني حكم الرعاة. وقد امتد ٥١١ سنة.

http://kotob.has.it

فخلافاً لما ساد قبل القرآن وبعده من أن الأرض ثابتة ومنبسطة، فقد دلت الآية على أنها «كروية» و«متحركة».

ــ أما كونها كروية، فقد سبقت بعض الآيات الدالة على ذلك.

ــ أما أنها متحركة. فهو يوضح في تشبيه (مرورها ــ حركتها) بمرور السحاب. أي: مثلما لا يتحرك السحاب بدون حركة الرياح. كذلك الجبال تحرك بحركة الأرض، أثناء دورانها حول نفسها وحركتها حول الشمس.

٧ ــ والذي أثبته العلم الحديث، من أن تعرية الأرض، اليابسة، ونقصانها تبتدئ من أطرافها، حيث تهجم مياه البحار فتبتلع بعض اليابسة. دلت الآية ٤١/١٣ من سورة الرعد.

ــ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (الرعد: ٤١/١٣)

٨ ــ في القرآن أكثر من عشرين آية ٢٣ يقول في كل منها «سيروا في الأرض»، «وانتشروا في الأرض». وليس في القرآن آية واحدة تقول «سيروا على الأرض» أو «انتشروا على الأرض».

لقد ظل التعليل معجزاً مئات السنين، حتى أثبت العلماء أن طبقة الأوزون، غلاف جوي يحيط بالأرض، فيمنع عنها حرارة الشمس ويمتص الزائد منها، ويطلق ما سواه، مما يحتاجه الإنسان ولا يؤثر على حياته. فلو قالت الآيات «سيروا على الأرض» لكان ذلك يعني السير على الغلاف الجوي، وهذا المستحيل.

٩ ــ [ــ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٣/١٢ ــ ١٣ ــ ١٤)]

فالعلق: مشتق من فعل «علق» أي نشب وانغرز.

والعلق، يطلق على الدم الغليظ الجامد قبل أن ييبس، والقطعة منه «علقة» ومنه سميت تلك الدابَّة التي تكون في الماء «علقة» لأنها حمراء كالدم.

والمضغة: من فعل مضغ: فاللقمة الممضوغة التي تتخللها التجاويف والأخاديد هي المضغة. والمعجزة في الأمر هو:

ــ إن السلالة التي تحولت إلى نطفة أودعت في قرار مكين ــ أي الحوض الذي هو أكثر مناعة من أي مكان في الجسد.

http://kotob.has.it

ـ وإن الحجم المجهري للنطفة التي تحولت إلى مضغة في مرحلة تحولها الأخير هو $\frac{1}{10}$ من الميلمتر وإن المضغة ـ وإن كانت أكبر ـ إلا أن حجمها مجهري أيضاً فالعلقة، تتشب في الجدار الأمامي للرحم. والمضغة، التي تشبه قطعة اللحم الممضوغة، وما هي باللحم، لأن العظام التي نشأت من المضغة كسيت لحماً.

ثم أنشأناه خلقاً آخر: أي بعد خلق العظام واكتسائها باللحم، تولتها العناية التي رافقتها منذ البدء ـ عناية الله ـ فأنشأت من ذلك الخليط خلقاً جديداً مختلفاً ذلك:

أن الإنشاء هو الابتداء. والخلق الآخر أي المغاير. لقد ظلت عملية التوالد لغزاً لا يستطاع حله.

وحينما نزلت هذه الآية وسواها من الآيات، لم يكن بين يدي الإنسان في كل مكان مجاهر، ليعرفوا تطور عملية الخلق والتكوين.

وبعدما، توصل الإنسان إلى وضع المجهر، أدرك مسير مراحل الخلق من النطفة حتى التكون الإنساني، وفهم ما تعني، الآيات الثلاث من سورة «المؤمنون» وما تعنيه الآيتان ٣٧ و٣٨ من القيامة رقم ٧٥:

ـ ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى﴾ (القيامة: ٧٥/٣٧ ـ ٣٨).

وما تعنيه الآيتان ٢٠ و٢١ من سورة «المرسلات» رقم ٧٧:

ـ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (المرسلات: ٧٧/٢٠ ـ ٢١).

وما تعنيه الآيتان ٢ من سورة «الإنسان» رقم ٧٦:

ـ ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (الإنسان: ٧٦/٢).

- وما تعنيه الآيتان ٢٠ و٢١ من سورة «الطارق» رقم ٨٦:

ـ ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ (الطارق: ٨٦/٦ ـ ٧).

فمراحل الخلق «نطفة» و«فاستقرار في المكان المكين» و«فتكون العلقة» و«ثم المضغة» و«ثم العظام» و«تم لكتساء العظام باللحم» و«ثم الإنشاء الخلقي المختلف».

الأمشاج: هو المخلوط من ماء الذكر والبويضة.

والصُلْب: هو عظم من الكاهِل إلى العَجْب أي أسفل الظهر: قال الشاعر:

أما ترِيني اليوم شيخاً أشيباً إذا نهضت أتشكّى الأَصلُبَا

http://kotob.has.it

والترائب: قيل عظام الصدر. وقيل ما ولي الترقوتين منه وقيل: ما بين الثديين، وقيل أربع أضلاع من يمين الصدر وأربع من يساره، وقيل: اليدان والرجلان والعينان واحدتها ترية.

وقال الفراء: «الصلب» هو صلب الرجل. و«الترائب» هي ترائب المرأة. فإن كان التفسير مثلما قال الفراء فذلك يعني أن الماء الدافق يخرج من صلب الرجل وترائب المرأة.

١٠ــ[ــ ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا، بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ٤/١٥٧ ــ ١٥٨)]

لقد قام جدل ومازال بين اتباع المسيح، الذين يؤمنون بصلبه، والمسلمين الذين يعتقدون ــ كما جاء في الآية ــ أن اليهود لم ينتصروا عليه بل رفعه الله إليه.

يقال، وذلك على ذمة القائل: أنهم اكتشفوا في نجع «حمادي بمصر» بعض الأناجيل القبطية التي تضمنت أن السيد المسيح لم يصلب:

ومنها:

ــ إنجيل توماس (توما) الذي يسبق أقدم الأناجيل.

ــ وإنجيل بطرس، مثلما قدمته منظمة اليونيسكو في عام ١٩٧٠ ومثلما قدمته لجنة ترجمة النصوص اللاهوتية التي تكونت في الولايات المتحدة الأميركية برعاية «جيمس رونسون» عالم الدراسات اللاهوتية ــ الأميركي الجنسية. ثم ترجم فيما بعد إلى الألمانية والفرنسية.

وقد وردت فيه هذه العبارة: «بقول المخلص: إن الذي رأيته سعيداً ويضحك هو يسوع الحي لكن من يدخلون المسامير في يديه ورجليه فهو البديل فقد وضعوا العار على البديل: انظر إليه وانظر إلي:[1] تلك الصور العلمية التي قدمتها ليست غير اليسير من الإعجاز العلمي الكبير الذي ورد في القرآن.

ففي خلق السماوات والأرض والفضاء الكوني، وأوصاف الأجرام السماوية وصور الاستفادة منها، وخاصة «الشمس والقمر» وتحديد طبيعة الأشعة الصادرة عنها جميعاً، وإمكانية النفاذ من أقطار السماوات والأرض،

---

[1] المؤلف: لم يطلع على اصل هذا الإنجيل ولا على ترجمته. لذلك يلقي عبء هذا القول على عاتق القائل.

http://kotob.has.it

بسلطان العلم والكشف الإلهي. وقوانين التناسل، والنقد العميق المستنبط من الآيات لنظريات الخلق المختلفة مثل «نظرية دارون» واستجواب كل جارحة من الجوارح عما قدَّمت وأخرَّت.

وذلك، وسواه، ورد في القرآن. لا لكي يُكتفي بالقرآن عن مراجع العلوم. بل: جاءت أمثلة، وأطروحات قرآنية للإنسان.

لكي: ــ يتبين أن قدرة الله لا تُضاهَي. وأن أي إنسان لم يكن يستطيع في ذلك الزمان أن يتحدث بواقعية علمية مثلما تحدث القرآن.

وبالتالي: لكي يكون الإعجاز القرآني حجة على وجود الله، ولكي تكون تلاوته من ذلك الأمي الصحراوي الذي ولد ونشأ في بيئة يابسة خالية من العلم والإيمان، دليلاً على صحة التكليف الإلهي.

مثلاً: لم يكن في مقدور أحد، في زمان الدعوة، أن يتحدث بالدقة العلمية الخارقة، مثلما تحدث القرآن، عن «تطور الجنين» من «النطفة في القرار المكين» ثم «العلقة» و«المضغة» و«العظام» و«اكتسائها باللحم» و«التكوين النهائي».

«ثم أنشأناه خلقاً آخر، أي بعد الوصول إلى مرحلة اكتساء العظام باللحم، تبدأ عملية تفريق الخلق، وترحيلهم، كل إلى مكانه والحديث عن أية معجزة: لا يقل إبهاراً وإذهالاً عن معجزة «تطور الجنين».

وبالتالي يكون ما يتلوه محمد (ﷺ) على الناس، ويمَّحي في الإيمان به، ويتفانى في نشره بين الخلق. إنما هو إعجاز إلهي. نشره كأبلغ وأعجب وأصدق الكلام، وأعمق الأقوال في الهداية إلى الخير والمحبة والأخلاق والإيمان.

لقد جاء في كتاب «دراسة الكتب المقدسة» لموريس بوكاي: «أثارت دهشتي تلك الجوانب العلمية التي اختص بها القرآن.

إذ لم أكن في البداية أتوقع، إمكانية اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقتها للمعارف العلمية الحديثة وذلك في نصٍّ كُتِبَ منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً».

«لقد درست تلك النصوص بموضوعية تامة وإن كان هناك تأثير ما، فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التي تلقتيها في شبابي، حيث لم تكن تتحدث الغالبية العظمى عن المسلمين بل عن المحمديين، لتأكيد الإشارة أن هذا الدين هو صنع رجل عادي. لذلك فهو عديم الصلة بالله، ولذلك لا ينظر إليه ككتاب سماوي.»

http://kotob.has.it

وعندما استطعت قياس المسافة التي تفصل واقع الإسلام عن الصورة التي اختلقناها عنه في بلادنا الغربية، شعرت بالحاجة إلى تعلم اللغة العربية لكي أكون قادراً على دراسة هذا الدين الذي يجهله الكثيرون.

«لقد أذهلتني دقة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظاهرات وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي. أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم والتي لم يكن ممكناً لأي إنسان في عصر محمد (ﷺ) أن يكوِّنَ عنها أدنى فكرة».

إن أكثر ما يثير الدهشة عند من يواجه مثل هذا النص، (القرآن) لأول مرة، هو ثراء موضوعات المعالجة، فهناك «الخلق» و«علم الفلك» و«موضوع الأرض» و«الحيوان» و«النبات» و«التناسل» و«نسبية الزمان» و«البروج» و«السقف المحفوظ» و«معجز البصمة» و«علم الحيوان».

فقط سوف أقف بعض الوقت عند الآية (الغاشية: ٨٨/١٧)

ــ ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وسوف اكتفي بوضع تفسير المنتخب لهذه الآية[1] «في خلقَ الإبلَ آيات معجزات دالة على قدرة الله ليتدَّبر في ذلك المتدبرون فمن المعروف: أن من صفاتها الظاهرة ما يمكنها من أن تكون سُفُنَ الصحراء بحق.

ــ فالعينان ترتفعان فوق الرأس ويرتدَّان إلى الخلف فضلاً عن طبقتين من الأهداب تقيانها الرمال والقذى.

ــ وكذلك المنخران والأذنان يكتنفها الشعر للغرض نفسه فإذا هبت العواصف الرملية، أنقفل المنخران وانثنت الأذن ــ على صغرها وقلَّة بروزها نحو الجسم.

ــ أمَّا القوائم فهي طويلة تساعد على سرعة الحركة مع ما يناسب ذلك من طول العنق.

ــ أما الأقدام فمنبسطة في صورة خفاف تمكِّن الإبل من السَّير فوق الرمال الناعمة.

ــ وللجمل كلكل تحت صدره ووسائد قرنية على مفاصل أرجله تمكنه من الرقود فوق الأرض الخشنة الساخنة في الصحراء.

ــ أما مواهب الجمل الوظيفية فأبلغ وأبدع، فهو في الشتاء لا يطلب الماء بل قد يُعرض عنه شهرين متتاليين إذا كان الغذاء غضاً رطباً، أو أسبوعين إن كان جافاً.

---

[1] وضعه المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في مصر.

http://kotob.has.it

كما إنَّه يتحمل العطش الكامل في قيظ الصحراء أسبوعاً أو أسبوعين يفقد خلالها أكثر من ثلثي وزنه، لكنه حينما يجد الماء يستعيد الوزن المفقود في دقائق إذ يشرب كميات كبيرة منه. والجمل لا يختزن الماء في كرشه بل يحتفظ به في الأنسجة ويقتصد في استهلاكه.

ومن ظواهر الاقتصاد التي منحه إياها الخالق: «أنه لا يلهث أبداً» ولا «يتنفس من فمه» ولا «يعرق جلده إلا نادراً».

أما الآية ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٦/٣٨) فالحيوانات والهوام والحشرات، على مختلف أجناسها تشترك في كونها أمم، كل مجموعة متماثلة منها بالخلق والتكوين والغرائز، تشكل أمة. ولكن كل أمة تختلف عن الأخرى بالطباع وطريقة الحياة والمدهش في الآية: هو عبارة ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: ذلك جميعه محسوب عند الله، بما يحفظ الأمة من الاندثار ويسمح لها بالتكاثر والانتشار. ويلزمها عند حدود عدم القضاء على أمة أخرى.

ــ فالذباب مثلاً: لولا الطيور لأهلك البشر.

وذلك لأن الذبابة الواحدة تستطيع بعد سبعة أيام على تفقيسها قادرة على الطيران ووضع البيوض فتبيض أكثر من مئة دفعة واحدة كل عشرة أيام، وعملية البيض يقوم بها الذكر والأنثى.

ــ ولولا الأفاعي، لما نقص عدد الجرذان والفئران، وتُقضِيَ على المزروعات.

فعدم التفريط: يعني أن جميع الاحتمالات محسوبة، سواء من حيث «الحجم» أو «الرزق» أو «التكاثر». فلا تولد نفس بشرية أو حيوانية أو من الهوام إلا بحساب ولا تموت إلا بحساب . تماماً، مثلما أشارت الآية ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً﴾ (آل عمران: ٣/١٤٥)

ــ وحينما يقرأ كثيرون:

ــ ﴿مَثَلُ الذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٩/٤١).

يستغربون لماذا وُضع بيت العنكبوت مثالاً لمن يوالي غير الله.

ولكن استغرابهم يزول إذا درسوا طبيعة بيت العنكبوت، فهي تغزل البيت، وبعد الانتهاء من الغزل والتلقيح تأكل الذَّكرَ، ثم بعد التوليد تأكل من تلحق من أولادها، كما إن الأولاد يأكل بعضهم بعضاً.

http://kotob.has.it

لذلك جاء المثل مقارناً بين بيت العنكبوت الذي سقط فيه كل نظام وبين العواقب الوخيمة التي تنتظر أعداء الله.

أما الذين، يفسرون «الوهن» هنا، بضعف خيوط البيت، وسهولة تفتتها، ينسون أن خيط بيت العنكبوت أقوى من خيط فولاذي بالسماكة ذاتها. الأمر الذي يؤكد أن المقصود من «الوهن» هو حلول الفوضى، وسقوط النظام من بيت العنكبوت.

اعتماد القرآن على التوراة والإنجيل:

أولاً: قبل الخوض في هذا الموضع، سلباً أو إيجاباً

نجيب عن سؤال نطرحه. ثم نضع بعد ذلك ما يترتب على الجواب من نتائج.

أما السؤال فهو: متى تم تثبيت الكتب الثلاثة؟ أي: متى تم استقرارها على الوضع التي هي عليه الآن؟

ففي التوراة: يقول «وول ديورانت» المؤرخ اليهودي الأميركي في ص ٣٦٧ من المجلد (١ ــ ٢) من تاريخه: «قصة الحضارة»: «ترى كيف كتبت أسفار التوراة؟ ومتى كُتبت؟ وأين كتبت؟

أسئلة بريئة لا ضير منها. ولكنها أسئلة كتب فيها خمسون ألف مجلد دون أن تعطي جواباً.. ويجب أن تفرغ منها هنا بدون جواب».

غير أن ما بين أيدينا الآن هو: جاء في الاصحاحين ٢٢ و٢٣ من سفر الملوك الثاني: وجد الكاهن «حلقيا» سفر الشريعة، في بيت الرب فأعطاه إلى «شافان» كاتب الملك «يوشيا» الذي قرأه للملك، فأمره هذا بأن يذهب مع عدد من الكهنة ليسألوا الرب عما في السفر.

فذهبوا إلى عند «النبية خلدة» التي قالت لهم بعد أن قرأته: «هذا السفر هو كلام الرب»

وقد جاء فيه قول الرب: «هاأنذا جالب شراً على هذا الموضع وسكانه لأنهم تركوني وأوقدوا لآلهة غيري». فمزّق يوشيا ثيابه وخرج مع كهنة أورشليم وسكانها، فطّهر الهيكل، من الأصنام التي كان ملوك يهوذا قد وضعوها. وآخرهم «سليمان» الذي بني في الهيكل مرتفعات «لعشتورت» رجاسة الصيدونيين و«لكموش» رجاسة الموآبيين ولملكوم كراهة بني عمون، واستخراج العظام من المقابر وحرقها.

http://kotob.has.it

وبعد مائة سنة تقريباً

أي: في سنة ٤٤٤ ق.م ظهر بين اليهود كاهن عالم هو «عزرا» الذي دعا اليهود إلى اجتماع خطير تحدث عنه «وول ديورانت» في ص ٣٦٦ من المجلد ذاته.

قال: «شرع عزرا، يقرأ فيما سماه «سفر شريعة موسى» سبعة أيام هو وزملاؤه اللاويون. ولما فرغوا من قراءتها أقسم الكهنة وزعماء الشعب على أن يطيعوا هذه الشرائع ويتخذونها دستوراً لهم يتبعونه ومبادئ خُلقية يسيرون على هديها، إلى الأبد. وظلت هذه الشرائع من تلك الأيام النكدة إلى يومنا هذا المحور الذي تدور عليه حياة اليهود[١]

هذه النصوص، القائمة حتى الآن في التوراة. تؤكد أن التوراة لم يكن مكتوباً أي سفر من أسفارها قبل سنة ٤٤٤ ق.م، بل لم يكن لدى اليهود عقيدة واحدة. ولم تكن تعاليم موسى معروضة أو سائدة وإلا، ما كان للملك سليمان أن يبني في الهيكل مرتفعات للأصنام.

وما كانت النبيَّة خلدة، قالت في القرن الخامس ق.م[٢] أن اليهود أحرقوا لآلهة غير الرب وتركوه.

هذا يدل دلالة قطعية، أن موسى مات ولم يترك أية كتابة.

ـ فهو مصري، ولا يحسن غير اللغة المصرية.

ـ واليهود الذين خرجوا من مصر بقيادته، كانوا أحفاداً تسلسلوا عن آباء استوطنوا مصر مدة ٤٣٠ سنة، أي لم يكونوا يتقنون غير الكلام باللغة المصرية.

ـ لقد اتفق أكثر المؤرخين:

ـ على أن موسى خرج مع قومه من مصر سنة ١٢٩٠ـ ق.م.

ـ وانه تاه مع قومه في الصحراء ٤٠ سنة.

ـ وأنه مات ودفن بالجواء، أي لم يدخل فلسطين.

ـ وإن التوراة وجد أول سفر منها في القرن الخامس قبل الميلاد بعهد يوشيا.

---

[١] اجتماع عزرا كان بعد العودة من السبي وعجز اليهود «العددي والمالي» عن إقامة دولة حربية، وكانوا في حاجة إلى إدارةٍ تعترف بسيادة الفرس لكي تهيئ لهم الوحدة والنظام فشرعوا بإقامة نظام ديني على غرار نظام (يوشيا ، وحلقيا).

[٢] النبيَّة خلدة في أيام يوشيا الذي ملك بين ٦٤٠ ـ ٦٠٩ ق.م

http://kotob.has.it

لذلك فإن التوراة الحالية ــ على فرض صحة قصة عزرا في ٤٤٤ ق.م يكون قد بدء بحفظها وتتابع كتابتها بعد أكثر من ثمانية قرون على موت موسى.

وفي الإنجيل: من الثوابت التي لا تقبل الجدال:

ــ إن السيد المسيح، تكلم بالآرامية، وبها خاطب الناس وخطب فيهم.

ــ وأن أيدي الإنسان وخزائنه، في كل مكان، خالية من إنجيل بالآرامية.

ــ وان أقدم الأناجيل الموجودة، مكتوبة باللغة اليونانية[1] صحيح: إن كلمة الإنجيل تفسَّر أحياناً بـــ «البشارة» أو «الكرازة».

ولكننا حينما نقرأ في العهد الجديد: «وبعدما أسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل» **(مرقس** ١٤/١ ــ ١٥).

يتبادر إلى الذهن أن الإنجيل هو «كتاب».

ويزداد اليقين بقراءة الآية ٣٠ من الاصحاح ١٠ ــ من الإنجيل مرقس وما قبلها.

ــ «وابتدأ بطرس يقول: هانحن قد تركنا كل شيء وتبعناك. فأجاب يسوع وقال الحقَّ أقول لكم ليس أحد ترك بيتاً أو أخوة وأخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً **لأجلي ولأجل الإنجيل** إلا ويأخذ مئة ضعف الآن وفي هذا الزمان» **(مرقس:** ٢٨/١٠ ــ ٢٩ ــ ٣٠).

ثم ــ كما يقول ابن البطريق، المؤرخ المصري القبطي في كتابه. «ظلت كتابات الرسل، تسمَّى بين الناس «مذكرات الرسل» وظل شهداء الفكر المسيحي يتساقطون بالعشرات أكثر من ثلاثة قرون. وكانت المسيحية والكتابات عن المسيح تسير بين الناس بالخفاء حتى كان «مجمع نيقية في سنة ٣٢٥» الذي دعا إليه قسطنطين ــ الإمبراطور الروماني الذي كان قد تنصَّر في الخفاء.

وقد طرح على موائد النقاش في نيقية[2] أكثر من أربعمائة إنجيل ورسالة، وكان وراء كل منها أساقفة يدافعون عنها، حيث استمر النقاش عدة أيام أمر بعدها قسطنطين أن توضع جميع الكتب تحت المناضد وإن تقفل صالات الاجتماعات

---

[1] طبعاً: النسخة اليونانية ليست الأصل، بل هي مترجمة عن أصل عبراني.

[2] قال ابن البطريق: كان عدد الأساقفة المدعوين إلى مؤتمر نيقيا ٢٠٤٨ ــ أسقفا، وكان أكبر تجمع، هو المجمع الاربوسي الذي قال بقول «آريوس» وكان عددهم ٧٠٠ ــ أسقفا. و«آريوس» هو «الهرطوقي الأول»

http://kotob.has.it

ودعا شيوخ الكهنة لقضاء الليل في الصلاة إلى الله كي يختار لهم أربعة من مخطوطات الكم الكبير المطروح، وذلك لكي تتوحد كلمة الإيمان.

وعندما قدموا في الصباح وجدوا مخطوطات «متى» و«مرقس» و«لوقا» و«يوحنا» على المناضد[1] فأمر، قسطنطين بانتهاجها.

كما أمر بإحراق المخطوطات الأخرى وملاحقة من تشبث بأية مخطوطة منها فقتل الكثيرون، وهرب الأحياء إلى جوار المملكة الفارسية بعيداً عن الإمبراطورية الرومانية فتكوَّن من أولئك الهاربين، «النساطرة» و«اليعاقبة» أو«البرادعة»

وفي القرآن: إن كان من المقطوع فيه تاريخياً:

- إن البدء بكتابة التوراة حصل بعد موت موسى بأكثر من ثمانية قرون وإن موسى لم يدخل فلسطين حيث ذكرت حادثة موته، ودفنه في الجواء، ومدة الحداد عليه. (تثنية ـ ٣٤/٥ ـ ٦ ـ ٧).
- وإن كان الإنجيل لم يُعتَمد بكتبه الأربعة إلا بعد مجمع نيقية في سنة ٣٢٥م فإن القرآن: صار تثبيته وكتابته وحفظه في عهد النبي (ﷺ). بل كان إعطاء كل مجموع اسماً وإطلاق كلمة «سورة» على كل مجموع. وترحيل الآيات إلى السور فور نزولها. من الأمور التي كانت وقفاً على النبي (ﷺ) لذلك سميت «توقيفية» ففي التاريخ:
  - «إن الآيات، كانت تكتب وتحفظ فور نزولها».
  - وكان النبي (ﷺ) يقول: ضعوا هذه الآيات في المكان المذكور فيه «كذا وكذا» فينفذ أمره على الفور.

إن عنصري «الكتابة» و«الحفظ» الفوريين يكوِّنان القناعة بأن النص القرآني أكثر دقةً وواقعيةً من نصوص الكتب الأخرى خاصة، وكان قد مَّر أكثر من ستة قرون على آخر كتاب حينما بدأ القرآن بالنزول.

هذا من جهة: ومن جهة أخرى،

- فالقرآن محفوظ بلفظه ومعناه مثلما تلقاه النبي (ﷺ) من الوحي وتلاه على الناس.
- ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩/١٥).

---

[1] قال ابن البطريق: ولكن لم يكن أحد يعرف مع من كانت المفاتيح في الليل.

http://kotob.has.it

ـ في حين أن كليهما «التوراة والإنجيل» لم يُراعَ فيهما غير المعنى. فالتوراة لم تكتب بأي خط من خطوط مصر الثلاثة «الهيروغليفي» و«الهيراطيقي» و«الديموطيقي» مع أن بني إسرائيل لم يكونوا قبل دخول أرض الكنعانيين يعرفون غير اللغة المصرية[1] وأن موسى مات دون أن يدخل أرض الكنعانيين.

ـ والأناجيل التي نقراها اليوم بالعربية. مترجمة عن إحدى اللغات الأوربية، التي كانت بدورها قد ترجمت عن اللاتينية، وهذه ترجمت عن اليونانية واليونانية تُرجمت عن العبرية مع التنويه إلى عدم وجود إنجيل بالعبرية، فيكون بمقتضى هذا التسلسل، أقدم إنجيل هو المدوَّن «ترجمة» إلى اللغة اليونانية. والترجمة تروي ـ بلغة المترجم وأسلوبه ـ ما رآه صاحب الإنجيل من عجائب المسيح. أو ما رواه عنه. مثلما جاء في لوقا اليوناني الطبيب الذي عبَّر بصراحة عن أن ما يتضمنه إنجيله هو ما سمعه من الناس. فقال في الإصحاح الأول:

ـ «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة في الأمور المتيقَّنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين.وخداماً للكلمة» (لوقا ـ ١/١).

فالترجمة، هي التي ألبست المعاني ثوبها الذي نقرؤها به. وتتالي الترجمات يعني تتالي الثياب. وهذا يجعل من حق القارئ أن يستقصي عن مدى تعمق المترجم في قوانين لغته واللغة التي ترجم عنها. وعن قدرته في الاستقصاء عن حرفية الواقعة الكتابية وعما إذا كانت الترجمة قد تعرضَت بالأصل زيادة أم نقصاناً أم تبديلاً وتحويلاً.

أما القرآن ـ فقد ظل بلغته العربية. والترجمات التي دخلت إليه، لم تؤثر على حقيقته العربية لفظاً ومعنى. ولقد ثبت في جميع المراجع أن «الكتبة» كانوا يكتبون الآيات فور تلاوتها، وكان الحفظة يحفظونها. وكان النبي (ﷺ) يقول: «من كتب عني غير القرآن فليمحه»

إن ما ذكرناه في هذا البند، هو استعادة لما دار من شكوك حول دقَّةِ ما جاء في التوراة والإنجيل ودقة النصوص النبوية الواردة فيهما. وهو في ذات الوقت ما عبر عنه القرآن بقوله:

---

[1] جاء في الفقرة ٤٠ ـ من الاصحاح ١٢ ـ من سفر الخروج أن بقاء بني إسرائيل في مصر امتد ٤٣٠ سنة. (من يوم دخول يعقوب إلى يوم خروج بني إسرائيل «قوم موسى»).

http://kotob.has.it

ـ ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ[1] لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ...﴾ (المائدة: ٥/٦٨). أي لستم على تمام البيِّنة حين تتمسكون ببعض ما جاء فيها وتهملون بعضاً آخر.

ثانياً: أما في الكليات فقد ظلت دون مساس مثل:

ـ العبادات كالتوحيد والإيمان بيوم الدين فقد ظلت دون مساس

ـ التنظيمات التي يحتاجها كل نظام اجتماعي، مثل: تحريم «القتل» و«الزنا» و«السرقة» و«شهادة الزور» و«اشتهاء حاجات الناس».... وسواها.

لأن أي مجتمع يحتاجها مهما كان مستواه الحضاري. إذ لن تستطيع أية كتلة بشرية أن تمارس حياة اجتماعية طبيعية ما لم تضع القوانين الرادعة للفوضى:

ـ فالقتل يؤدي إلى القتل المضاد وباتساعهما تتخلخل قواعد الحياة الاجتماعية.

ـ والسرقة ـ أي أخذ مال الغير هي أيضاً تثير الفوضى وعدم الأمان.

ـ والزنا الذي يقضي على نقاء الأسرة ويضيع الأنساب.

ـ والطمع بأشياء الغير.

وبالجملة لا يمكن ضمان الاستقرار الاجتماعي وسيرورة الحياة سيراً مطمئناً ما لم يكن أبناء المجتمع خاضعين لمقامع الفوضى ـ لا فرق بين مجتمع قديم وبين مجتمع حديث.

ثمة فرق واحد فقط: هو في طريقة القمع التي اختلفت ـ وما تزال ـ باختلاف طبائع الشعوب وظروف الزمان والمكان.

فالوصايا العشر: التي هي أعز الأوامر التي أُمر موسى بأن يبلغها إلى بني إسرائيل. والتي يَتيهُ بها اليهود فخراً ـ لأنها بمنطقهم ـ أول وحي الله إلى البشر قال عنها وبصددها المتتبعون: إن عناية الله لم تتخل عن خلق الله. فالله الخالق كان ـ وما زال ـ يلهمهم إلى معرفة القواعد والأسباب التي تكفل استمرار الحياة الاجتماعية. كإيجاد السلطة وفرض احترامها واحترام الضوابط التي تضبط الحياة الاجتماعية على مختلف الطبائع والشرائح.

وقالوا أيضاً: لقد تحدث التاريخ عن شعوب عاشت تنظيمها الاجتماعي ـ واعتمدت ضوابط التنظيم ـ قبل أن يخلق الله اليهود بآلاف السنين.

---

(١) أهل الكتاب أي أتباع التوراة والإنجيل و«ما انزل إليكم من ربكم ـ أي القرآن».

http://kotob.has.it

فبناء الأهرامات في مصر، ومبادئ علم الفلك في بابل، والسفن التي حملت الفينيقيين إلى أقاصي العالم ومكنتهم من بناء المدن المرفئية، على شواطئ البحار. أدلة حاسمة على نظم اجتماعية كانت قائمة قبل خروج موسى من مصر في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد.

قالوا: إن أناشيد «التوبة البابلية» كانت مرجع النشيد الموسوي في سفر الخروج (١٥ ــ) ونشيد «دبورة» ومزامير داوود.

حتى المزامير (١٤٨ ــ ١٤٩ ــ ١٥٠): تكاد أن تكون نسخة مطابقة عن قصيدة «أخناتون» التوحيدية. مما دفع بكثير من الباحثين إلى القول: «إن المزامير ليست من صنع داوود».

يعرف الجميع، أن «الهيكسوس السوريين» كانوا يحكمون مصر عند دخول يعقوب وأسرته. وكان المجتمع المصري متكوناً قبل وجود أي فرد من أبناء يعقوب بعشرات القرون. ومن الطبيعي أن الذي حقق الوحدة الاجتماعية وحفظ المجتمع من التفكك والفوضى هو وجود الضوابط والروادع الكفيلة التي يبرز في أعلى سلّمها «تحريم القتل والعقاب عليه» كذلك «السرقة» و«الزنا» و«شهادة الزور» وسواها.

على أن خضوع الناس لهذه الروادع. كان مبنياً على أنها أوامر صادرة عن القوة الإلهية.

ــ فقوانين مصر القديمة: كانت تُعزى إلى الإله «تحوتمس»

ــ وقوانين حمورابي: كانت تعزى إلى «إله الشمس ».شمش.

ــ وقوانين كريت: أعطيت من أحد الأرباب على جبل «دكتا»

ــ وكان اليونانيون يسمون الإله «ديونيس» بالمشترع ويرسمونه وأمامه منضدتان حجريتان، وقد نقش عليهما القوانين.

ــ ويقول الفرس: إن الإله «أهورا» أنزل كتاب القوانين على زرادشت وما ذلك جميعه ــ كما قال ديودور الصقليّ ــ إلا لأن الناس يكونون أكثر طاعة للقوانين إذا توجهت أبصارهم وبصائرهم إلى الأعلى.

لم نقم بهذا المختصر الاستطرادي. إلا لنَصِلَ مع القارئ . إلى أن القواعد الضابطة للمجتمعات كانت ــ ومازالت ــ ضرورات اجتماعية لا يختلف ــ في النهاية ــ متأخرها عن متقدمها. أما الاختلاف في الأشكال والصيغ، فقد فرضه اختلاف الزمان والمكان وتطور الإنسان.

http://kotob.has.it

لذلك: يعتبر بعيداً عن العلم والمنطق أن يقال: إن محرَّمات القرآن وزواجره ذات أصل توراتي. بعد أن قرأنا في التاريخ أنَّ محرمات التوراة مسبوقة بغيرها. وغيرها مسبوق بغيره. لأن قوانين الضبط والقمع، حاجات اجتماعية عرفها الإنسان وطبقها منذ قيام المجتمعات الأولى.

وفي القرآن ، ورد النهي عن إكساء تلك الضوابط ثياب العصور اللاحقة أو دمغها بالكفر والمروق. فذلك ــ كما يقول القرآن ــ في يد الله يفصل فيه يوم القيامة.

ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ٢٢/١٧).

ــ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ...﴾ (البقرة: ٢/١٣٤).

بقي أن نقف وقفة سريعة، مع: «نقاط تلاقي القرآن بالكتابين» و«نقاط اختلافه عنهما».

نقاط التلاقي:

١ ــ **الوصايا العشر:** وقد كنا تحدثنا عنها من قبل، على أنها بدأت مع بداية المجتمعات الإنسانية إذ لا يستطيع أي مجتمع أن يضمن الاستقرار والهدوء والتعايش المشترك بين أفراده، ما لم يحرِّم هذه المفردات ومشتقاتها. ويقيم الضوابط والروادع دون طغيان الطغاة.

لذلك قال المؤرخون، بكل ثقة، أن مكافحة الجرائم التي جاءت مسبوقة بالنهي في الشريعة الموسوية أقدم من موسى بآلاف السنين.

٢ ــ **التشريع:** وهو كتلة النصوص التي تحتوي على جملة الضوابط التي تحفظ المجتمع من التفتت. فتتجاوز مفردات الجرائم المنهي عنها بالوصايا. وتنظم النشاط الاقتصادي والثقافي والسياسي وترسم الخطوط الواضحة للقيم الفردية والاجتماعية، مع الإبقاء على مكافحة «منهيات» الوصايا معتبرة كلاً منها جرماً.

أي: تعدياً، لأن الجرم هو التعدي، وهو الذنب[1]. وكلمة التشريع، مشتقة في العربية من الثلاثي «شرع» أي: تناول الماء دون واسطة. وقد انبثق،

---

[1] قالت الآية (الأعراف: ٧/٤٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ــ فالمجرمون هنا تعني الكافرين.

http://kotob.has.it

مدلولها الشرعي، من هذا المعنى. ذلك لأن الصوم والصلاة والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجموعة ما جاء في القرآن من ضبط للنفس الإنسانية وردع للنوازع. نزل على الرسل، مثلما تنزل المياه. وبلغوها إلى الناس بالأسلوب ذاته.

فقول القرآن:

ـ الآية (الشورى: ٤٢/١٣). ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ...﴾

ـ والآية (الجاثية: ٤٥/١٨). ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا...﴾

ـ والآية (المائدة: ٥/٤٨). ﴿... لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً...﴾

وكان نهر الأردن يسمى «نهر الشريعة» في القديم. وبمياهه «تعمَّد المسيح» فالله ـ كما يقول القرآن ويعتقد المسلمون ـ هو المشرِّع في جميع العصور وما نزل على النبي محمد (ﷺ)، كان الصيغة المطوَّرة للشرائع السابقة التي نزلت على «نوح» و«إبراهيم» و«موسى» و«عيسى».

فالصحف الإبراهيمية والكتب الثلاثة ـ متفقة ـ على أن الشريعة المحفوظة في الملكوت، الكتاب المكنون: لا تتبدل ولا تتغير. ولكن الشريعة بمهمتها الاجتماعية هي التي تتطور بتطور الإنسان.

لذلك:

ـ «أعلن المسيح في خطبة الجبل: أنه جاء ليكمل، لا لينقض الناموس أو الأنبياء لأن الناموس باقٍ بحروفه ونقاطه ما بقيت السماء والأرض» (متى: ٥/١٧)

ـ وتقيد لوقا بقول المسيح فقال. «وكان الناموس والأنبياء إلى يوحنا. ومن ذلك الوقت يبشر بملكوت الله كل من يَغتصِبُ نفسه إليه. ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس» (لوقا: ١٦/١٦ ـ ١٧).

بعدما تقدم. نرى وجوب التوقف قليلاً، في المحطتين التشريعيتين

ـ «المحطة المسيحية»

ـ «المحطة الإسلامية»

ففي المحطة المسيحية: التي هي إكمال لما تقدم ـ كما قال السيد ـ نجدها مغايرة تماماً لما سبق. فمحبة القريب وبغض العدو التوراتية، نادى بها المسيح محبة مزدوجة «للقريب والغريب» و«الصديق والعدو»

http://kotob.has.it

ـ «وسمعتم: أنه قيل: «تحب قريبك وتبغض عدوك أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجرٍ لكم. أليس العشَّارون أيضاً يفعلون ذلك وإن سلَّمتم على إخوتكم فقط فأي فضلٍ تصنعون. أليس العشَّارون أيضاً يفعلون هكذا».. (متى: ٥/٤٢ حتى ٤٨).

وحينما قال له الفريسيون: لماذا يقطف تلاميذك سنابل القمح في يوم السبت. هذا لا يحل.. قال: «أما قرأتم ما فعله داوود حينما احتاج وجاع. مع الذين معه، كيف دخل إلى بيت الله في أيام «أبياثار» رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذي لا يحل أكله إلا للكهنة. وأطعم الذين معه».

ثم قال لهم: «السبت إنما جعل من أجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت. إن إبن الإنسان هو رب السبت أيضاً» (مرقس: ٢/٢٢ ـ ٢٨).

وكان يكرر دوماً إن الأخلاق الفاضلة، هي حاجة اجتماعية، بالإضافة إلى إنها من التصرفات الصالحة التي أوصى بها الله. فما من محرمات تنجِّس إذا دخلت إلى الجوف عن طريق الفم. أما ما يخرج من الفم من كلام بذيء وأفكار شريرة، وتجديف وجهل وكبرياء، فهي التي تنجِّس ، وتخفف موازين الإنسان. «ليس شيءٌ من خارج الإنسان إذا دخل فيه يقدر أن ينجسه لكن الأشياء التي تخرج منه هي التي تنجِّس الإنسان.

ثم وضح ذلك لتلاميذه بقوله:

«ما يدخل من الخارج يدخل إلى الجوف لا إلى القلب ـ ثم يخرج إلى الخلاء، أما ما يخرج من الداخل فهو الأفكار الشريرة، وهي التي تنجِّس الإنسان مما تقدم.

ومما هو مبثوث عن تعاليم المسيح في الأناجيل والأدبيات كافة. يتضح:

ـ إن الشريعة الموسوية ـ إذ بيَّنت ماهية الخطيئة، فقد كانت التكملة المسيحية بإعلان القدرة على تجاوزها.

ـ والشريعة الموسوية ـ إذ أوصت بحب القريب وبغض العدو كانت التكملة المسيحية تجاوزاً تاماً لها، حين قالت: برفض الكره رفضاً مطلقاً، وتحويله إلى محبة مطلقة، بل قالت: إن الثواب على محبة العدو أكثر وأكبر من محبة القريب والصديق.

http://kotob.has.it

ثمة أمر ينبغي عدم إغفاله، وهو: إن الشريعة الموسوية نزلت لتربية بشرٍ، كانوا بدواً يابسين يحملون الأرواح والأجساد الصحراوية اليابسة، لذلك جاءت صارمة آمرة. دون اهتمام بالشرح والتفصيلات.

أما في عهد المسيح فقد كانت المجتمعات مستقرة تحت الحكم الروماني. ومنضبطة بالقوانين الرومانية الصارمة. وكان الإنسان الذي جاء بعد الشريعة بأكثر من اثني عشر قرناً. قد خطا خطوات حضارية جعلته أكثر احتراماً لإنسانيته وقناعاته. فجاءت تعاليم المسيح لتقتلع منه عقد الخوف، وتنقله من الطريق «الناموسي» الضيق إلى الطريق المسيحي الأرحب.

لقد مزجت النصوص الإسلامية:

ـ بين: يبوسة النصوص التوراتية وشدتها.

ـ وبين: الإكمال المسيحي المتسامح الذي وضع القيادة في يد الضمير.

ثم أضافت إليهما: سلَّة من القوانين التي رصدت حركات المجتمع، أفراداً وجماعات ـ ووضعت نظام القضاء والتنفيذ ـ فجعلت من ذلك جميعه درعاً واقياً للاستقرار الاجتماعي.

ونحن إذ نسجل ذلك. لا ندعي سبقاً ولا كشفاً عن مجهول. فكلمة الله، مثلما هي مبثوثة في الإنجيل والقرآن، مبثوثة في التوراة وفي الصحف الأولى[1]. وغاية الله من كلمته كانت، دوماً، هداية الإنسان وتهذيب سلوكه العبادي والاجتماعي. ففي العهد الموسوي، كانت طبيعة الإنسان يابسة وضميره الاجتماعي كان طفلاً يحبو. لذلك جاء الناموس مراعياً ذلك جميعه، ولو جاء الناموس متطوراً كما هو على لسان المسيح أو محمد (ﷺ)، لما فهمه الناس ولما آمنوا به بل كانوا استنكروه ورفضوه.

أما في العهد المسيحي، فقد كانت الإدارة والقوانين الرومانية قابضة على الزمام الإنساني، فما من حاجة إلى اختراق ذلك الجدار المنيع.

لذلك: «تركت ما لقيصر لقيصر وما لله لله».

وفي الجزيرة العربية. حيث كانت تلك البلاد الشاسعة خالية من الإدارة والقوانين الأجنبية وكانت العادات الجاهلية مالكة قيادة الإنسان.

---

[1] الصحف ـ جمع مفرده الصحيفة.
وقد عددها النبي (ﷺ) وعدد أصحابها ـ كما روى أبو ذر ـ حيث قال النبي (ﷺ): «نزل على آدم عشر صحف» و«على شيت خمسون» و«على أخنوخ ـ ادريس ثلاثون» و«على إبراهيم عشر» (الطبرسي ـ المجلد الخامس ـ ١٠-٩ ص ٣٣٢)

http://kotob.has.it

بما كانت قد غرست فيه من الاغراس الفاسدة. مثل: «الرهط» و«البغاء» و«السبي» و«الاستبضاع» و«الخدن» و«الوأد» و«الغزو» و«الحمية القبلية» وغيرها. لذلك انتقلت كلمة الله، بالإنسان نقلة نوعية، نقلة على مقاس مداركه وقدرته على الاستيعاب. فكانت القوانين المنبثقة عن أصول النص الإلهي وسائل الإيضاح لما جاء في النص من غموض وتفصيل ما جاء فيه من إجمال.

فعلى مذهب واحد، هو مذهب «أبي حنيفة النعمان بن ثابت» وضعت مجلة الأحكام العدلية. في ستة عشر كتاباً امتدت على ألف وثمانماية وواحد وخمسين مادة شاملة جميع التصرفات الإنسانية. كما يلي:

- الكتاب الأول في القواعد الفقهية من المادة ١ حتى ٤١٩
- الكتاب الثاني في الاجارة من المادة ٤٢٠ حتى ٦١١
- الكتاب الثالث في الكفالة من المادة ٦١٢ حتى ٦٧٢
- الكتاب الرابع في الحوالة من المادة ٦٧٣ حتى ٧٠٠
- الكتاب الخامس في الرهن من المادة ٧٠١ حتى ٧٦١
- الكتاب السادس في الأمانات من المادة ٧٦٢ حتى ٨٣٢
- الكتاب السابع في الهبة من المادة ٨٣٣ حتى ٨٧٦
- الكتاب الثامن في الغصب والإتلاف من المادة ٨٧٧ حتى ٩٤٠
- الكتاب التاسع في الحجر والإكراه من المادة ٩٤١ حتى ١٠٤٤
- الكتاب العاشر في الشركات من المادة ١٠٤٥ حتى ١٤٤٨
- الكتاب الحادي عشر في الوكالة من المادة ١٤٤٩ حتى ١٥٣٠
- الكتاب الثاني عشر في الصلح والإبراء من المادة ١٥٣١ حتى ١٥٧١
- الكتاب الثالث عشر في الإقرار من المادة ١٥٧٢ حتى ١٦١٢
- الكتاب الرابع عشر في الدعوى من المادة ١٦١٣ حتى ١٦٧٥
- الكتاب الخامس عشر في البينات من المادة ١٦٧٦ حتى ١٧٨٣
- الكتاب السادس عشر في القضاء من المادة ١٧٨٤ حتى ١٨٥١

http://kotob.has.it

مجلة «الأحكام العدلية» هذه

- ضبطت تصرفات الأفراد والجماعات في جميع البلدان التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية.
- وأبو حنيفة «النعمان بن ثابت» التيمي ولاءً والكوفي ولادة[1]. لم يكن غير واحد من الفقهاء الذين أخذوا ما تفقهوا به وما اجتهدوا في تفصيله وتوضيحه وإسناده، ثم تركوا الجميع بين أيدي أبناء الأمة تراثاً فكرياً يغطي حاجات أجيالهم والأجيال اللاحقة. وقد ظلت تلك المذاهب الفقهية صمَّام الأمان لجميع المجتمعات التي خضعت للسلطنة إلى ما بعد انحلال السلطنة بزمن ليس بالقليل.

والفقيه، صفة كانت تطلق على من يتبحَّر في علوم الشريعة وأحكامها، وفي الحديث أن النبي (ﷺ) دعا لابن عباس بقوله «اللهم علمه الدين وفقِّهه في التأويل» فكان من أبرز فقهاء عصره حتى أطلقوا عليه اسم «حبر الأمة».

فالفقه: كلمة إسلامية، رافقت علم الدين، لسيادة الدين وشرفه وفضله على سائر العلوم. وهي ــ أي كلمة الفقه ــ مشتقة من الثلاثي «فَقِهَ» وتعني العلم بالشيء والفهم له. وقد أُخذت نسبها من «الفَتح والشق» رمزاً بها لمن استطاع أن يفتح مغاليق المعاني الشَّرعية ويشُق الحجب عنها.

لذلك وردت تلك الكلمة في عشرين آية قرآنية، حاملة معنى التعمق في علوم الدين:

- ﴿...فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ...﴾ (التوبة: ٩/١٢٢).
- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون: ٦٣/٣).

فالقواعد الفقهية التي استنبطها الفقهاء من القرآن والسنة النبوية الصحيحة، نضجت معانيها في أدمغتهم فدارت بها ألسنتهم وأيديهم على القراطيس وأورثوها لطلاب العلم. تاركين للفقهاء منهم مهمة الرفع والوضع تبعاً للظروف وحاجات المجتمع.

- الشيخ محمد قدري باشا المتوفى في القاهرة سنة ١٣٠٦ هـ وضع كتاب «مرشد الحيران: في معرفة أحوال الإنسان» بألف وثلاث وثلاثين مادة.

---

[1] عاش أبو حنيفة بين ٨٠ ــ ١٥٠ هـ ومات في خلافة المنصور العباسي في سجنه وهو يصلي. اشتهر بتفريع المسائل ووضع الحلول لما يتوقع حدوثه في المستقبل فكان يقول: نستعد للبلاء قبل وقوعه. فإذا وقع عرفنا كيف نتعامل معه.

http://kotob.has.it

ووضع كتاب «الأحكام الشرعية في أصول الأحوال الشخصية» بستماية وسبعة وأربعين مادة.

- والشيخ ظفر أحمد القهانوي الذي وضع في عشرين مجلداً «كتاب إعلاء السنن»
- والحافظ الكبير أبو بكر عبد الله بن محمد أبي شيبه، إبراهيم العيسى الكوفي الذي وضع المصنَّف، وخصص فعلاً منه لمخالفات «أبي حنيفة»
- وعبد القادر الإشبيلي وضع كتاب «المحتوى» في خمسة عشر مجلداً.
- ومحمد بن راشد البكري: وضع كتاب «الفائق في الأحكام والوثائق» بسبعة مجلدات، خصصها جميعاً لتوثيق الأحكام الشرعية من القرآن.
- والشافعي: الذي وضع كتاب «الرسالة» و«الأم» وغيرها.
- وأحمد بن حنبل: واضع المسند، والمناسك الكبير، والمناسك الصغير، والناسخ والمنسوخ، والمتقدم والمتأخر.

وثمة فقهاء كثيرون، وكتب كثيرة، جميعها وجميعهم أخذوا مؤونتهم العلمية من القرآن ولم يكتفوا بما كتبوا بل اعتمدوا على المنطق التشريعي الأساسي فأخضعوا إلى مربَّع العدالة، أشد المسائل تعقيداً وغموضاً، عن طريق «الاستنباط» والقياس والعرف والاستحسان.

حيث وضعوا بما تقدم المفاتيح الشرعية التي تفتح أعقد الأقفال الاجتماعية فالغِنَى الشرعي الذي صيغ ببلاغة مضغوطة في القرآن أنجب ذلك الغنى التشريعي الذي سار مع الحكم العربي إلى أرجاء العالم فضبط حركة المجتمعات وأرسى موازين العدل والإنصاف وحقق الاستقرار والازدهار وقضى على الفوضى وحقق المضامين السامية التي اشتملت عليها الآية (الحجرات: ٤٩/١٣)[1] ﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ...﴾.

ولكن، يجب ألا ينسينا ذلك الامتداد التشريعي الذي انساح في أكثر قارات الأرض تحت ظل الحكم الإسلامي وحقق لنا السبق والسيادة على أمم ذلك الزمان أنه جمد على نصوصه دون تعديلٍ مواكبٍ لتعديل الأيام، فزحفت إليه الشيخوخة وأصيب بالتهاب المفاصل، وعجز عن الحراك.

---

[1] اعتباراً من بدء الحديث عن مجلة الأحكام العدلية، حتى (١) هو اقتباس من كتاب «التلاقي الإسلامي المسيحي» للمؤلف.

http://kotob.has.it

لقد أسبغنا صفة القداسة على جميع ما لدينا من تراث العادات والتقاليد، حتى تلك التي لا ترتبط بكتاب أو سنة. فقامت تلك القداسة. حائطاً فولاذياً يعجز التطور الحضاري عن اختراقه أو إحداث ثقب فيه.

أما الأمم: التي فصلت بين مفردات العبادة ومفردات التشريع فحجبت القداسة والديمومة عن التشريع الاجتماعي وأخضعته للتعديل على مقاس التطور الإنساني. فقد دخلت دنيا الحضارة من أوسع أبوابها. وما تزال تَغِذُّ السير على طريقتها المضيئة نستطيع أن نقول جازمين: بأن عدم تفريقنا بين ما لا يجوز تعديله وبين ما يجب تعديله أوقعنا في حالة الجمود على الماضي، والعكوف على مضغه بقشوره وبثوره.

ولولا أن نكون في صدد دراسة مزاعم «المستشرقين» بأن القرآن أخذ مئونته «العبادية والتشريعية من التوراة والإنجيل والكهنة التابعين لهما، لتوسعنا في أسباب تخلفنا وتقدمهم. وجمودنا ومرونتهم لذلك ــ وعلى مضض ــ نعود إلى موضوعنا الأساسي لنقول:

ــ إن القرآن لم يتفق مع التوراة الحالية إلا في التوحيد.

حتى التوحيد التوراتي المترجم إلى العربية يختلف عما هو عليه في العبرانية فالفقرة الأولى من الإصحاح الأول في التكوين التي قالت:

«في البدء خلق الله السماوات والأرض»، كانت في الرواية العبرانية:

«في البدء خلقت الآلهة السماوات والأرض» وكانت العودة بالخلق إلى المفرد من الجمع، في عهد سليمان على يد الفريسيين ــ كما يقولون: ولكن الفريسيين الذين عدلوا هذه الفقرة لم يستطيعوا تعديل العديد من الفقرات المنتشرة في أسفار التوراة التي تتحدث عن تعدد الآلهة. لا تختلف التوراة اليهودية عن سواها إلا في تركيزها على أن إله اليهود أقوى من جميع الآلهة الأخرى.

ــ فربُّهم يغضب عليهم لأنهم عبدوا آلهة سواه وأوقدوا لغيره

ــ وربهم يحب رائحة الشواء

ــ وربهم يقود جيوشهم لمحاربة الأمم التي تعبد سواه

ــ والوصايا العشر التي نوهنا عنها سابقاً بأنها حاجات اجتماعية عرفتها المجتمعات قبل أن يوجد موسى بآلاف السنين. ثم هي تكاد تكون بحرفيتها

http://kotob.has.it

مأخوذة عن قانون حمورابي، الذي عثر عليه تحت أنقاض مدينة السوس، مؤلفاً من (٢٨٥) مادة محفورة على جبهة عريضة من حجر الديوريت.

لقد كانت دهشة العلماء شديدة. حين قرأوا الوصايا العشر الموجودة في الإصحاح ٢٠ ــ من سفر الخروج بحرفيتها ومعانيها موجودة في المواد «١٢٩ و١٥٥ و١٥٧ و١٥٨» من قانون حمورابي الذي كتب بالحرف المسماري[1]. فإذا كان حمورابي قد عاش بين ١٧٩٣ و١٧٥٠.ق . الميلاد.

وكان موسى قد خرج بقومه من مصر في سنة ١٢٩٠ ــ ق.م

وأن بقية الأسفار الخمسة الأولى قد نزلت أثناء التيه. وأنه مات ودفن في الجواء بعام ١٢٥٠ق. م. فإن مدة تزيد على خمسة قرون فاصلة بينهما. وبالتالي يكون دس هذه الوصايا في سفر الخروج على أنها خاصة وميزة، بل هي ــ في نظر اليهود ــ أول حروف الحضارة. وقد نزلت عليهم تخصيصاً وتفضيلاً على البشر أجمعين، من الأسرار التي ظلت غامضة حتى تكشفت أنقاض السوس عن التفسير العلمي الصحيح.

حتى لو بقيت أنقاض السوس على تكتمها التاريخي ولم تنفرج بواطنها عن قانون حمورابي الذي فضح الإدعاء اليهودي. ففي مصر، حيث عاش بنو إسرائيل ٤٣٠ سنة كانت تقوم حضارة، وكان يقوم مجتمع متوازن مستقر قبل أن يدخل يعقوب إلى أرض مصر بألفي سنة.

إن مجتمعاً قامت فيه أول عجائب الدنيا (الأهرامات) لا يمكن أن يكون مجتمعاً منفلشا ــ منغلقاً على الجهل والفوضى، بحيث يسيح ويمرح فيه السارقون والقتلة والزناة وشهود الزور دون رادع.

طبعاً، لقد سردت هذه الوصايا في الإصحاح ٢٠ ــ من سفر الخروج على أنها «كلمات التنظيم» التي نطق بها الرب لأول مرة.

ولكن العديد من المؤرخين، ومنهم يهود . قالوا: حتى عهد «حلقيا الكاهن» و«يوشيا الملك» في القرن الخامس قبل الميلاد لم يكن لدى اليهود أية كلمة مكتوبة من التوراة. وأن موسى دفن في منتصف القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وبذلك يكون الفاصل بين موته وبين أول حرفٍ مكتوب في التوراة هو أكثر من ستة قرون.

---

[1] نصب الديوريت وجدوا عليه نقش القانون وفي أعلاه صورة لحمورابي، نقل إلى متحف اللوفر سنة ١٩٠٢.

http://kotob.has.it

لذلك يحسن بقارئ التوراة الحالية أن لا يهمل تاريخ الحوادث. وإذ ذاك يتبين لديه، إن جميع ما يراه من خوارق وتجديف على الله، وإحاطة رحمته وعدالته بسياج يهودي، إنما هو محمول على دوافع سياسية وغايات عنصرية.

وهذا يختلف شكلاً وموضوعاً عن التسلسل الطبيعي للحضارات، حيث قضت طبائع الحياة أن يأخذ المتأخر أحسن ما كان لدى المتقدم، يبني عليه ويعدل ويزيد وينقص وفقاً لحاجاته.

وإن كنا نختلف نحن وباقي الأمم والشرائع مع اليهود. فإن الاتفاق بين «المسيحية» و«الإسلام» واسع الطيف متعدد الوجوه فالاتفاق واضح وصريح في «التوحيد» و«التسامح» و«الانتشار الأممي» و«نبذ العنصرية» و«الإيمان باليوم الآخر» و«الرق» و«العبودية» و«السلوك الاجتماعي» و«تشابه المسيرة النبوية». وغيرها من كم التوافق الكبير سوف أكتفي هنا «بالتوحيد».

قال بعض المؤلفين: في المسيحية اعتقاد بتثليث الآلهة (آب ــ ابن ــ روح قدس) يبعدها عن التوحيد، وكل قول عن التوحيد في ظل هذا الثالوث، بعيد عن المنطق، إذ لا يعقل أن يكون ١ + ١ + ١ = ١. فأجاب الأب شنودة بذكاء كبير ١ × ١× ١ = ١ (كتاب أسئلة الناس)

والأب شنودة، لم يدع أنه بذلك قد أوجد في المسيحية ما ليس موجوداً بل أخذ ذلك من الثوابت العقائدية التالية:

ــ لقد تضمن قانون الإيمان النيقاوي، العبارة الصريحة التالية: «بالحقيقة نؤمن بإله واحد».

ــ حينما يصلي أي مسيحي على وجه الأرض، يجب أن تردف عبارة «باسم الأب والابن والروح القدس» بعبارة «إله واحد آمين»

ــ كلمة «الإله الواحد» جاءت في: «يوحنا: ٥/ ٤٤» و«متى: ١٩/١٧» و«مرقس: ٣٢ ــ ٢٩/ ٣٢» و«غلاطية: ٢٠/٣٠» و«يعقوب: ١٩/٢» و«أفسس: ٤/٥» و«رومية: ٣/٣٠».

ــ في اللقاء الأخير، قال السيد المسيح للتلاميذ: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس» (متى: ١٩/٢٨)

ولم يقل المسيح «بأسماء» مما يدل على أنهم واحد.

ــ الاقانيم في المسيحية لا فرق بينها، في حين أنها في الوثنية مستقلة في الاسم والشكل والمهمات. فالابن في المسيحية «عقل الله الناطق» أو«نطقه العاقل»

http://kotob.has.it

والبنوة في المسيحية «هي مثل قولنا: العقل يلد فكراً ومع ذلك هما جوهر واحد، أما الابن الجسداني إذ ينفصل عن الأبوين يصبح مستقلاً عنهما في الشكل والعقل.

إن ما قدمناه عن بعض وجوه التقاء القرآن بالكتابين واستقلاله عنهما، لا يعفينا من أن نقدم إلى القارئ بعض صور الإعجاز القرآني التي لا يمكن تصور صدورها عن عقل بشري. وإن ما سوف نقدمه،وما قدمناه سابقاً، ليس غير اليسير من كثير الإعجاز المبهر الذي لم نحط به جمعاً وإحاطة وجهداً وعلماً. وسوف نبدأ ــ قبل الدلالة على بعض صور الإعجاز ــ بإيراد أقوال بعض الفقهاء:

ــ سئل الغزالي «أبو حامد» عن معنى قوله تعالى:

ــ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٤/٨٢).

فقال: كلام الله منزّه عن الاختلاف. فهو منهاج واحد في النظم، آخره يناسب أوله. وعلى درجة واحدة في غاية الفصاحة، مسوّقه لمعنى واحد هو «دعوة الخلق إلى الله وحرفهم عن الدنيا إلى الدين». وكلام الآدميين تتطرق إليه الاختلافات. فكلام الشعراء والمترسلين فيه اختلاف في النظم ودرجة الفصاحة، فلا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان إذ يوجد في كل منهما «فصاحة وسخافة» والإنسان بشكل عام تختلف أقواله باختلاف أحواله. من حيث الحزن والفرح والانقباض والاسترسال. فلا يوجد شخص واحد يتكلم ثلاثاً وعشرين سنة حول غرض واحد وبنهج واحد، دون اختلال في التوازن اللغوي أو العقلي.

والنبي محمد (ﷺ) هو بشر خضع لقانون التكون والصيرورة البشريين ومرّ بالأحوال التي يمر بها كل إنسان. فلو كان القرآن من كلامه أو من كلام بشر سواه لوجد فيه الاختلاف.

ــ قال الشافعي: جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع ما في السنة شرح للقرآن

ــ وقال السيوطي في الإتقان: ما من شيء إلا أمكن استنباطه من القرآن، حتى لقد أمكن استنباط عمر النبي (ﷺ) من الآية وفي الآية (المنافقون: ٦٣/١١).

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

بعد ذلك نعرض بعض صور الإعجاز العددي والعلمي اقتباساً من مؤلفات العلماء الذين سهلوا ما نراه سهلاً.

http://kotob.has.it

ـ ففي كتاب «الإعجاز العددي في القرآن » قال المؤلف عبد الرزاق نوفل:

ورد لفظ إبليس	١١ ـ مرة	ووردت الاستعاذة منه	١١ ـ مرة
وردت كلمة الدنيا	١١٥ ـ مرة	ووردت كلمة الآخرة	١١٥ ـ مرة
ورد لفظ الملائكة	٨٨ ـ مرة	وورد لفظ الشياطين	٨٨ ـ مرة
ورد لفظ الحياة	١٤٥ ـ مرة	وورد لفظ الموت	١٤٥ ـ مرة
ورد لفظ السيئات	١٨٠ ـ مرة	وورد لفظ الحسنات	١٨٠ ـ مرة
ورد لفظ الرغبة	٨ ـ مرات	وورد لفظ الرهبة	٨ ـ مرات
ورد لفظ الأسباط	٥ ـ مرات	وورد لفظ الحواريين	٥ ـ مرات
ورد لفظ الجزاء ومشتقاته	١١٧ ـ مرة	وورد لفظ المغفرة	ضعف هذا العدد وهو ٢٣٤

ـ وفي كتاب الدكتور حميد النجدي «من الإعجاز البلاغي والعددي» ما يلي:

ـ كلمة «السبت ومشتقاتها» وردت ٩ مرات وكلمة «اليهود ومشتقاتها» وردت ٩ مرات لأن السبت، الذي يعني الانقطاع عن النشاط انقطاعاً نهائياً خاص باليهود، وذلك لورود تقديسه في وصايا الخروج (٢٠/١٠).

ـ كلمة «عزم ومشتقاتها» وردت خمس مرات وكلمة «الوهن » وردت ٩ مرات

ـ كلمة «أيْد وأيَّد» وردت ٩ مرات وكلمة «نقض» وردت ٩ مرات.

ـ كلمة «الإيثار ومشتقاتها» وردت خمس مرات وكلمة «الشح» وردت خمس مرات.

ـ كلمة «الرهبة ومشتقاتها» وردت ٨ مرات وكلمة «الرغبة ومشتقاتها» وردت ٨ مرات.

ـ كلمة «الأرائك» وردت خمس مرات وكلمة «الفرش» وردت خمس مرات.

* * *

بعد هذا الاقتباس المختصر. نضيف بعض صور «الإعجاز العلمي» إلى ما كنا قد قدمناه سابقاً.

ـ ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٢٤/٤٠).

http://kotob.has.it

لقد ثبت علمياً أن أضخم تيارات البحار هي التيارات العميقة. لذلك عبَّر القرآن عن العمق بلفظ «لُجِّيٍّ» لأن «لُجَّةَ» البحر حيث لا يدرك قراره. وبحرٌ لجي، أي واسع اللج. وقوله: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ دليل على أن التيارات الداخلية بعضها يعلو بعضها ويعلوها جميعاً سحاب مديد من الماء وتلف الجميع ظلمة ذات طبقات، بعضها فوق بعض.

ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ (النور: ٢٤/٤٢).

قبل استنباط الحقيقة العلمية من الآية. نضع القارئ أمام معاني كلمات «يزجي» و«ركام» و«ودق» .

ـ يزجي: أي يسوق برفق.

ـ ركام: من «ركم» أي: جعل الشيء فوق الشيء «ركام الرمل» «ركام السحاب»

ـ الودق: من «وَدَق» أي المطر شديده وخفيفه.

ـ ففي قوله: ﴿يُزْجِي سَحَاباً﴾ أي يرسل السحاب برفق، قال أحد الشعراء:

كأن مشيتها من بيت جارتها مرَّ السحابة لا ريث ولا عجل

ـ وفي قوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً﴾ أي: يجمع مفرداته ثم يضعها بعضها فوق بعض.

ـ وفي قوله: ﴿فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: إن التراكم ليس التحاماً يمحو المفاصل الحدودية، لذلك ينزل المطرَ من خلال ذلك التراكم. وفي العودة إلى التأليف بين السحاب. لابد أن نعرف أنَّ كل سحابة تحمل شحنة كهربائية، فواحدة شحنتها سالبة وأخرى موجبة. فالسالبتان لا تأتلفان، ولكن السالبة تأتلف مع الموجبة والتراكم هو كمية من السحب التي تحمل الشحنتين. فالتأليف، أي جمع السالب مع الموجب وتركيم هذا المؤلف، وتحويل حمولته إلى مطر، هو عمل إلهي يعجز البشر عنه.

ـ أما قوله: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ فقد ثبت أن حبات البرد تتكون في جبال السحاب المتراكم.

ـ وقوله: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ فقد ثبت علمياً أن التفريغ الكهربائي بين سحابتين مختلفتين في الشحنة الكهربائية التي تحملها كل منهما،

http://kotob.has.it

يظهر للعيان بشكل البرق وهو ذو حرارة مرتفعة، حتى إذا لامس شيئاً مادياً على الأرض أحدث صاعقة.

- ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا، فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا، فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ (مريم: ١٩/٢٣ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦).
- إن عبارة ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ هي دليل على العناء الذي تكابده المرأة عند المخاض، وهذا يلتقي مع قول القرآن، في الأحقاف ولقمان:
  - ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا... ﴾ (الأحقاف: ١٥/٤٦).
  - ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ...﴾ (لقمان: ١٤/٣١).
- إن عبارة ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي نهراً عذباً جارياً.
- إن عبارة ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾

قال الدكتور محمود مصطفى: نتساءل: لماذا الرطب؟ ويجيب: «إن أحدث بحث علمي عن الرطب يقول: إن فيه مادة قابضة للرحم تُساعد على منع النزيف بعد الولادة. وفيه مادة ملينة» «إن الحكمة الطبية العلمية لوصف الرطب وتوقيتها وتوقيت تناول الرطب مع المخاض فيه دقة علمية واضحة». (عدد ١٩٧٨/٣٠ ـ من مجلة العلم والإيمان).

* * *

http://kotob.has.it

كلمة في ختام هذا البحث:

لم أكتب ما كتبته عن إعجاز القرآن، والإعجاز في شخصية النبي (ﷺ) إلا رداً على نفي المؤلف للإعجاز بجملته.

لقد جرد القرآن من قدسيته واعتبره كتاباً بين أشباهه ذوي الدرجات المتفاوتة، الأفضل والأقل والمماثل.

وهوَّن من شخصية النبي (ﷺ) ففضل عليه «أمية بن أبي الصلت» ووازن بينه وبين مسيلمة، وسجاح، ومال عنه إليهما. وضغط بكلتا يديه على كفة الميزان حتى أهبط كفة محمد (ﷺ) إلى الحضيض.

لقد قارن، وحكم، في آن واحد. ولم يعن بجلب شيء عما تركه أمية ومسيلمة وسجاح. ولم يَعْنَ بتقديم أي نص عن أولئك الثلاثة معتقداً أن هذا التكليف ساقط عنه. ويكفي ــ في رأيه ــ أن يقول: أي واحد منهم أكفأ من محمد (ﷺ) وأشرف منه. وعلى سامع هذا القول، أن يستمع إلى هذا الجزاف، وإلا فهو جليس عليه أن يقوم من مكانه.

قلنا من قبل، مغفور للمؤلف ألا يعترف بنبوة محمد (ﷺ) أو بأخلاقه، أو بكتابه. ولكنه ــ وقد طرح نفسه باحثاً، وحزم كتابه مع كتب التاريخ التي يُنصح بالرجوع إليها، عند الحديث في تاريخ هذا الشرق وفي سيرة رجالاته ــ فهو لا يستحق الغفران، لأنه صدر عن عواطف، وقفز من فوق الحوادث التاريخية، ليقدمها إلى القارئ على طبق من الانتقاد الذي يخرج الكتاب عن موضوعه خروجاً فاضحاً.

ولولا التزامه «بحرفية التربية» والتحيز الطائفي، الذي يعثر عليه القارئ في أية صفحة من كتابه أو أية زاوية من زواياه. لكنَّا غفرنا له ضحالة ثقافته القرآنية واقتصاره على جَهَلة الرُّواة الإسلاميين، دون سواهم من الصحابة والتابعين في التعرف على شخصية النبي محمد (ﷺ).

على أننا وبين يدينا كتاب يتحدث عن تاريخ القرآن، بادئاً من البدايات ومنتهياً بالنهايات، من حقه وواجبنا، أن نقرأ ما فيه بالحياد العلمي الصارم، ملتفتين عن النوايا.

ــ فالمؤلف قرأ القرآن خطأ وفسره خطأ، وقدمه إلى القراء على طبق عامر بالأخطاء.

http://kotob.has.it

ـ والمؤلف لم يعرف أو لم يرد أن يعرف عن شخصية محمد (ﷺ) غير ما يسقطها عن موقعها بين عظماء الإنسانية. ولم يقرأ بل لم يرد أن يقرأ من القرآن غير ما جعله يراه كتاباً عادياً وجد في الماضي ويوجد في المستقبل ما يضاهيه ويتقدم عليه. لذلك قدمنا ما قدمناه من صور الإعجاز التي ينطوي عليها القرآن وصور الإعجاز التي دخلت في تركيب شخصية محمد (ﷺ) منذ الطفولة حتى الوفاة. فالمسافة بيننا وبين المؤلف بعيدة في التربية والاعتقاد والدراسة. هو ينتمي إلى بيئة تعتقد بكليتها بجميع ما وصف به القرآن ومحمد (ﷺ). ونحن ـ وإن كنا نؤمن بعكس إيمانه ـ ننبري هنا من موقع الحياد لا من موقع الاعتقاد، إلى الخطأ فنصححه وإلى الاعوجاج فنقومه. وعزوفنا عن الرد بغير الحكمة، قناعتنا بأن الغلط لا يصحح بالتحيز بل بالعلم والمنطق.

ومهمة هذه الخاتمة: أن ترفد بحث المعجزات التي بدأت في التكوين المحمدي. وبعض المعجزات التي تحدثت عنها آيات من القرآن.

وهذا البحث والرفد، نتوجه بهما إلى كل قارئ لأننا لسنا معذورين في الخطأ بقراءة القرآن وتفسيره. وفي الخطأ بالطبيعة الاستثنائية التي كانت تتمتع بها شخصية النبي محمد (ﷺ).

الإعجاز في شخصية محمد (ﷺ): الثابت لدى جميع كتاب التاريخ والسير:

ـ أن محمداً (ﷺ) تيتَّم وهو طفل، فربي وترعرع في كنف جده لأبيه، ولمَّا مات الجد كفله عمه أبو طالب، حتى بلغ وتزوج.

ـ وأنه عاش طول حياته، في صحراء، قاحلة، يابسة، شحيحة الماء والغذاء والثقافة.

ـ ومع أن أصنام قبائل العرب في مكة حيث كان. وأن أهله من بني هاشم هم السَّدنة، وبأيديهم إلى جانبها السقاية والرفادة، وكانت عبادة الأصنام سائدة.

نقول: مع هذا جميعه، لم يقل أحد من أعوانه أو أعدائه أنه سجد لصنم أو تعبد له. بل كان يلازم خلواته متعبداً بحنيفية جده إبراهيم الخليل، موجهاً وجهه إلى الذي فطر السماوات والأرض.

ـ ظل طوال عمره، لم تسجل عليه خطيئة أخلاقية أو خللٌ اجتماعي.

ـ وكان صادق القول، وفياً للوعد والعهد، أميناً على الأمانة. فصيح اللسان، ثابت الجنان، لا يخشى غير خالقه.

http://kotob.has.it

قال لعمه ــ وكانت رسالته في المهد ــ وكان الملأ يصفون معتنقيها بالأراذل: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركنه حتى يظهره أو أموت دونه.

قال ذلك القول فيما كان وتابعوه ورسالته يمرون في ظروف تزلزل الرواسي.

قال ذلك القول ردّاً صاعقاً، على قول عمه: يا ابن أخي هؤلاء الملأ من قريش يعرضون عليك المال والسلطان على أن تكف عن آلهتهم وعاداتهم.

ــ لقد صبر مثلما صبر من قبله الرسل، على التكذيب والأذى والجوع والتحقير حتى لقد طرد مع بني هاشم جميعاً من مكة إلى شعابها وظلوا طول سنين تحت الحصار حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر من الجوع.

ــ ولكن الله الذي لم يخذل أياً من رسله، نصره وأعاده إلى مكة فاتحاً ــ فحطم الأصنام ــ ونشر الأمن، وقال لمن ناصبه العداء وأفرغ عليه أطنان الإهانات: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»

ــ رسالته توجهت إلى الناس جميعاً. فاختصرت مطلوبها من الإنسان «بتوحيد الله» و«والدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر» بين عباد الله.

ــ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً...﴾ (الأعراف: ٧/١٥٨).

ــ لقد ظل على عزمه ــ وهو واحد من أولي العزم ــ طول حياته. ينشر الأخلاق الفاضلة طوال عمره، ويربي الناس على أكرم المزايا. وكان دوماً يقول:

ــ ما دخل الرفق بأمر إلا زانه ولا خرج منه إلا شانه.

ــ ما وسعتم الناس بأموالكم بل بأخلاقكم.

ــ المسلم ليس بلعَّان ولا طعَّان ولكن الآمر بالمعروف.

ــ وحينما شاهدته تلك المرأة يجلس مع الفقراء ويأكل بيده قالت: انظروا إلى هذا الرسول يجلس مع العبيد ويأكل معهم. قال: وهل هناك من هو أعبد لله مني؟

ثم لم يقبضه الله إليه حتى كانت الجزيرة العربية مؤمنة بإيمانه عاملةً بمنهج قرآنه، تاركاً لتلاميذه من بعده أن ينشروا مبادئ الرسالة في أرجاء الكون. فانطلقوا ممتلئين بالإيمان ورفعوا رايات الإسلام فوق بلاد الشام وفارس وإفريقيا، وسهلت خيولهم على جبال البيرنه والأمانوس ودقت قبضاتهم أبواب روما ولابواتيه. هذا الدين الذي سماه المؤلف «حزباً سلطوياً» قامت قواعده وتعاليمه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبغي

http://kotob.has.it

و«الحنف عن العقائد الباطلة»[1]. وتسليم الأمر لفاطر السماوات والأرض وهي: مهما بولغ في تخفيف موازينها ــ استطاعت أن تدخُل إلى الصدور وتقيم من الضمائر رقباء على جميع الأمور. فسادت في جميع الأمصار، قاعدة تحكمت في سلوك الناس. وضبطت نشاطهم اليومي وهي: «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه، فإنه يراك».

هذه الجواهر الإسلامية، هي حقائق القرآن، وسيرة النبي (ﷺ). وعليها ومن خلالها يُدْرَس الإسلام ويقيَّم وليس على الظروف اللاحقة التي أسقطت الضمير عن عرشه، ووضعته في المخفر، سجين الألفاظ القانونية اليابسة فاستولت الفوضى على قيادة الأمور، واستطاع الخبثاء أن يخرجوا من شقوق القوانين.

ونحن نظلم أنفسنا، ونظلم الحقيقة إن لم نر الانهيار الأخلاقي إلا في مجتمعنا لأن انهيار الخلق والطغيان المادي على القيم افترس جميع المجتمعات. ولن نتهم بالابتعاد عن الإنصاف إن قلنا: إنَّ نسبة الافتراس المادي هي في المجتمعات الأوربية أكثر انتشاراً وأقدم عمراً، لذلك: كان على الباحث أن يقرأ الإسلام في القرآن. وأن يقرأ حقائق الشخصية المحمدية من خلال أعمال محمد (ﷺ) وأقواله أثناء حياته. لا أن يعتمد في دراسته على افتراضات «أناس» تحدثوا عنها تخميناً، مع أن ما يفصل أقدمهم من الزمن عن الرسول (ﷺ) والدعوة عدة قرون.

ومع هذا، فقد كان الاعتماد «اقتناصاً وتجزئة» واختياراً تحكمت فيه عواطف التحزب لا عواطف العالم. وإلا فما قولك بمن يرفع ابن الراوندي فوق الرؤوس. ويطنب كثيراً في مصداقية ابن أبي السرح. ويترك الصحابة، وثقاة المؤرخين. ويبتعد عن نصوص القرآن والسيرة الصحيحة؟.

المؤلف كباحث ليس معفياً من التفتيش الشديد عن الحقيقة التاريخية وإن وجدها ليس معفياً من سردها بكل أمانة. وإن قصر في أحدهما أو كليهما عن قصد أو غير قصد. يأخذ عليه ذلك أرباب العلم والأدب.

---

[1] الحنف هو الميلان. وفي الاصل كانت تطلق على ميلان في القدم لذلك سمي «صخر بن قيس» «بالاحنف بن قيس» لإعوجاج في قدمه. وقد أخذت معناها الإسلامي من التحنف عن باقي الاديان والميلان إلى الحق. وقيل: الحنيف هو من يستقبل القبلة، وقيل: هو من أسلم لأمر الله ولم يلتو، فهو حنيف .

http://kotob.has.it

لقد اعتمد المؤلف في كتابه « تاريخ القرآن» على طي الحوادث وليّها وصياغتها على مقاس عواطفه وعواطف أقربائه. واستحسن جميع الروايات التي تسيء إلى الإسلام والنبي (ﷺ). واستبعد جميع ما سوى ذلك.

هذه الطريقة، قد تكون مقبولة عند بعض الناس. ولكنها حتماً غير مقبولة عند المؤرخين وقرّاء التاريخ الذين ينتظرون سفراً من الحوادث الموثوقة.

لقد أنجبت مدرسة محمد، على مستوى القيادتين السياسية والعسكرية من هم فخر للإنسانية جمعاء.

هل عرف عصر ذلك الزمان؟ أم هل عُرف في أي عصر ملك أو رئيس جمهورية وقف أو يقف بين رعيته ليقول خاطباً فيهم مثلما قال الخليفة الأول: «أيها الناس: لقد وُلّيت عليكم ولست خيركم ــ أطيعوني ــ ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، القوي عندي ضعيف حتى استرد منه الحق والضعيف عندي قوي حتى أرد له الحق.

هل في غرب هذا الذي يهزأ بتاريخ الإسلام من يذهب وحيداً من دار الرئاسة مثلما فعل الخليفة الثاني ويتمدد على الرمل تحت الشمس الحارقة وينام منفرداً في جوف البرية فيقف موفد قيصر عند رأسه ويقول: عدلت يا عمر فأمنت فنمت أما ملكنا فقد جَار فامتنع النوم عن عينيه.

هل عرف ذلك الزمن أو سواه. شخصاً، قلده الناس أمور السلطة ليضمن الاستقرار ويمنع الفوضى. يصرخ في العبد المطرق استخذاءً وذلاً قائلاً له: «ارفع رأسك ولا تكن عبد غيرك فقد خلقك الله حراً»[1].

عاد موفد القيصر إلى ملكه وقال: جئتك من عند رجل يعس على رجليه بالليل ماشياً وقد فتحت له مشارق الأرض ومغاربها. (يقصد عمر بن الخطاب الذي كان يقوم بالعسس في الليل) رجل يحمل على ظهره كيس الحب إلى الفقيرة في الليل، لكي تطعم أطفالها.

قال موريس بوكاي في كتابه «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة»: «إن الأحكام المغلوطة التي تصدر في الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حيناً والتسفيه العامد حيناً آخر وإن كنا نغفر الأخطاء لمن أخطأ عن حسن نيّة فإننا لا نستطيع أن نغفر لمن يقدم الواقع بصورة تنافي الحقيقة.

---

[1] هو الخليفة الرابع «علي بن أبي طالب».

http://kotob.has.it

بل: إننا لَنُصابُ بالذهول عندما نقرأ في أكثر المؤلفات جدية، أكاذيب صارخة بالرغم من أن المؤلفين أكفّاء في المبدأ». (ص ــ ١٣٥ ــ)[١].

ويتابع: هناك نظرية من تلك النظريات نوردها للمثال فقط وهي: إننا نستخدم كلمة «الله» في أبحاثنا استخداماً منهجياً متميزاً فنعتبرها خاصة بالمسلمين كما نعتبرها مخالفة لكلمة «ديو» التي هي الإله في أوربا وأمريكا وعندما نترجم كلمة «الله» من أحد الكتب الإسلامية لا نترجمها بكلمة «ديو» بل بكلمة ــ ALLAH[٢].

ويقول في حاشية الصفحة ١٣٦: «كان كل شكل من أشكال الإسلام يتلقى تأييداً حاداً حتى ولو صدر عن أعداء حقيقيين للكنيسة. فالبابا بينوا الرابع عشر الذي اشتهر بأنه أكبر حبر في القرن الثامن عشر لم يتردد في مباركته «فولتير» شكراً له. على إهدائه مسرحيته التراجيدية «محمد أو التعصب» (١٧٤٧) وهي مسرحية هجائية فجه يستطيع أن يكتب مثلها أي أديب سيئ الضمير وقد لقيت المسرحية صيتاً واسعاً سمح أن تسجل في قائمة مؤلفات «مسرح الكوميدي فرانسيز»

ويتابع: في ص ــ ١٣٧: «من هنا نفهم احتجاج المسلمين على العبارة التي كانت شديدة الشيوع وهي النقل الحرفي في اللغات الأوروبية للفظة الله «Allah» بدلاً من الترجمة بكلمة «ديو ــ Dieu» للفرنسية فقد امتدح مثقفون مسلمون ترجمة «ماسون للقرآن لأنها كتبت أخيراً كلمة ــ Dieu ــ بدلاً من كلمة ــ Allah»

ويتابع في ــ ص ــ ١٤١:

كانت أوروبا في القرون الوسطى في تزمُّتٍ مطلق. وبعد عصر النهضة كان رد الفعل الطبيعي أن يأخذ الأوروبيون بثأرهم من منافس الأمس. وهذا الثأر مستمر حتى الآن. حتى لقد وصل إلى التطرف في نبذ كل شيء يقول به الشرق.فلقد حاول عالم بارز في الطب، حائز على جائزة نوبل، أن يقنعنا بقبول نظريته بأن المادة استطاعت أن تخلق نفسها بنفسها. وابتداءً منها تشكلت الكائنات بالتدريج حتى وصلت إلى الشكل المعجز الأخير. (شكل الإنسان). (انتهى الاقتباس)

---

[١] ما أشد انطباق هذا القول على كتاب «نولدكه».

[٢] اقتباس من ص ــ ١٣٥ ــ.

http://kotob.has.it

ومع هذا فلم يستَخزِ المسلمون ولم يستسلموا، بل دافعوا عن ثوابتهم. فكلمة الله التي لم يرها الأوروبيون معبرة عن خالق الأرض والسماء.

قال المسلمون: لقد اِشْتُقَتْ هذه الكلمة من «أَلِهَ» بمعنى «تحيَّر» وهي حالة المخلوق حينما يتفكر بالخالق. إذ لن يحصل إلا على الحيرة المطلقة.

فإن حذفت حرف الألف من الكلمة بقي منها «لله» وهي كلمة تشير إلى الملك حيث عبرت الآية (آل عمران: ١٨٩/٣) عن هذا الملك حين قالت

ـ ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾

وإن حذفت حرفي «الألف» و«اللام الأولى» بقيت كلمة «له» وهي تعني ما تفرَّد به هذا التفرد أشارت إليه الآية (الأعراف: ٥٤/٧) والآية (التغابن: ١/٦٤).

ـ ﴿...أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: ٥٤/٧).

ـ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (التغابن: ١/٦٤).

وإن حذفنا الحروف الثلاثة الأولى «الألف واللام الأولى والثانية» بقيت الكلمة «هو» التي تعني المجهول الذي لا يدرك. أي العودة إلى الحيرة.

يقول المسلمون، لمن يتهمهم بالجهل، إذ يطلقون على الخالق اسم الله. الذي اشتقوه من حيرتهم فيه: هل مر في تاريخكم أو أدبياتكم أن مخلوقاً رأى الخالق أو تكلم إليه مواجهة؟

نعم جاء في الفقرة العاشرة من الإصحاح ٣٤ من سفر التثنية: «ولم يقم بعد من بني إسرائيل نبي مثل موسى الذي عرفه الله وجهاً لوجه». (٣٤/١٠) ولكن هذا النص تواجهه الشكوك المنطقية التالية:

١ ـ لقد ورد النفي في الفقرة مبتدءاً بحرف لم.

٢ ـ المقارنة بين موسى والأنبياء غير مجدية إلا إذا اعتبرنا أن الكتابة حصلت بعد موسى وظهور الأنبياء والاستيثاق من فضل موسى وتقدمه عليهم.

٣ ـ وإن كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ فإن كتابة هذا السفر حصلت بعد موسى وظهور أنبياء في بني إسرائيل وإجراء المقارنة بينهم وبين موسى.

٤ ـ لقد أثبت المؤرخون:

ـ إن موسى خرج بقومه من مصر في سنة ١٢٩٠ ق. م.

ـ وأنه تاه مع قومه في سيناء أربعين سنة ثم مات ولم يدخل أرض الكنعانيين.

http://kotob.has.it

ـ إن أول سفر وجد مكتوباً هو ما زعم «الكاهن حلقيا» أنه وجده في الهيكل. وكان ذلك بعهد الملك يوشيا الذي حكم «يهوذا» بين ٦٤٠ و ٦٠٩ ق. م[١].

ـ بعد قرن ونصف تقريباً ـ كما يقول «وول ديورانت في قصة الحضارة»[٢] وبالتحديد كما قال في سنة ٤٤٤ ق.م ادعى الكاتب الكاهن عزرا أنه وجد «كتاب شريعة موسى» وقد قرأه على الشعب هو وزملاؤه اللاويون.

من هذه الملاحظات الثابتة تاريخياً ومنطقياً، يتضح أن «التثنية» وغيره من الأسفار السابقة له (العدد، اللاويين، الخروج، التكوين) التي زعموا أنها كلام من الرب مباشرة إلى موسى. كتبت بعد موت موسى بأكثر من ثمانية قرون.

هذا عدا عن الأسفار التوراتية الأخرى البالغة أربعة وثلاثين سفراً.

لذلك:

ـ وُجد عند أكثر الباحثين والمؤرخين شك في صِحَّة ما جاء التثنية وسواه.

بل قامت قناعة لديهم أن كتابة التوراة الحالية كانت محكومة بدوافع سياسية

ـ وهذا يدعم رسوخ القائلين باستحالة رؤية الله أو الكلام المباشر معه.

وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله:

ـ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: ٤٢/٥١).

فالله عليٌّ عن الإدراك بالأبصار. والوحي، جاء إلى داوود، حيث أوحي إليه بالزبور ومن وراء حجاب: مثل موسى. أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه: مثل محمد (ﷺ) الذي أرسل إليه جبرائيل فأوحى إليه القرآن بإذن الله.

وإنه لمن الواجب على كل منصف أن يعترف بعمق العدالة التي تضمنتها وثيقة الفاتيكان الصادرة بعام ١٩٧٠ ـ التي تحدث عنها بوكاي في ص ١٣٨ وما بعدها نقتبس من تلك الصفحات ما يلي:

«وثيقة الفاتيكان الفكرة التي شاعت بأن الإسلام هو دين الرعب وعدم كفاية الأخلاق وفي الواقع: لم يكن الإسلام عبر التاريخ أكثر تعصباً من المدنية المسيحية.

---

[١] كان إيجاد السفر في السنة الثامنة عشرة لحكم «يوشيا» (الملوك الثاني ـ ٢٢/٨).

[٢] المجلد (١ ـ ٢) ص ٣٦٦ من ٢.

http://kotob.has.it

والجهاد الإسلامي لم يكن في حقيقته للإبادة، بل كان لكي يمد حقوق الله والإنسان إلى مناطق جديدة ففي الحروب الصليبية ــ مثلاً لم يكن المسلمون هم الذين ارتكبوا أكثر المذابح. لذلك يجب:

ــ الاعتراف بالمظالم التي ارتكبها الغرب في حق المسلمين

ــ والتخلي عن الصورة البالية التي أورثنا إياها الماضي مشوهة بالافتراء وعدم التبصر.

وما دام بوكاي قد أورد شيئاً عما تضمنته وثيقة الفاتيكان عن المذابح الصليبية فإننا نقدم فقرات من الصفحات ٢١ ــ ٢٥ من قصة الحضارة ــ مجلد (١٥-١٦) «وصف ديورانت الحملة الصليبية الأولى» فقال:

امتدت ما بين ١٠٩٥ ــ ١٠٩٩ م . وكان أبرز ما جرى فيها هو فظائع القدس. كان فرسان الغرب الأشداء، أنصاف الهمج، يحتقرون سادة الشرق المثقفين المخادعين. ويرون أنهم مارقون من الدين محنثون مترفون.

وبعد حصار للقدس[1]. استمر أربعين يوماً قاد «جودفري» و«تانكرد» في الخامس عشر من شهر يوليه رجالهما الذين تسلقوا سور المدينة ونزلوا ففتحوا الأبواب وتم لهم النصر.

يقول القس ريموند الإجيلي: شاهد العيان: وشاهدنا أشياء عجيبة. إذ قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين وقتل غيرهم بالسهام أو أرغموا على أن يُلقوا أنفسهم من فوق الأبراج. وظل بعضهم الآخرون يعذبون عدة أيام ثم أحرقوا في النار.

ويروي غيره من المعاصرين تفاصيل أدق ويقولون: كانت النساء يقتلن طعناً بالسيوف والرماح. وكان الأطفال الرضع يختطفون بأرجلهم من أثداء أمهاتهم ويقذف بهم من فوق الأسوار أو تهشم رؤوسهم أو تدق بالعمد. وذبح السبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة.

(قصة الحضارة ــ ص ٢١ ــ ٢٥ من المجلد ١٥ ــ ١٦)

لذلك إذا أشارت وثيقة الفاتيكان إلى المذابح الصليبية وإذا نوهت بضرورة محو الصورة الخاطئة التي رسمها الماضي في العقل الغربي. فهي بحق وثيقة بمنتهى الإنصاف والأخلاق والإصلاح والجرأة.

---

[1] كانت تسمى« إيليا » وهو القسم الأول من اسم الإمبراطور الروماني «إيليا هادريان» الذي دمرها في عام ١٣٠م وذكرت بهذا الاسم في الوثيقة العمرية، ثم ظلت عليه إلى استرجاعها من الصليبيين على يد صلاح الدين الذي سماها ــ القدس ــ.

http://kotob.has.it

فالتعصب الذي قرأه الغرب في مسرحية فولتير التراجيدية «محمد أو التعصب» ثبت كذبه حينما قرءوا في الترجمة الصحيحة للقرآن:

- ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ (الكهف: ١٨/٢٩).
- ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ...﴾ (البقرة: ٢/٢٥٦).

وحينما استعادوا قراءة تاريخ القدس فوجدوا:

- أنها خربت وهدمت مرتين في عهد «تيتس» و«هادريان».
- وأنها فتحت في عهد عمر (قبل الفتح الصليبي بحوالي خمسة قرون) فلم ترق فيها نقطة دم. ولم يهدم بيت، ولم تقيد عقيدة في ممارسة طقوسها.
- دخلها الصليبيون بعد عمر بخمسة قرون فارتكبوا المذابح التي اقتبسنا بعض صورها من «قصة الحضارة»
- دخلها صلاح الدين بعد مئة سنة تقريباً من الفتح الصليبي، فلم يسفك فيها دم ولم يجر ضغط على أحد، في عمله أو حياته أو طقوسه.

قلنا: ونكرر القول: لو التزم المؤلف بمهمته التاريخية.

وقلنا: بعد التجاوز التاريخي وبعد أن تحول إلى ناقد انتقائي، يعرض ويثني على ما يحب فقط: لو التزم بمبدأ الحياد العلمي، والسرد التاريخي الدقيق، لما حصل رد فعل من أي منصف.

ولكن كيف يمكن الوثوق في مصداقية أفكاره. وهو لا يرى في القرآن ولا في سيرة النبي (ﷺ) غير النهب والإضرار بحق الحياة والعبادة والعمل لدى غير المسلمين؟

كيف يمكن الوثوق في صفاء نيته وهو يؤكد أن القرآن حصيلة جنون كان ينتاب محمد (ﷺ). وأن القرآن كتاب عادي؟ وهو ــ أي المؤلف ــ لو قرأ شيئاً عن الإعجاز المتعدد في القرآن لأدرك أن ذلك دليل على مصدر الإعجاز وهو الله الذي لا يعجزه شيء.

والمؤلف الذي توغل في تاريخ القرآن وقدم ركاماً مكثفاً في ثلاثة كتب. بالتاريخ واللغة، والعقيدة، والنقد. تواجهه العقبات التالية: إنه لم يعاصر الدعوة. ولم يعاصر من عاصرها. لذلك: اعتمد على من كتب متأخراً عن النزول: «أسبابه» و«كيفيته» و«مكان النزول». وبالتالي لم يقدم شيئاً حققه بنفسه. وما دام أن الأمر كذلك. فقد كان عليه ألا ينتقي من المؤرخين من هو أكثر كراهية للنبي والرسالة، أو ممن طعن الكثيرون في صدق رواياته.

http://kotob.has.it

مثلاً: يصرخ بصوت عالٍ، قائلاً نزلت الآية الفلانية في المدينة ولكنها تتربَّع الآن في سورة مكية. وهو لو كان حياديَّ العبارة والبحث لوجد في عشرات المراجع التي صدرت عمن عاصر نزول الآيات وعاين كيفية ترتيبها. من الصحابة والثقاة الذين لا يطعن في مصداقيتهم. أن النبي (ﷺ) حينما كانت الآية تنزل، يقول ضعوها في المكان الذي جاء فيه كذا وكذا. وأن هذا الترتيب وإعطاء كل مجموع اسما وإطلاق لفظ السورة على كل عنوان. هو وقف على النبي (ﷺ) دون سواه.

لذلك سمي هذا التصرف عملاً توقيفياً. فتوزيع الآيات على المجاميع دون التقيد بزمان أو مكان كان بتصرف النبي (ﷺ) الذي لا يسأل عن ذلك ــ لأنه الأدرى ــ

وقد قرأ الناس، تلك الآيات في أماكنها، دون اعتراض. منذ ذلك الوقت فكيف غفلوا عن «عورية قرآنية» أدركها المؤلف بعد أربعة عشر قرناً؟

أما ما حصل في زمن عثمان: من جمع المصاحف واعتماد المتفق عليه الذي لم يتضمن هوامش تفسير بشرية، وتحريق غير المعتمد. ووضع الطوال المدنية في أول المصحف، والقصار المكية في آخره. فتلك جميعها أعمال توفيقية ــ بشرية. وهي قد جرت على مرأى ومسمع وموافقة الصحابة وممن كان الإيمان بالقرآن يملأ الصدور. إلى حد استعذاب الموت في سبيله فلم يجدوا فيها مروقاً ولا تعرضاً ولا تعريضاً. فقرأوا ذلك القرآن واعتمدوه وأورثوا ذلك من جاء بعدهم إلى يومنا هذا.

واجتهاد عثمان، لم يكن بدعاً في التاريخ فقد جرى للإنجيل ما جرى للقرآن في عشرينات القرن الرابع الميلادي.

ففي المجمع المسكوني الذي عقد بنيقية[1] في عام ٣٢٥ ــ الذي دعا إليه الإمبراطور قسطنطين وضع أول اعتماد على أناجيل بعينها.

وفي عدد المجتمعين وما تم فيه تحدث بإسهاب ابن البطريق وهو مؤرخ قبطي مصري في تاريخ الأمة القبطية نقتبس منه، فقرات كان قد دونها «الإمام محمد أبو زهرة» في ص ١٢٧ ــ وما بعدها «من محاضرات في النصرانية».

ــ «اجتمع في نيقية بعام ٣٢٥ م بأمر من الإمبراطور قسطنطين ثمانية وأربعون وألفان (٢٠٤٨) من الأساقفة. كانوا مختلفين في الأداء والأديان».

---

[1] يقول بوكاي في ص ٩٩ من كتابه: «لقد فادت وفرة الروايات عن المسيح الكنيسة في مرحلة انتظامها إلى استبعاد الكثير من المؤلفات وربما كان ما حذف أكثر من مئة إنجيل.

http://kotob.has.it

- «كان وراء كل رأي عدد من الأساقفة يدافعون عنه. ولقد كان مع آراء آريوس سبعمائة أسقفاً، وهو أكبر تجمع بين المجتمعين.
- منهم من قال بألوهية المسيح، مثلما قال بولس الرسول وكان عددهم ثلاثمائة وثمانية عشر، وقد انحاز الإمبراطور إلى هذا الرأي واعتمده.
- «أمر المجمع بتحريق الكتب والرسائل التي تخالف رأيه وتتبعها إلى كل مكان. وحث الناس على عدم قراءتها»
- «حرم كثيراً من كتب العهد القديم ولم يعترف بها ثم اعترفت بها المجامع من بعده».
- «حرم رسالة بولس إلى العبرانيين» و«رسالة بطرس الثانية» و«الرسالة الثانية والثالثة ليوحنا» و«رسالة يعقوب» و رسالة يهوذا» و«مشاهدات يوحنا»

فالإسلام واجه الانقسام في الرأي مثلما واجهته المسيحية.

ومثلما قضت المسيحية على الانقسام باعتماد الأناجيل الأربعة وتحريق الأناجيل الأخرى، هكذا أراد عثمان توحيد كلمة المسلمين، باعتماد هذا المصحف وتحريق ما سواها، التي كانت أكثر متونها الإلهية مختلطة بالحواشي والتفسيرات البشرية. لذلك وخوفاً من أن يأتي على المسلمين زمن لا يستطيعون أن يفرقوا بين الإلهي والبشري قام بتحريق هذا النوع مما جعل الإمام علي يقول في ذلك كلمته «رحم الله عثمان، لا تغالوا فيه فتقولوا إنه حراق المصاحف، إذ لم يعمل ذلك إلا بعلمنا ورأينا».

لهذه الأسباب متحدة ومنفردة: لم نجد حاجة إلى الالتزام بآراء المؤلف. وفي استطاعة الراغبين منا، بالرفاهية التاريخية أن يعودوا، إلى المراجع ذاتها التي عاد إليها المؤلف. وإلى سواها، وخاصة تلك التي تعارضها وتقدم حججها في معارضتها. وإذ ذاك سوف يجدون فيها عكس ما وجده المؤلف تماماً.

ولكن ما حيلتنا في المؤلف وأضرابه من المستشرقين.؟

لقد أوضحت وثيقة الفاتيكان درجة تردي الضمير في صدورهم إذ قالت:

«كان الإسلام في بلادنا، ومنذ عهد طويل موضوع ما يسمى بالتشهير الأزلي. إن أي غربي قد امتلك معرفة عميقة للإسلام ، يعرف إلى أي حد شوه تاريخ الإسلام وعقيدته وجهاده.

ويتابع: إن هناك أجزاء من القرآن، وخاصة ما كان لها ارتباط بالعلم. قد ترجمت بشكل سيئ أو علق عليها بحيث يكون من حق العالم أن يدفع وهو على حق في الظاهر بانتقادات لا يستحقها القرآن في الواقع (بوكاي ــ ص ١٤٣)

http://kotob.has.it

ثم يتابع ــ في ص ١٤٣ وما بعدها: «إن المترجمين الحديثين تبنوا تفسيرات المعلقين القدامى. وأولئك ــ أي القدامى كانوا معذورين في جهلهم بما تنطوي عليه الكلمة القرآنية من المعاني.

أما المحدثون اليوم فلا يستحقون العذر لأنهم يملكون العناصر التي تعطي المعاني الحقيقية» (ص ــ ١٤٣)

لقد تحدثت آيات القرآن عن كثير من الأمور التي ظلت ألغازاً مستعصية على الفهم زمنا طويلاً حتى انكشف الغطاء عن عقول العلماء. فملأوا الكتب بالنظريات العلمية، التي وجدوا أنها مسبوقة بما تضمنته آيات القرآن:

نسبة البر إلى البحر، حركة الأرض ودورانها. الجاذبية والمد والجزر. الشمس المتوقدة والقمر المنير. تطور الجنين من النطفة حتى «صار خلقاً آخر». اتساع الكون. الجبال التي توزعت في الأرض بمقدار حاجتها إلى التماسك.

ثم ذلك التوازن الذي حافظت عليه آيات القرآن العديدة. والتي لا تزال من المعجزات التي لم يستطع أحد اكتشاف كنهها. فمبدأ الإثنينية ــ الذي كنا قد نوهنا عنه سابقاً ــ الذي يقوم على «الضدية» أي الشيء وعكسه، إذ يتساويان في عدد ورودها بالقرآن.

تم التناسق في:

- العدد (١٠) ٤ ــ مرات
- العدد (١١) ٣ ــ مرات
- العدد (١٢) ٤ ــ مرات
- العدد (١٣) ٣ ــ مرات
- العدد (١٤) ٢ ــ مرة
- العدد (١٥) ١٦ ــ مرة
- العدد (١٧) ١٧ ــ مرة
- العدد (١٨) ١٨ ــ مرة

(انظر كتاب: الاعجاز البلاغي والعددي للقرآن)

تأليف ــ الدكتور حميد النجدي ــ

http://kotob.has.it

فهناك:

- الثنائيات ١٤ ــ مرة
- الثلاثيات ١١ ــ مرة
- الرباعيات ٢١ ــ مرة
- الخماسيات ١٤ ــ مرة
- السداسيات ٣ ــ مرات
- السباعيات ٥ ــ مرات
- الثمانيات ٤ ــ مرات
- التساعيات ٥ ــ مرات

وللتوضيح نقول: إن هذا التسلسل الرقمي محافظ عليه في القرآن. فتأتي الكلمة، بالعدد ذاته، الذي تأتي به الكلمة المعاكسة فمثلاً: الرباعيات «كلمة الشيخ وكلمة الطفل» وردت كلمة «شيخ أربع مرات: في الآية ٢٣ ــ من القصص» و«الآية ٧٢ ــ من هود» و«الآية ٧٨ ــ من يوسف» و«الآية ٦٧ ــ من غافر» ووردت بالمقابل كلمة طفل أربع مرات: في «الآية ٣١ ــ من النور» و«الآية ٥ ــ من الحج» و«الآية ٦٧ ــ من غافر» و«الآية ٥٩ ــ من النور»

وهكذا جميع الثنائيات والتناسقيات. والأمر الأشد غرابة، هو التوافق الاشتقاقي. ففي المثال الذي قدمناه:

- وردت كلمة «شيخ مرفوعة» مرة ووردت شيخاً، منصوبة، ووردت شيوخاً، فهي منصوبة في حالاتها الثلاث الأخيرة.
- كذلك وردت كلمة «طفل، وطفلا، وأطفالاً» ذلك التساوي الدقيق، بإيراد الشيء ونقيضه. ضمن آلاف الآيات، لا يمكن أن تكون من ترتيب شخص بشري. ولو كان محمد هو الذي رتب تلك الأمور لكان حقه لدى المؤلف، أن يعتبره استثناء بين الخلق منذ بدء الخلق.

ولكنها ــ كما يقول المسلمون ويعتقدون وكما قال محمد واعتقد ــ

- ﴿...صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ (النمل: ٢٧/٨٨).

وبذلك يبقى «مبدأ الاختيار» الذي قامت عليه «حكمة الثواب والعقاب»

* * *

http://kotob.has.it

والأمثلة التي قدمناها عن بعض الإعجاز العددي والاشتقاقي والتناسقي ليست جميع إعجاز القرآن. فرزمة القواعد الأخلاقية والتشريعية التي حفظت المجتمعات من التفكك لا تقل عما تقدم من إعجاز ذلك على ضخامته وشموله ــ التفت عنه انتباه المؤلف واستقر على ما رفضه الفاتيكان ــ «التشهير الأزلي». فهو ــ حتى في سرد الوقائع التاريخية ــ سردها «مطعوجة» ثم سلط عليها النقد والتشفي ــ وهي في الحالة التي ألقاها بها.

ففي مقدمة الأخلاق الاجتماعية: طلب القرآن من جميع الناس أن يتجهوا إلى الله. وأن يضعوا الحسنات في ميزان الله. وأن يؤمنوا بيوم الحساب. ولكنه ــ في ذات الوقت ــ طلب منهم العمل لدنياهم، لأن الله أراد أن يظل الكون معموراً إلى أن يقضي بشأنه ما يشاء. فقال:

ــ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا... ﴾ (القصص: ٢٨/٧٧).

ومع هذه الأوامر الإلهية، «وابتغ»، «ولا تنسى» فقد حذر من طغيان الافتتان بالدنيا على اليقين بالآخرة وقال:

ــ ﴿...أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (التوبة: ٩/٣٨).

وفي الأثر الإسلامي: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً». هذا الترافق بين الدين والدنيا، هو «الوسط الإسلامي»

ــ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً... ﴾ (البقرة: ٢/١٤٣).

أي هو الوسط بين الزهد المطلق في الدنيا الذي عبرت عنه الآية ١٥ من الإصحاح ١٢ ــ من إنجيل مرقس بقولها: «اتركوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». والآية ٢٢ ــ من الإصحاح ١٠ ــ بقولها: «يعوزك شيء واحد اذهب: بع كل مالك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني حاملاً الصليب» وبين المادية المطلقة المجردة من التوحيد والإيمان باليوم الآخر التي تمثلت في حياة اليهود وأخلاقهم.

كذلك جاء التوحيد القرآني وسطاً: بين من ينكر وجود الله، وبين من يشرك معه سواه. فجاء التعبير في القرآن إن الله «أحد»، «فرد»، «صمد»

أما في التشريع الاجتماعي:

ــ أي القوانين الضابطة للمجتمعات التي تصدرها سلطة التشريع.

ــ وسلطة القضاء بموجب القوانين ــ وعلى أساسها.

ــ وسلطة التنفيذ لقرارات القضاء.

http://kotob.has.it

هذه الحزمة التنظيمية: نالت في القرآن ــ اهتماماً كبيراً، انطلاقاً من القناعة بأن الله خلق الكون وقدر له البقاء معموراً. والأعمار يكون بالنشاط الإنساني، الذي تنشأ عنه جميع الخلافات. لذلك ألهم الإنسان بوضع السلطات الثلاثة حفظاً للمجتمع من التفكك والإنفلاش.

لقد كنا ذكرنا: أن على مذهب فقيه مسلم، وضعت مجلة الأحكام العدلية في ١٨٥١ ــ مادة ضبطت في عشرة كتب جميع حركات المجتمع وخلافاته.

وقد استمد ذلك الفقيه (النعمان) جميع أبواب مذهبه من القرآن هذه الأمور:

ــ على جديتها وتأثيرها في الحياة. ورصدها لجميع التفاصيل الحياتية.

ــ لم يولها المؤلف ما تستحق من الاهتمام. إذ تكلم عنها من وراء ظهره وهو: إذ خلط التاريخ بالانتقاد أضاع الاثنين معاً. فلا هو سرد الحوادث سرداً صحيحاً، ولا هو أنصف في تصديه للقرآن وشخصية محمد (ﷺ). وكيلا يظن القارئ، أننا نسوق لحرفية «النصوص» و«التصرفات التي تليت على مسامع القرن السابع» نبادر فنقول: إننا من خلال القرآن ــ نؤمن بالتطور ونلتزم به ــ اعتقادا ونشاطاً. وليس القرآن ولا محمد (ﷺ) وحدهما، بل الأنبياء جميعاً.

فالمسيح قال: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقوله لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متى ــ ١٧/٥ ــ ١٨)

وبعدما أوصى به الناس، من وصايا وعقائد. قال: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب فيعطيكم معزياً فيمكث معكم إلى الأبد» (يوحنا ــ ١٥/١٤ ــ ١٦)

فأقواله واضحة جداً:

ــ فيما يتعلق بثبات القديم وعدم إزالته.

ــ والإكمال الواجب الذي قام به تلبية لحاجة المجتمع.

ــ والتبشير بالمعزي لكي يضع ما يحتاجه الزمن المقبل من إكمالات

ــ وتؤكد بأن التطور، طبيعة خلقها الله في الإنسان، حيث يكمل الجديد القديم، ويعلي بناءه على أسسه.

http://kotob.has.it

وهذا ما عبرت عنه الآية (نوح: ١٣/٧١ ــ ١٤) ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ فالأطوار جمع مفرده «طور». والطور هو الجيل وهو التَّارة أيضاً. وهو غير «الطور» الذي هو جبل في سيناء، فالأطوار هي الأجيال.

وفي معنى التطور البشري، الذي يتطلب تطورا في التشريع أثر عن النبي (ﷺ) قوله: «سوف يأتي بعدي من يملؤها عدلاً بعد أن مُلئت جوراً أو ظلماً إلاَّ أنه لا نبي بعدي»

ففي القسم الأول من الحديث: أكد النبي (ﷺ) أن نوازع النفس سوف تتحكم في تصرفات الإنسان، فيعم الظلم والفساد. وتغدو الحاجة ماسة إلى من يعيد الأمور إلى نصابها والحقوق إلى أصحابها، وينشر العدل والصدق ومكارم الأخلاق من جديد.

وفي القسم الثاني من الحديث: أكد أن النبوة بمعناها العبادي ــ التوحيدي ــ الإيماني بلغت غايتها القصوى في الرسالة المحمدية. لأن أية رسالة تأتي سوف تفشل ويظهر كذبها. لأنه مرفوض سلفاً، وكاذب سلفاً من يدعو إلى الكفر بعد الإيمان والشرك بعد التوحيد والافتتان بالدنيا دون الآخرة.

* * *

http://kotob.has.it

الفصل الثاني

في أصل أجزاء القرآن المفردة

يتألف من:

- مقدمة.
- واستعراض الآيات المكية في فترات ثلاث.
- واستعراض الآيات المدنية.

المقدمة:

لم يضع المؤلف عنواناً لهذا البحث الذي امتد من ص ٥٣ ــ حتى ص ٦٠ ــ ولكن استطعنا أن نفهم من مضمونه أنه توضيح للخطَّة التي سوف يسير عليها الفصل بكامله. إذ تتألف الخطة من المحطات الفكرية التالية:

- اقتحام الآيات والتغلغل بين كلماتها حتى القاع.
- إفراز المكي عن المدني إفرازاً صارماً مسجلاً على فوضوية النوعين وعدم التراتُبِيَّةِ الزمانية والمكانية خطأً فادحاً.

جدد أدوات البحث التي سوف يعتمد عليها وهي:

- النقل التاريخي عن المصادر التي اختارها
- التحليل الدقيق لمعاني الآيات ولغتها
- تعليل تبدل اللهجة القرآنية وفقاً لتبدل الأحوال التي كان يمر بها محمد (ﷺ) والتي كانت بالإضافة إلى تبديل اللهجة تبدل أوضاع الأفكار فيختلف بعضها عن بعضها في التماسك وكيفية الإيصال.

هذا البحث الذي استغرق ثماني صفحات من الفصل. وضعناه تحت عنوان المقدمة أخذاً من مضمونه الذي حدد غايته. أما ملاحظاتنا عليه: فإننا نوجزها بالأربع التالية:

http://kotob.has.it

١ ــ قال في ص ــ ٥٣:

«إن المصدر الأول الذي سنعتمد عليه هو النقل التاريخي والتفسيري وهو يحوز أكبر قدر من الثقة حين يتعلق بحوادث ذات أهمية بالغة لتاريخ الإسلام»[١]. هذا القول الصادر عن المؤلف: يؤكد أنه يعرض وقائع تاريخية يعتمد فيها على النقل عن سواه، في التاريخ والتفسير. ممن عاصروا الوقائع، فسجلوا مشاهداتهم أو على الأقل ممن كانوا قريبين منها ولكن:

لو استعرضنا جميع من اعتمد عليهم تاريخ المؤلف. ليس في هذا الجزء فقط بل في غيره أيضا، نجد أن أقربهم إلى الحوادث التاريخية التي كرس لها كتابه بأجزائه الثلاثة هم:

- ابن هشام متوفى في سنة ٢١٣ هـ.
- والأزرقي متوفى في سنة ٢٢٤ هـ.
- والبخاري متوفى في سنة ٢٥١ هـ.
- ابن سعد متوفى في سنة ٢٣٠هـ.
- ومسلم متوفى في سنة ٢٦١هـ.
- والطبري متوفى في سنة ٢٦١هـ

أي: إن أقوى مصادر التاريخ التي اعتمد عليها المؤلف لرواية تاريخ السيرة النبوية[٢]على حدة. وتقييم مدى مصداقيتها. نقول إن أقرب مصادر التاريخ التي نقل عنها المؤلف. كان يبعد عن الوقائع التاريخية، قرنين من الزمن. فالمؤلف الذي توفي في سنة ١٩٣٠ والكتاب وضع في سنة ١٨٦٠ ــ ولا يزال يترجم إلى اللغات الإنسانية كافة.

أي: بمختصر القول: نقل عن سواه، وسواه نقل عمن سبقه، وهذا أيضاً نقل عن غيره، وقد كان جديراً بالمؤلف أن يتعامل مع هذه «العنعنة» بالحذر «الشديد».

إن محمد بن اسحق المعروف «بابن النديم» المتوفى سنة ٤٣٨ هـ قال في كتابه «نور العلوم» الذي أطلق عليه اسم «الفهرست»، «حدثني أبو الحسن محمد بن يوسف قال حدثنا أبو عبد الله محمد بن غالب قال حدثنا بكر بن عبد

---

[١] السطر الرابع من مقدمة الترجمة العربية وكان قد وضع الترجمة جورج تامر في سنة ٢٠٠٤ م.

[٢] نقصد، الفترة التاريخية التي تلقى فيها النبي آيات القرآن والتصرفات التاريخية التي صدرت عن النبي في تلك الفترة.

http://kotob.has.it

الوهاب المديني «قال: حدثني الواقدي محمد بن عمر» قال: «حدثني معمر بن راشد الزهري» عن محمد بن نعمان بن بشير. قال: «أول ما نزل من القرآن على النبي «إقرأ باسم ربك الأعلى..»

فنولدكه المتوفى عام ١٩٣٠ ــ م تفصل بينه وبين ابن النديم حوالي تسعة قرون لذلك كان عليه ألا يعتمد على العنعنات الشفوية، أو على الأقل، كان يجب ألا يمنحها ثقته، وألا يتخذ منها مشجباً يعلق عليه عواطفه. وأن أي منقول عن الشفويات المتتالية يجب أن يقرأ مع الحذر الكبير، لأن العنعنات، وهي تتابع مع القرون، ينضم إليها التزيد والتضخيم مثل كرة الثلج وهي تتدحرج من الأعالي.

ففي المأثور عن النبي (ﷺ) «إذا علمت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع» نحن لم نطلب من المؤلف ولا من سواه ألا يكتب من تاريخنا غير ما عاين شخصيا. بل نطلب منهم ألا يجزموا ــ على الأقل ــ بأحداث لم تدون على القراطيس إلا اعتمادا على تواتر شفوي تتابع على مئات القرون.

كما نطلب ونرجو أن يلحقوا الروايات بأنسابها كي يمارس القارئ حقه في تقييمها... المسلمون في جميع أرجاء العالم الإسلامي:

ورثوا القرآن مثلما «صنف» في عهد النبي و«صحِّف» في عهد عثمان.

سوره ــ ١١٤ ــ سورة وآياته ــ ٦٦١٦ ــ آية وكلماته ــ ٣٢٣٦٧١ ــ كلمة. ومن يوم اعتماده «إماماً» في عهد عثمان لم يزد ولم ينقص ولم يدحض ولم يُضاهَ.

فما همهم؟ وما هم المنصفين من الباحثين والمؤرخين. أن يختلف الكتبة الذين قدموا إلى الدنيا بعد قرنين وثلاثة وخمسة وستة قرون فاختلفت كتاباتهم، باختلاف الشفويات التي تسلسلت إليهم؟

بل ماذا يهم ــ ما دامت النصوص ثابتة الكلمات والحروف ــ إن كانت هذه الآية قد نزلت قبل تلك. أو أن تلك السورة تضم آيات، يرى نولدكه، أن تكون ضمن سورة أخرى.

ومثلما لم يدخل المسلمون في الجدال بهذا الموضوع مع الغير، لن ندخل بجدال مع نولدكه حوله. لأنه يقوم على الفرضيات، ولأنه لا يقدم ولا يؤخر ولا يؤثر على قناعات الناس. إن ثقتنا بأن القرآن الحالي هو الصادق الشامل الدقيق تقوم على الثوابت التالية:

http://kotob.has.it

أ ــ كان الصحابة إذا تلقوا من النبي «آية» أو «سورة» يترددون عليه، ويتلونها أمامه. حتى يتيقنوا من حفظها. فإن أقرهم على حفظها كما نزلت يتركونه إلى «الحفاظ» و«الأبناء» فيحفظونهم ما حفظوا.

وقد ذكر صاحب «تذكرة الحفاظ»[١]: إن النبي (ﷺ) عندما استمع إلى أبي خارجة يتلو بين يديه ما حفظه من القرآن قال له: «يا زيد تعلم لي كتابة يهود فإني ما آمنهم على كتابي» قال زيد: «فحذقته في نصف شهر» وقد كثر الحفاظ في عهد الرسول حتى إن الذين قتلوا منهم في غزوة معونة سبعون حافظاً[٢].

ب ــ كان بكتب الوحي في حياة النبي ثلاثة وأربعون أشهرهم الخلفاء الأربعة وكان ألزمهم للنبي وأكثرهم كتابة «زيد بن ثابت» و«علي بن أبي طالب»[٣].

ج ــ روى العياشي في تفسيره: قال علي عليه السلام: «أوصاني رسول الله إذا واريته حفرته إلا أخرج من بيتي إلا لصلاة جمعة حتى أؤلف كتاب الله فإنه في جرائد النخل وأكتاف الإبل[٤].

د ــ ذكر ابن النديم (محمد بن اسحق) في الفهرست، أن جماع القرآن في عهد النبي هم «علي بن أبي طالب» و«سعد بن عبيد بن النعمان بن عمرو بن زيد» و«عويمر بن زيد» و«معاذ بن جبل بن أوس» و«أبو زيد ثابت بن زيد بن النعمان» و«أبي بن كعب بن قيس بن امرئ القيس» و«عبيد بن معاذ» و«زيد بن ثابت».

هـ ــ قال أبو عبد الله الزنجاني في كتابه «تاريخ القرآن» ــ ص ــ ٢٥ - ٢٦:

«يظهر من بعض الروايات أن عليا (ع) كتب القرآن على ترتيب النزول وقدم الناسخ على المنسوخ. وذلك عقب موت النبي. حيث لزم بيته وأقبل على القرآن يجمعه ويؤلفه فلم يخرج من بيته حتى جمعه وكتب على تنزيله «الناسخ والمنسوخ» و«المحكم والمتشابه»[٥]

---

[١] الحافظ الذهبي

[٢] الكرماني في الإتقان.

[٣] الزنجاني في تاريخ القرآن ــ ص ــ ٢٠.

[٤] هو: محمد بن مسعود بن سليمان، له: تفسير العياشي.

[٥] وافقه على ذلك «ابن حجر» في كتاب «فتح الباري» و«الشيخ المفيد» في كتاب «الإرشاد». والشيخ المفيد هو الإمام محمد بن محمد بن النعمان المفيد، من كبار علماء الشيعة.

http://kotob.has.it

و ــ قال الشهرستاني في مقدمة تفسيره للقرآن: كان الصحابة متفقين على أن علم القرآن مخصوص بآل البيت، إذ كانوا يسألون علي بن أبي طالب (ع): هل خصصتم أهل البيت دوننا بشيء سوى القرآن؟

ز ــ إن: ــ الفهرست لابن النديم

ــ كتاب أبي القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي.

ــ كتاب نظم الدرر وتناسق الآيات والسور لإبراهيم البقاعي.

وهي من الكتب التي اعتمد عليها نولدكه. وقد اتفقت تقريبا، على التسلسل الزمني الذي نزلت فيه السور والآيات.

ح ــ ثمة مصاحف عديدة كانت معروفة قبل المصحف العثماني. فلم تتشبث بما جمعت،ووجدت أن وحدة الأمة على «ترتيب واحد» خير من التشبث بترتيب مغاير متعدد.

نذكر أهمها:

ــ مصحف علي الذي جاء به على جمل ، وقال: هذا القرآن جمعته في سبعة أجزاء.

ــ مصحف أبي بن كعب توفي سنة ٢٠ ــ هـ .

ــ مصحف عبد الله بن مسعود توفي سنة ٣٢ أو٣٣ ــ هـ .

ــ مصحف عبد الله بن عباس توفي سنة ــ ٦٨ ــ هـ وكان تلميذ علي.

ــ وكان لتفسيره صلة خاصة بأستاذه.

ــ مصحف جعفر الصادق بن محمد الباقر.

فان كان ثابتا أن أيا من الصحابة المعاصرين للنبي والدعوة والنزول لم يتشبثوا بما لديهم ولم يعترضوا على عمل عثمان وجمعه.

وإن كان ثابتا أن أقرب الكتب الثلاثة التي اعتمد عليها «نولدكه» فيما يتعلق بترتيب النزول. إلى عهد النبي هو «الفهرست» وصاحبه ابن النديم توفي في سنة ٤٣٨ ــ هـ وأبعدهم هو البقاعي الذي مات في سبعينات القرن التاسع الهجري.

إن كان ذلك ثابتا ثبوتا تاريخياً، فمن حق القارئ أن يحذر ويشك في نية «نولدكه» إذ قفز من فوق جميع العصور، ليحط على رأس عصور اعتمدت مصنفاتها على العنعنات.

http://kotob.has.it

إن مصاحف «علي» و«أبي» و«ابن مسعود» و«ابن عباس» و«الصادق» لم تتفق في الترتيب الجدولي: فاجتهدت، وسمي عملها وعمل عثمان فيما بعد «توفيقياً» أي «اجتهادياً» فكيف اتفقت مصاحف الذين ابتعدوا عن الزمن بضعة قرون، في ترتيب النزول وتحديد زمانه ومكانه؟

نحن تفصلنا عن فترة تأليف كتاب نولدكه مسافة قرن تقريبا.

عندما نقرأ: أن مصاحف الصحابة اختلفت في الترتيب الزماني والمكاني. وأن الذين جاؤوا بعدهم بعدة قرون، قدموا مصاحف حددوا فيها تاريخا دقيقا لزمان ومكان نزول أية آية. سوف نشك حتما في مصداقية ذلك التحديد. وكان ذلك جديرا بنولدكه، وهو يضع سفرا تاريخيا ليقدمه إلى شعوب أوروبا على طبق من المصداقية والإثبات.

كان عثمان يعرف مثل سواه من الصحابة والمعاصرين:

ـ أن كثيرا من الآيات نزلت في المدينة فأمر النبي بإلحاقها في سور مكية.

ـ وأن كثيرا نزل منها في مكة بعد الفتح فأمر النبي بإلحاقها في سور مدنية.

ـ وكان التوقيت يعتمد آنذاك على الذاكرة.

ذلك جميعه، مضافا إليه «هوامش التفسير» التي أحاطت بالنصوص، كانت مصدراً من مصادر الاختلاف. مما دفع بعثمان إلى التدخل، «لاعتماد مصحف ثابت النص والترتيب» و«استبعاد» باقي المصاحف، حفاظاً على وحدة العقيدة والكلمة. وما نظن نحن ولا غيرنا، أن أبا القاسم عمر بن محمد بن عبد الكافي (من رجال القرن الخامس الهجري) الذي أخذ عنه نولدكه وتبناه حرفياً،

لا تظن أن عبد الكافي أو نولدكه، أحرص على كتاب المسلمين لفظاً وترتيباً، ومعاني أكثر من المسلمين أو الصحابة المعاصرين.

فعلى مرأى ومسمع منهم جميعا جمع عثمان «المصحف الإمام» ونسخ منه ستة نسخ وأمر بحرق الباقي وعدم الاعتماد عليه. فلم يقابل ذلك منهم بغير الرضا. والارتياح، لأنهم أدركوا الغاية الكريمة من وراء عمله. وقد كان من بينهم من هو أقدم، حتى من عثمان، بالقرابة والصحبة والسبق إلى الإسلام مثل علي بن أبي طالب (ع).

http://kotob.has.it

أورد الشهرستاني في مقدمة تفسيره. رواية لسويد علقمة قال: سمعت عليا(ع) يقول:

أيها الناس: الله الله إياكم والغلو في عثمان وقولكم «حراق المصاحف» والله ما حرقها إلا من ملأ من أصحاب رسول الله (ﷺ) جمعنا وقال: ما تقولونه في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها: يلقى الرجل الرجل فيقول: قراءتي خير من قراءتك. وهذا يجر إلى الكفر، فقلنا: ما الرأي؟ قال: أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد فإنكم إن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافا. فقلنا: نعم ما رأيت فأرسل إلى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وقال: يملي أحدكما ويكتب الآخر. وكان الذي أدخل الخيفة في صدر عثمان وباقي الصحابة أن الدعوة الإسلامية كانت قد توسعت فشملت في عهده، «مصر» و«الشام» و«العراق» و«فارس» فخشي أن يختلف الناس باختلاف القراءات.

خاصة وقد جاءه من قال له: أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى في كتابيهما. فأمر بنسخ القرآن الذي أتى به من عند حفصة، ودققه بعد النسخ بصحبة الإمام علي وغيره من الصحابة ــ (مراحل التدين ــ للدكتور محمد قبيسي ــ ص ١٠٥).

٢ ــ **قال المؤلف في ص ٥٥ ــ وما تلاها:** «قُبِضَ محمد ولم يصحف القرآن» فلو كان المؤلف يقصد من «التصحيف» الجمع وقصر الاعتماد على المجموع مثلما فعل عثمان بعده، لما اعترضنا عليه ولكنه ــ إذا أراد أن محمداً قبض تاركاً القرآن دون اهتمام ــ ألزمنا أن نصحح مقولته بالآتي:

ــ النبي هو الذي أمر بأن تجمع الآيات في مجاميعه وهو الذي أطلق على كل مجموع لقب السورة، وأعطى لكل سورة اسمها المميز لها.

ــ وهو الذي كان يرحل الآيات إلى حيث هي اليوم في السور.

ــ وأنه كان يستمع ويراقب الحفظ الصحيح للقرآن.

ــ وأنه أمر زيداً بأن يتعلم كتابة يهود لأنه لم يأمنهم على كتابة القرآن.

ــ وأنه أوصى عليا بأن يلتزم البيت بعد دفنه إلى أن يجمع الكتاب.

ثم: ألا تكفي كثرة «الحفاظ» و«الكتاب» على عهد النبي حتى لا يضيع من القرآن شيء يتعلق بأمور العبادة والمعاجز والتنظيم، والتشريع؟

ثم أيضاً: ألا يكفي أن عثمان وحد القراءات بقراءة واحدة. والكتابات بكتابة واحدة؟ بعد موافقة رجال من قرابة الرسول وصحابته لا يماثلهم أحد في الإيمان ولم يسبقهم أحد إلى الإسلام.

http://kotob.has.it

رحم الله أبا بحر الجاحظ، إذ قال بلسان ذلك الرجل لمن جاءه مستضيفاً، وطفق يذكره ويعرفه بنفسه. والرجل يتجاهل جميع ذلك وأخيرا قال له: «لو خرجت من جلدك لم أعرفك». تلك هي حال تاريخنا وثوابتنا العقائدية والفكرية مع أكثر المستشرقين. فمهما برز أمامهم من الحقائق التاريخية وأنواع الإعجاز اللغوي والعلمي والعددي والتنظيمي، ومهما قرأوا عن الاستثنائية المطلقة في شخصية النبي. فإن قناعاتهم التي بنيت على الهوى والتحزب لا تتحرك عن محورها العقائدي قيد شعرة. فمحمد في نظرهم مجرد شخص ذو ذكاء وحنكة، استطاع بهما أن يؤلف القرآن وينشره كدستور لحزبه الذي أوكل إليه عملية استمرار القتل والقتال.

إن التحيز آفة العلم والعلماء. فالمسلمون ــ قبل الطبري والفراء والبغوي والسمرقندي وغيرهم ــ لم يؤثر على إسلامهم إن كانت الآية ٤٣ ــ من سورة الرعد قد نزلت في عبد الله بن سلام أم في سواه من الذين كان عندهم علم من الكتاب[1]. إذ لو أراد القرآن التخصيص، لما فأته ذلك. ولكنه ترك «الشهادة مفتوحة» ليشهد جميع من عنده علم بالتوراة والإنجيل على صحة الرسالة. كذلك لم يؤثر ولن يؤثر على إيمان أي مسلم، أن «نولدكه» لم ير في سور القرآن غير تقلب مزاج ذلك الشخص الذي اسمه محمد (ﷺ). (يرجى مراجعة الصفحات ٥٦ ــ ٥٧ ــ ٥٨ ــ ٥٩ ــ من كتاب نولدكه).

ــ فمحمد أمر أن يقول:

ــ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ... ﴾ (الكهف: ١٨/١١٠).

ــ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ... ﴾ (فصلت: ٤١/٦).

ــ والمؤمنون برسالته يقولون: إنه نبي اصطفاه الله بين البشر لينشر الهدى بين الناس ولم يكن من الملائكة. ولو كان ملكاً، لما سمعه أو رآه أو تكلم إليه الناس الذين، لا يفقهون شيئاً دون هذه الجوارح.

ــ والمفكرون والفلاسفة كافة يقولون: ليست شخصيات الأنبياء السابقين أكثر إبهارا واستثنائية من شخصية محمد.

وليست الكتب والصحف التي تلوها على الناس أكثر تعليماً للناس و«هديا» إلى سبيل الخير أكثر من القرآن. وفوق هذا فقد تميز القرآن بمعجزة البلاغة والبيان. والأنباء الدقيقة الصحيحة عن القوانين الكونية التي لم تكن معروفة آنذاك.

---

(١) الآية هي: ــ ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾.
(الرعد: ١٣/٤٣)

http://kotob.has.it

٣ ــ يفرض المؤلف نفسه «مفتشاً مدققاً ناقداً للغة القرآن وعدم تماسك أفكاره وهذا مرض، يصاب به في العادة من كان عنده تضخم في الذات. وما ذلك إلا لأن سلامة اللغة وتماسك الأفكار، كانتا أبرز مميزات القرآن ففي الأزمنة الغابرة ــ حيث كانت البلاغة ونظافة الفكر طبعاً في الطباع وسليقة في التكوين ــ كانوا يصفون القول البليغ ــ البيان بالسحر، ويصفون الشعر بالحكمة فيقولون: إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة.

ولعل أعمق التقييم للغة القرآن وأسلوبه وفكره. قول «الوليد بن المغيرة» حينما سمع بعضه: «والله لا هو قول الجن ولا السحرة، بل هو قول له طلاوة وعليه حلاوة، أعلاه مثمر وأسفله مغدق. وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته».

وبعد: من الصعب على أي منصف أن يرى في الأستاذ الألماني «نولدكه» متبحراً بالأسلوب العربي. وتماسك الأفكار القرآنية مثل الوليد بن المغيرة أو غيره من أرباب البلاغة والفصاحة والفكر في ذلك الزمن.

٤ ــ **قال في ص ــ ٦٠ ــ** «إن هجرة محمد (ﷺ) إلى المدينة منحت فعاليته النبوية معنىً جديداً وقد لاحظ المسلمون هذا بحق منذ البداية...»

ذلك هو رأيه الشخصي. ونحن لم نكن لنتعرض إلى قناعته لولا أنه نسب ما قال إلى قواعد إسلامية. فالفعالية النبوية كانت قبل الهجرة إلى المدينة وبعدها في يد الله.

ففي سورة الحجر (المكية ــ الآية ٨٧ ــ)أمر وأخبر. بالآيتين ٩٤ و٩٥

ــ ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ (**الحجر: ١٥/٩٤**).

ــ ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ (**الحجر: ١٥/٩٥**).

أي: صَرِّحْ بما أمرت وأعلنه ولا تخاصم المشركين حتى تؤمر بقتالهم. أما جماعة المستهزئين (العاص ــ الوليد ــ أبو زمعة ــ ابن عبد يغوث ــ ابن قيس ــ ابن جبير) فلقد كفاك الله شرهم واستهزائهم. وجميع الأشرار والمستهزئين وحينما تغيرت الظروف، أمره الله بقتال المشركين.

ــ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ...﴾ (**البقرة: ٢/١٩٣**).

ــ ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ...﴾ (**الأنفال: ٨/٣٩**).

ــ ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ (**التوبة: ٩/١٤**).

http://kotob.has.it

فأين وجد المؤلف ذلك المعنى الجديد الذي كسبته الفعالية النبوية؟ أليست طاقة الإيمان ذاتها. وقوة العزم ذاته؟

هل تغير عما كان عليه في مكة وليس على دينه غير حفنة من الأراذل العبيد؟ حينما قال لعمه: والله يا عم. لو وضعوا الشمس على يميني والقمر على يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه.

من واجب الباحث، مؤرخاً أو محللاً، أم ناقداً ... أن يمسك زمام عواطفه عن الاندفاع وأن يمنعها عن اجتراح ما لا أساس له. وهو إذ تعهَّد ــ كما قال ــ في ص ــ ٦٠ ــ ألا يخرج عما اعتمده المؤرخون المسلمون في ترتيب النزول أو التسلسل التاريخي للحوادث، فإنه خرج عما اعتمده أولئك المؤرخون، والمسلمون يقرأون تاريخ الترتيب والنزول قراءة رفاهية. أما الشحنة الإيمانية فقد أفرغت بكاملها في القرآن الذي اتفق على ثبات سوره وآياته، مثلما صحف في العهد الراشدي، حتى الآن.

* * *

http://kotob.has.it

استعراض السور المكية

هذا البحث الذي أفرغ في حوالي ثمانين صفحة تضمن:

- مقدمة ــ من ص ٦١ ــ حتى ص ــ ٦٩
- وسور الفترة الأولى من ص ٦٩ ــ حتى ص ــ ١٠٤
- وسور الفترة الثانية من ص ١٠٥ ــ حتى ص ــ ١٢٨
- وسور الفترة الثالثة من ص ١٢٨ ــ حتى ص ــ ١٤٨

الفترة المكية الأولى:

توضيح:

استمر المؤلف على مدى ثمانين صفحة تقريبا من ٦٩ ــ ١٤٨ يتحدث عن السور والآيات التي نزلت بمكة والمدة الزمنية التي قضاها محمد (ﷺ) في مكة كنبي. ومع أن المؤلف عبَّر علناً عن فقدان ثقته بالكتابات التاريخية حول تلك الوقائع لأنها متعارضة ومتناقضة لذلك أعلن بصراحة عن فقدان جرأته في الجزم بصحة أي منها.

هذا التقويم الصحيح لتلك الكتابات المتناقضة لم يبق عليه المؤلف. فبعد هزيع قصير من ذلك الكلام السليم انكفأ يدبِّج تلك الصفحات بالاستناد إلى تلك الكتابات إياها. طالباً من قرَّائه أن يثقوا بما لم يثق به وأن يقرأوا كتابته، وتحليله، باطمئنان كبير على أنه ثقة، وأنه اعتمد على مرجعيات مؤكدة.

وحده «ابن إسحق» نال النصيب الأكبر من ثقة «نولدكه»، لماذا، وحده دون سواه؟

ابن إسحق الذي ولد في سنة ٨٥ وتوفي في سنة ١٥١ هـ لم ير النبي ولا معاصريه. وقد كتب السيرة في أواخر حياته نقلاً عن أفواه المتحدثين الذين أدلوا لابن إسحق بما سمعوه من سواهم. فهو سامع مثل غيره، ومتلقٍ مثل غيره. وقد كتب السيرة استجابة لطلب المنصور لكي يعلمها لابنه المهدي.

في السيرة الإسلامية ٧١/١ أن ابن إسحق رأى «أنس بن مالك» و«سعيد بن المسيَّب» و«أبان بن عثمان» و«أبا سلمة عبد الرحمن بن عوف» وسواهم.

http://kotob.has.it

ومع تلك الثقة التي منحها لابن إسحق. وتفضيله إياه على جميع كتّاب السيرة. فقد قال في ص ٦٤ ــ: «بالرغم مما تقدم فابن إسحق لا يعطي أية معلومات تاريخية عن كل تلك الفترة المكية. ولا يمكن وضع توقيت تقريبي للسور المكية التي نادراً ما تؤخذ فيها الأحداث التاريخية الأكيدة بعين الاعتبار» «الأحداث التاريخية الأكيدة»؟؟ ما دام أن جميع كتاب السيرة غير موثوقين وما دام أن عبارة الثقة قد سقطت عن ابن إسحق وما دام أنه لا يعتمد على القرآن. وأقوال الصحابة. فكيف استطاع الخروج من هذا الظلام حتى أعلن أن ثمة أحداثاً تاريخية أكيدة اعتمد عليها.؟

من حقنا ومن حق أي قارئ ألا يقرأ المؤلف إلا مسلحاً بالحذر الشديد فهو يطعن في جميع المراجع التاريخية، وتفصله عن الأحداث أكثر من ألف وثلاثمائة سنة.

ويتحدث عن شخص لا يحس تجاهه بأي حب أو احترام وعن كتاب ــ فيما يقدسه مليار ونصف من الناس ــ بكل لدد واستهزاءٍ وسخرية.

لقد أرخى لقلمه العنان. اعتماداً: على المراجع التي دحضها، وطفق يقدم ويؤخر، ويرى في ترتيب الآيات غير ما هي عليه. ولكن مثلما قلنا: ماذا يهم أتباع القرآن من أي نسخٍ وجنس أن تكون الآية الفلانية، نزلت كلاً أو جزءاً في مكة أو المدينة مادامت قائمة بتمامها لفظاً ومعنى وتطبيقاً حتى الآن دون أن يتغير حرف فيها أو ينقطع خيط من نسيجها؟

وما دامت سارية بقداستها في جميع الديار الإسلامية على وجه الأرض. أما من لم يدرك غاية التنجيم، أي نزول الآيات منجمة مثل نجوم السماء. فإليه اليقين الذي استبعده المؤلف وطمسه وعاداه: وهو إن القرآن، عطاء من الله أوحي به إلى النبي محمد (ﷺ)، كي يغطي حاجات الإنسان في كل زمان. أي لكي يعطي الأسئلة المتطورة أجوبة متطورة .

ثم: هو أيضاً حثٌ إلهي على ممارسة التفكير الصحيح في معجزة خلق الكون والكائنات. واكتشاف القوانين التي بني عليها الوجود والإفادة منها. وبعد، فقد تضمن القرآن منهجاً أخلاقياً حدَّد علاقة الفرد بالفرد والفرد بالمجتمع.

لذلك:

ــ وضع للسلوك الاجتماعي قواعد على جثث القواعد التي كانت سائدة في الجزيرة «فالطبقية» و«الشرك» و«الرق» و«الغنى الذي امتلأت به خزائن الأغنياء من دماء الفقراء». هي أمراض اجتماعية تحتاج إلى اجتثاث من الجذور وليس من وسيلة لذلك

http://kotob.has.it

غير الجهاد. وهذا ما برر اعتبار الجهاد باباً من أبواب الجنة. وهذا ما برر تلك الكثرة من آيات الجهاد في القرآن. «البقرة» و«آل عمران» و«الأنفال» و«التوبة» و«النحل» و«العنكبوت» و«الأنعام» و«التحريم» وهذا أيضاً: ما جعل قتيل الجهاد شهيداً ــ حياً عند الله. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ٣/١٦٩).

ــ وفي العلاقات الإنسانية. أوضح: أن الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره. وإن الله خلق البشر من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا لا ليختلفوا (الحجرات ــ ١٧/٤٩) فأسقط عداوة الإنسان للإنسان وعداوة شعب لشعب.

ــ وبصدد توصيف العلاقات الفردية والإنسانية تعددت الوصايا، والأحكام والقواعد:

«الخلق جميعهم عيال الله. أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» ــ اقتباس من حديث «ما رأيت نعمة سابغة إلا وإلى جانبها حق مضيع» ــ علي.

«لو كان الفقر رجلاً لقتلته بسيفي هذا» ــ علي.

«عجبت لمن عنده عيال وليس عنده مال كيف لا يخرج إلى الناس بالسيف» أبو ذَرّ

ــ ولكلٍ من الأكوان والكائنات قوانينها في القرآن.

ــ فثمة قوانين بني عليها الكون، «من أرض» و«سماء» و«ريح» و«مطر» و«شمس وقمر» و«نجوم ومجرات».

ــ وفي الأرض التي نعيش فيها:

ــ لتربية الدواجن قوانينها

ــ لزراعة الحبوب والاستثمار.

ــ ولصيد البر والبحر

ــ ولنشوء المطر ونزوله فوائد

ــ والحياة بأنواعها كافة

ــ وقد أمر النبي (ﷺ)، أن يذكِّر الإنسان بأن الله أنعم عليه بآليات المعرفة لكي يتعرف بها على هذا الكون.

ــ ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الملك: ٦٧/٢٣).

ــ ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ، وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ٩٠/٨ ــ ٩ ــ ١٠).

ــ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ (العنكبوت: ٢٩/٣٠).

http://kotob.has.it

ففي الآية الأخيرة: أمر قرآني للنبي (ﷺ) «قل» أن يطلب بصيغة الأمر أيضاً «سيروا» أن يسيروا في الأرض لكي يتعرفوا على أسرار الكون. فالسير المأمور به، هو للتعرف والاعتبار

فالكتاب الذي استهونه «نولدكه» يختلف عن سواه، بما رفد «العبادة» بما ينبغي من رحمة وتراحم بين الناس. وبما وضع من قواعد العلم والإيمان التي تستطيع أن تكون مرجعاً للإنسان، على مر الزمان.

واختلافه عما سبق من الكتب، ليس استهانةً بها، ولا تفضيلاً له عليها.

ولكن كلمة الله، كانت توحي إلى الرسول متلائمة، مع التطور الإنساني

- والقول القرآني بالتطور جعل النبي (ﷺ) ينبئ عن القادم في مقبل الزمان، بأنه سوف يملؤها عدلاً وسوف يعود بالإنسان إلى إيمان القرآن، ويحقق العدالة، ويدحر الظلم ويكشف الظلام.

والآن، فيما تبقى لهذه الفقرة من وقت ومساحة، سوف نقف وقفة تحليلية مع آية من آيات الكتاب الذي هوّن «نولدكه» من شأنه «معنى ومبنى»:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ (الأنعام: ٦/٣٨).

في هذه الآية، أبعاد عجيبة عديدة. نستجلي بعضها كالآتي:

- ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ شمل جميع الأحياء، حيث لا تخلو من أن تدب في الأرض أو تطير في الجو. وقد جاءت كلمة جناحين، لكي يحصل التفريق بين الطير الذي يطير بجناحيه وبين السمك الذي يقفز فيبدو وكأنه يطير، ولكنه بدون جناحين.
- وأمم أمثالكم. الأمة، هي الجنس ومثلما توزع البشر إلى أجناس توزعت الحيوانات إلى أجناس. ولكل من الأجناس «إنساناً وحيواناً» طرائق في التخاطب والتعارف، وأساليب العيش. وفي الحديث: «لولا أن الكلاب أمة الأمم لأمرت بقتلها». وبما إن الإنسان لم يعرف غير اليسير اليسير من أسرار الكون. طلب إليه بلهجة آمرة مرتين أن يسير في الأرض ليتعرف على أسرار التكوين، فنحن حتى الآن:
  - لم نعرف كيف يصنع النحل خلايا العسل ولا كيف يتقاسم العمل.
  - ولم نعرف من ألهم النمل لتقتلع خلايا الإنبات من الحب الذي تدخره، كي لا ينبت في مخزن النمل فيفسده.

http://kotob.has.it

ـ ولم نعرف من سلَّط الثعابين على الفئران والجرذان .

ـ ولا من سلَّط الطيور على الذئاب.

بل عرفنا فيما بعد، جداً:

ـ أن ما يختبئ في خلايا النحل هو العسل، وفيه منافع وشفاء للناس.

ـ وأن الجرذان والفئران لولا الثعابين لخربت العمران.

ـ وأن النمل، لولا الطيور لتكاثر بما يهدد المصير.

لذلك: فهمنا قوله تعالى: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» أي ما قصَّرنا وما أهملنا، فالتفريط من فرَّط ومعناها قصَّر وأهمل.

وفهمنا قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ (الأعلى: ٨٧/٢ ـ ٣ ـ ٤). أي قدر ما يحتاجه أي كائن. وهداه إلى نيل حاجته.

بعض الملاحظات على دراسة المكية:

لن اتتبع جولات المؤلف في المراجع الإسلامية لتسقط اختلاف الروايات في تواريخ تنزيل بعض الآيات. فتلك أمور خرجت من الاهتمام منذ أن توحدت القراءة في قرآن واحد وأخمدت خصومات الرواة باعتماد رواية واحدة.

ولكن المؤلف حمل إلى جانب مهمته التاريخية مهمةً أخرى لعلها كانت الدافع الأهم لوضع الكتاب. وهي «التركيز على بشرية الدعوة الإسلامية» و«التهوين من شخصية النبي» و«رد تلك الاستثنائية والفرادة إلى نوبات الجنون» و«التي كان يستفيق منها ممتلئاً بالنصوص القرآنية.

ومع أن هذه الأقانيم الثلاثة هي بواعث التأليف. فخوف المؤلف من اتهامه بالتحيز اللدود، جاء بها مبثوثة في الصفحات الثمانية، تطل من أوكار الكلمات والسطور مثلما تطل الأفاعي. لذلك وبما أن هذا هو المهم. لدى المؤلف ولدينا. اقتصرت على تتبع هذه الأفكار وكشف سُمِّيَّتها وهي في الأوكار.

١ ـ **قال في ص ـ ٦٥ و٦٦:** «في السور المكية لم يعتمد محمد على المنطق بل على الخطابة والمخيلة». فالبسطاء الذين سمعوه، لم يكونوا يعرفون شيئاً عن الصور اللاهوتية والمشاعر الجياشة، التي سادت السور الأولى ولم تهدأ إلا بعد فترة من الزمن، فبهرتهم مخيلة محمد ولهجته الخطابية الصارمة. فحكم المؤلف على أسلوب الآيات المكية بأنه أسلوب خطابي. إنما عنى بذلك خلوه من الحكمة والإرشاد. وحكم المؤلف هذا هو الذي خلا من الحكمة، وخلا من الدقة والتبصر. فالسور المكية التي عددها المؤلف نقلاً عن عمر

http://kotob.has.it

عبد الكافي، التي نزلت في مكة وإن كان قد غلب الأسلوب الصارم على قليلها، فقد جاءت عامرة بالمنطق والحكمة والإرشاد. ولنأخذ أمثلة ثلاثة من السور المكية البالغة ثلاثة وثمانين سورة. ولنقرأ بعض ما في بعضها لنرى أنها غير ما رآه المؤلف تماماً.

ـ **سورة المدَّثِّر**: التي قال عنها إنها نزلت في مكة، وكانت الثالثة في الترتيب التاريخي للنزول. وقد عاد بهذا إلى «عمر عبد الكافي». جاء فيها:

ـ ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً، وَبَنِينَ شُهُوداً، وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (**المدثر**: ٧٤/١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٥).

وجاء فيها:

ـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (**المدثر**: ٧٤/٣٨)[1].

ـ **سورة هود**: التي كانت في الترتيب التنزيلي ـ كما نقل المؤلف عن عمر عبد الكافي ـ ٤٩ ـ ولكنها في المصحف العثماني تحمل الرقم ١١ جاء فيها:

ـ ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (**هود**: ١/١١).

ـ ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (**هود**: ٦/١١).

ـ ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (**هود**: ١١٨/١١).

ـ **وسورة النحل**: ذات الرقم القرآني ١٦ ـ وهي لدى المؤلف ٧٠ جاء فيها:

ـ ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (**النحل**: ١٦/١٠ ـ ١١).

ـ ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ، وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (**النحل**: ١٦/١٢٥ ـ ١٢٦).

ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ، بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾

(**النحل**: ١٦/٤٣ ـ ٤٤).

---

[1] المدثر: أخذت رقم ٧٤ في القرآن وفي التنزيل، تاريخياً ـ كما قال المؤلف ـ كانت الثالثة.

http://kotob.has.it

لقد جئنا بأمثلة ثلاثة من سور مكية مختلفة في تواريخ إنزالها. ملتفتين عن الثمانين الأخرى. وذلك فقط، لاستبعاد رؤية المؤلف. ففي الآيات المذكورة وفي غيرها من السور الثلاثة، وفي غيرها من السور الثمانين خطاب للعقل، وليس للعواطف والغرائز. ولو كنا في مجال التفسير لاستزدنا وأفضنا، ولكن طبيعة هذا التأليف تفرض الاختصار والاقتصار.

فالحديث في هود عن تقدير أرزاق الكائنات وأمكنة استقرارها، والحديث في آيات النحل عن الماء وتأثيره الحاسم في حياة الإنسان والحيوان والنبات وعن اقتصار دور الفعل العقابي على التماثل دون تجاوز. والثناء على الصبر وضبط النفس فذلك أحسن من الجزاء. وعن التأكيد بان الله لا يبعث رسولاً للبشر إلا من البشر. وإلا استحال عليه إيصال الرسالة واستحال تلقيها.

وفي الإسراء يؤكد على إنسانية الرسل جميعاً. إذ تقول الآية ٢٥ ــ :

ــ ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ١٧/٩٥).

وفي الآية (الأنعام: ٦/٩) تكرر بشرية الرسل ولكن بصيغة أخرى.

ــ ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾

أي لو أرسل الله أحد الملائكة رسولاً ــ لألسنه ــ لان بني الإنسان لا يستطيعون التلقي بغير الجوارح المادية. وهذا هو تفسير مجيء جبرائيل الملاك مرسلاً من الله إلى مريم وحديثه معها وتبشيره إياها بالحمل وولادة يسوع (لوقا ــ ١/٢٦ حتى ٢٨) وفي القرآن. في سورة (مريم ــ ١٩/١٧ ــ حتى ٢١) مثل ما في «لوقا».

تلك السور الأربعة «٧٤ ــ المدثر» و«١١ ــ هود» و«١٦ ــ النحل» و«١٩ ــ مريم» التي جلبنا منها الأمثلة، هي سور مكية. فهل يجد أي قارئ، فيها غَلَبَةُ الخطابة والمخيلة على الفكر ــ كما وجد المؤلف ــ ؟

والأوامر التي جاءت من الله إلى النبي (ﷺ)، بألا يجادل الناس ــ حتى الكافرين ــ إلا بالحكمة والموعظة الحسنة. مبثوثة في السور المكية أيضاً[1]. «النحل ــ ١٦/١٢٥» و«الإسراء ــ ١٧/٣٦» و«لقمان ــ ٣١/١٢» و«ص ــ ٣٨/٢٠» و«الزخرف ــ ٤٣/٦٣». فهل في الجدال بالحسنى، والدعوة إلى الأمر بالمعروف[2]، مخيلة خطابية أم فكر إصلاحي؟

---

[1] لقد عدد: السور المكية والمدنية في ص ــ ٢ ــ من كتابه. وذكر الأرقام . وقد أخذنا هذه الأرقام من الصفحة ذاتها.

[2] ورد الأمر بالمعروف في السور المكية «الأعراف ٧/١٥٧» و«لقمان ٣١/١٧ــ هـ »

http://kotob.has.it

٢ ــ سرد المؤلف آراءه في الدوافع التي دفعت محمداً (ﷺ) إلى السور القصيرة ذات النبرة الجازمة الصارمة فقال: «أنه يقلد سجع الكهان، ويقسم بالظواهر الكونية».

وأضاف: «يقول مولر: لقد نزلت ١٨ سورة قبل البعثة، التي تمت بسورة «العلق» والتي ضمت إلى القرآن فيما بعد».

ــ «وإن الله في القرآن هو وهم شعري».

ــ «وإن ظهور الملاك لمحمد (ﷺ) كان هلوسة أو حلماً، كما روى الطبري عن عبيد بن قتادة..

ــ فالسجع الذي يعتمد الفواصل مثل الشعر، لكن بدون وزن.

قال ابن جنِّي: سُمِّي سجعاً لاشتباه أواخره، وتناسب فواصله.. وسَجَعَ الحمام ــ أي هدلَ على جهة واحدة. وفي المثل: «لا آتيك ما سجع الحمام» يريد: إلى الأبد.

واتهام النبي (ﷺ) بتقليد سجع الكهان، فيه قلة تبصُّر، وضعف في دراسة حياة النبي (ﷺ) وجهل بما أثر عن النبي (ﷺ) في هذا الباب.

ــ فالنبي (ﷺ) حذر الناس عن تقليد الكهان بقوله «إياكم وسجع الكهان».

ــ كما روي عنه أنه نهى عن السجع في الدعاء وفي الكلام لمشاكلته كلام الكهان وسجعهم.

ــ أما الكلام المنظوم الذي لا يشاكل السجع فهو مباح.

ــ وإسناد وصف الله، بأنه وهم شعري إلى «مولر» هو موارية أي بين الفتح والإغلاق، لأن المؤلف لو لم يكن متمسكاً برأي «مولر» لما رواه واستند إليه. ولكن العودة به إلى مولر مردها الخوف من نقد المستنكرين لذلك الرأي. على أن القول «بالوهم» و«بسبق» ١٨ ــ سورة على الرسالة، يُرَدُّ عليه، أياً كان القائل. وذلك بالآتي:

آ ــ اتفق المسلمون، مؤرخون ورواة، وكذلك الحياديون غير المسلمين، على أن أول ما نزل من القرآن هو سورة العلق ــ اقرأ ــ: وقد أخبر النبي (ﷺ) عن كيفية نزولها. ومن إخباره عن ظروف تنزيلها يتضح أنها أول كلمات سمعها من الوحي[1].

---

[1] طبعاً: لا يؤمن المؤلف إلا بأن القرآن من وضع محمد، مقلداً فيه السابقين وآخذاً من الكتب الأخرى، جميع أخبار الغيب والتاريخ والتشريع.

http://kotob.has.it

ب ــ رواية الطبري عن عبيد بن عمر بن قتادة. عن «الهلوسة» فسواء أكان الطبري صادقاً أم كاذباً، وسواء أكانت رواية عبيد بن عمر صادقة أم كاذبة، فهي مغلوطة ومنحازة وتدل على ضحالة الثقافة التاريخية والقرآنية: فالقرآن الذي بلغت آياته ٦٦١٦ آية لا يمكن أن يكون جميعه بنتيجة هلوسة، ثم إن كانت الهلوسة أو الأحلام تتجلي عن رسالة هدى وفكر وتاريخ وتشريع وإيمان، بمقدار يملأ عقول وقلوب ملايين البشر. فهي ــ بلا شك ــ خير من أية يقظة، حتى لو كانت يقظة «نولدكه» أو«الطبري» أو«ابن عمر».

ج ــ أما القول بأن الله وهم شعري، فذلك رأي المؤلف. أما نحن، فإننا لما رأينا قوافل «الخلق» من «الإنسان والحيوان والنبات» تأتي ثم تذهب، لكي يأتي ويذهب سواها. ولم ندرك حكمة المجيء والذهاب ولم نعرف من أين أتت ولا إلى أين ذهبت.

رمزنا إلى هذا الاستغلاق المعرفي «بالحيرة» واشتققنا من الحيرة كلمة «الله» فالله من الثلاثي «إلِهَ» أي تحيَّر وهي حالة المخلوق حينما يتفكر بخالقه.

وقد جاء الأنبياء، فبيَّن كل بأسلوبه أن خالق الموت والحياة فاطر الوجود الذي هو غيب منيع على المعرفة والتحديد، هو الذي يجب أن تتجه إليه العبادة والاستغفار.

ــ فرمزه في الرسالة الموسوية هو«الرب».

ــ ورمزه في الرسالة المسيحية هو «الآب».

ــ ورمزه في الرسالة الإسلامية هو «الله».

ولعل الرمز الإسلامي هو الأقرب في الدلالة على ذاته، لأنه ــ كما قلنا ــ مشتق من الحيرة. على أن «الله» في هذه الرموز الثلاثة، أوسع من الخيال مهما اتَّسع وأبعد من الحدود مهما بعدت. فالله: لا يعلم ما هو إلا هو. والسيد المسيح حينما علَّم تلاميذه ما يقولون وكيف يصلون. لم يشر إلى الله إشارةً مادية بل قال: «صلوا هكذا: أبانا الذي في السماوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض خبزنا كفانا اعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضاً للمذنبين إلينا ولا تدخلنا في تجربة لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد ــ آمين ــ » (متى: ٦/ ٩ ــ ١٠ ــ ١١ ــ ١٢ ــ ١٣).

http://kotob.has.it

فهو ــ وإن أشار إليه بالتقديس والملك والقوة والمجد وأنه الرزاق الغافر للذنوب وأنه وحده المنقذ من شرور الشيطان، فإنه رمز إليه رمزاً فقال: «أبانا الذي في السماوات» فالسماء من السمو: والسمو من الارتفاع.

يقال للشريف: قد سما. وإذا وقع بصرك على شيء أعلى ــ تقول: سما إليه بصري. وكلمة السماء مفردة، جمعها سماوات.

قال أمية بن أبي الصلت:

له ما رأت عين البصير وفوقه سماء الإله فوق سبع سمائيا

فقد جمعها على وزن فعائل مثل «سحابة ــ سحائب». والمسيح نفسه ــ على استثنائيَّتِهِ لم يخف دهشته أمام الغيب المنيع. وفي القرآن: وردت الإشارة إلى أن الغيب بيد الله.

ــ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ...﴾ (آل عمران: ٣/١٧٩).

ــ ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ...﴾ (هود: ١١/١٢٣).

تلك «الحيرة» وذلك «الغيب» الذي اشتق منه المسيح ومحمد كلمة الله. معبرين بها عن الخالق. لا تزال حتى الآن متحدية بغيبها مدارك الإنسان. وما نظن أن نولدكه كان لديه تصور مادي عن الله. بل ظل مغموراً بالحيرة حتى فارق الدنيا.

٣ ــ **وفي الصفحات ٧٣ ــ ٧٤ ــ ٧٥ ــ ٧٦:** تحدث المؤلف عن سورة العلق فقال: «رأى شبرنغر» أن كلمة «اقرأ» هي أمر محمد (ﷺ) بقراءة الكتب اليهودية والمسيحية. وأن «هبرشفيلد» رأى أنها تعني «أعلن كلمة ربك» وهو معنى يهودي.

لذلك: يرى المؤلف بأن كلمة «اقرأ» و«ما أنا بقارئ» ذات صلة مريبة بالآية ٦ ــ من الإصحاح ٤١ ــ من سفر إشعيا.

هذه الأقوال المسندة إلى الغير والتي تلاها افتراض المؤلف تدحضها الأدلة والوقائع التالية:

أ ــ كان محمد بن عبد الله «أمياً» بما تعنيه اللغة العربية. أي الجاهل تماماً بالقراءة والكتابة. وقد دل القرآن على معنى الأمية في محمد بقوله:

ــ ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٩/٤٨).

ــ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ..﴾ (الأعراف: ٧/١٥٧).

http://kotob.has.it

أي ما كنت قبل أن يوحى إليك بالقرآن، تقرأ أو تكتب. إذ لو كنت من قبله تقرا أو تكتب لوجد المبطلون سبيلاً إلى الشك في رسالتك ولقالوا: إن ما تتلوه هو ما جمعته من كتب السابقين. ولكنك ــ وقد ربيت بينهم وعرفوا جميع أحوالك ــ جئتهم بما بهرهم وأعجزتهم عن مثله فما وجدوا سبيلاً إلى تكذيب أميتك التي ذكرتها آيات الكتاب.

ب ــ المؤلف «نولدكه» قد نفى عن محمد (ﷺ) إمكانية قراءة الكتب اليهودية والمسيحية: ــ لأنه لم يكن يفهم اللغات الأجنبية.

ــ ولأن كتبهم لم تكن مترجمة إلى العربية (هذا قوله بالحرف).

ج ــ أما الصلة المريبة التي رآها نولدكه بين «ما أنا بقارئ» وبين الآية ٦ ــ من الإصحاح. ٤ ــ من سفر إشعيا. فيكفي لمحوها تلاوة «سورة العلق» واستعادة نص الآية ٦ ــ من الإصحاح ٤٠ ــ وعرضهما أمام عيني أي قارئ ــ لكي يكتشف بنفسه عدم قيام أية صلة ــ وأن هذا الفقدان بالضبط، هو الذي منع المؤلف من تقديم أي دليل بهذا الشأن.

فالسورة:

ــ ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٩٦/١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤).

والآية ٦/٤٠:

ــ «صوت قائل: نادِ: فقال: بماذا أنادي: كل جسد عشب. وكل جماله كزهر الحقل. بيبس العشب، ذبل الزهر، لأن نفخة الرب هبَّت عليه، حقاً الشعب عشب، يبس العشب وذبل الزهر وأما كلمة إلهنا فتثبت إلى الأبد»

(إشعيا: ٦/٤٠ ــ ٧).

لن يفوتنا ــ قبل إبداء الملاحظات على ريبة «نولدكه» التذكير بأنه كان قد نفى عن محمد قراءة الكتب اليهودية والمسيحية لأنها لم تكن مترجمة، ولأنه لم يكن يقرأ بلغتها أو بلغة سواها.

قال الواقدي في الرواية عن ساعة نزول سورة العلق:

«روى الشيخان عن عائشة (ر): كان النبي يأتي «غار حراء» فيتحنَّث فيه الليالي ذوات العدد. ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فتزوده لمثلها حتى

http://kotob.has.it

فجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: إقرأ «قال رسول الله، فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني[1] حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ: فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطّني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك ..حتى بلغ «ما لم يعلم»[2]

- في السورة نفي للقراءة لأنها مطلوبة ممن لا يعرفها. ومن المستحيل منطقياً ولا لغوياً أن تكون «عبارة ما أنا بقارئ» هي مشاكسة أو تمرد. لان الآمر بالقراءة ــ الوحي، هو صوت غير متطور وبالتالي لا يمكن قبول افتراض المشاكسة.

أما في الآية ٦ ــ فليس فيها ذكر للقراءة بل جاءت للنداء: «ماذا أنادي» وهي استفهام، في حين أن كلمة محمد جاءت بصيغة النفي.

- في الآية اختصار لفلسفة الحياة والموت. وفي السورة تذكير بنعمة الله الذي خلق الإنسان من علق ثم كرَّمه وعلمه ما لم يعلم فأين السطو؟ وأين الصلة المريبة بين السورة والآية. ثم: هي آية فقط من بين أكثر من ستة آلاف آية. فلو قضى «نولدكه» عدة أعمار، لما وجد الصلات بين آيات القرآن وأقوال قدماء اليهود.

لقد استغرب «نولدكه» أن يصدر هذا الإعجاز من «محمد» وهو لا يرى فيه غير شخص عادي ــ فراح يفتش في الفكر اليهودي، ويقتطع من الآيات، ويقابل بين هذا التلفيق[3] ويعدد بالاستناد إليه أحكامه.

نحن لا نتدخل في قناعاته العقائدية، ولا نسجل عليه لوماً بشأنها. ولكننا لمناه، حين تحول من مؤرخ إلى ناقد، ومن ناقد إلى حاقد.

فجماعة المؤمنين بوحدة كلمة الله، وبعدم تخلي العناية عن الخلق، وبأن أساليب العناية وطريقة إيصالها إلى البشر كانت تنزّل وتبلّغ على مقاس العقل البشري. لم يخالج إيمانهم ريب حينما قرأوا في أعمال الرسل:

- «ولما حضر يوم الخميس كان الجميع معاً بنفس واحدة، وصار بغتةً من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين. وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل

---

[1] الغط ــ شدة العصر

[2] العلق ــ الدم المتجمد الذي لم ييبس.

[3] التلفيق هو الضم وخياطة الشقتين إلى بعضهما. وإلى هذا المعنى قصدنا. وليس إلى معنى آخر.

http://kotob.has.it

واحد منهم وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنةٍ أخرى كما أعطاهم الروح القدس أن ينطقوا» (أعمال: ٢/١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤).

وتابع الإصحاح:

ــ «فبهت الجميع وقالوا: كيف نسمَعُ نحن؟ كل واحد لغته التي ولد فيها. «قرنيون» و«ماذِيُّون» و«عيلاميون» و«الساكنون ما بين النهرين» و«اليهودية» و«كبد وكية» و«بنش» و«آسيا» و«فريجية» و«بمفيلية» و«مصر» و«نواحي ليبية التي نحو القيروان» و«الرومانيون المستوطنون، يهود ودخلاء» و«كريتيون» و«عُرب» نسمعهم[1] يتكلمون بألسنتنا بعظائم الأمور» (٢/٦ ــ ٧ ــ ٨ ــ ٩ ــ ١٠ ــ ١١)

هذا القول العجيب. ندين به، ويدين به المؤلف، وأكثر من ملياري إنسان، إيماناً بقدرة الله التي لا يُعجزها شيء. ولكن الأعجب من هذا الإيمان. هو: استطاعت قدرة الله أن تُنطِق التلاميذ الفقراء البسطاء بألسنة الأمم. ولا تستطيع ــ برأي المؤلف ــ أن تنطق أمياً بالدعوة إلى الإيمان.

في سورة العلق، بحث المؤلف واستعان بغيره، لإلحاقها بالآية ٦ ــ من الإصحاح ٤٠ ــ من سفر إشعيا. وفي البحث المستعين، قوّلوا الآية ٦ ــ ما لم يخطر ببال إشعيا أو محمد.

فإن عرض أي شك فسوف يتجه نحو إشعيا ورؤياه. التي امتدت حتى بلغت ستة وستين إصحاحاً والتي بدأها بالقول:

«رؤيا إشعيا بن أموص التي رآها على يهوذا وأورشليم في أيام «عُزِّيا» و«يوتام» و«آحاز» و«حزقيا» ملوك يهوذا». (١/١)

فمع أنها بإصحاحاتها الست وستين وفقراتها الألف ومايتين وسبعة وتسعين هي أحلام فإننا، ومعنا مليارات من البشر، لم نقل إنها هلوسات أو امتطاء لأجنحة الخيال.

٤ ــ يصف المؤلف معاناة النبي (ﷺ) بأسلوب ليس فيه ذرة من التقدير. مع أن جميع رسل التاريخ عانوا في سبيلِ ما طرحوه بين الناس من إصلاح جديرون بالاحترام والتقدير.

---

[1] الذين تكلموا بلغات الأمم هم تلاميذ المسيح.

http://kotob.has.it

إن موسى هرب بقومه من طغيان فرعون.

وعيسى قال في جثيماني: «نفسي حزينة حتى الموت يا أبا الآب كل شيء مستطاع لك فأجزْ عني هذه الكأس ...» (مرقس ــ ١٤/٢٥ ــ ٢٦).

وأبرار المسيحية الذين ظلوا يتساقطون على دروب الشهادة أكثر من ثلاثة قرون منهم من صلب ومنهم من حز رأسه بالسيف ومنهم من غاب في بطون الوحوش.

ومحمد (ﷺ) الصابر المحتسب. أتاه صهره «عتبة بن أبي جهل» فبصق في وجهه وطلق ابنته وجاء بعده أخوه عكرمة فطلق الابنة الثانية وفعل فعل أخيه.

محمد الصابر، صبر على وضع الروث عليه وهو ساجد. صبر وهو يلجأ مع جميع بني هاشم إلى شعاب مكة فيمكثون سنتين بين الأشواك والصخور، واضطروا إلى أكل ورق الشجر من الجوع. هذا الصبر الذي يعبر عن عمق الصدق والإيمان، ليس مدعاة سخرية، بل هو مدعاة فخر وتقدير.

٥ ــ وفي ص ــ ٧٨ ــ٧٧ يعود إلى تكرار وصف النبي بأنه كان فريسة لنوبات من الجنون، في المدة التي فتر فيها الوحي[1] وهو إذ ينسب ذلك إلى «شبرنغر» فلكي يختفي وراء ظهره ويقول في محمد ما يشتهي.

لقد كنا رددنا على الاتهام بالجنون وقلنا:

ــ الجنون مرض مقيم لا يأتي ولا يروح برغبة الإنسان.

ــ وأنه إذا كان الجنون ينجب رسالة كالإسلام وكتاباً كالقرآن فهو أعظم من عقول العقلاء، ولو كان منهم «نولدكه». لذلك:

ولما كان أكثر العقلاء عقلاً وأحكم الحكماء حكمة قال: هذا من عند الله ولم يقل من عندي، فصدقوه، وما كانوا قد عرفوا فيه كذباً أبداً.

أما وجود كلمات عربية أصيلة في القرآن مثل «زملوني» فذلك لم يكن غريباً لأن القرآن نزل باللغة العربية. بل بأسمى ألفاظها ومعانيها.

ــ ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ١٢/ ٢).

ــ ﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا...﴾ (الرعد: ١٣/ ٣٧).

ــ ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٤١/ ٣).

ــ ﴿... وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا...﴾ (الأحقاف: ٤٦/ ١٢).

---

[1] فترة الوحي : هي المدة الجوفاء التي توقف فيها الوحي عن المجيء بعد المرة الأولى وقد امتدت ثلاث سنوات سميت «فترة الوحي» وقالوا: «وفتر الوحي».

http://kotob.has.it

كما أنه قد انساحت بين العرب ألفاظ غير عربية تعرَّبت بالاستعمال والتعبير عن مناحي الحياة لذلك وردت في القرآن بلفظها الأصلي الأجنبي، بعد أن أخذت معناها العربي الخاص ودخلت في تداول التعبير وتلك ظاهرة عرفتها جميع اللغات. في الإسبانية والفرنسية حتى الآن كثير من الكلمات ذات الأصل العربي. كذلك الفارسية التي اعتمدت الحرف العربي وما زالت عليه حتى الآن.

٦ ــ وعند كلمة «زملوني» وكلمة «دثروني» اللّتين صدرتا عن النبي أثناء الإيحاء بسورتي «المزمّل» و«المدثر». قال نولدكه: «نحن نعلم أن محمداً تم تدثيره «دوماً» بالثياب حين كانت النوبات تغشاه ولا ترجع هذه العادة إلى سبب صحي بل إلى خوف خرافي» ص ــ ٧٩ ــ.

يزعم المؤلف أنه نقل ذلك عن ابن هشام. ولكن: ابن هشام لم يذكر «التزميل» و«التدثير» إلا عند نزول الوحي بسورتي «المزمل» و«المدثر». فلم ترد كلمة «دوماً» عند ابن هشام.

ولكن نولدكه أوردها ليبين أن محمداً (ﷺ) كان يقوم بتمثيلية خرافية، كلما أراد أن يتلو شيئاً من القرآن.

والحقيقة التي أدركها المؤرخون ولم يدركها نولدكه، هي أن التّزميل والتّدثير لم يحصلا بغير المناسبتين إياهما. فالنبي (ﷺ) كان يخشى من هذا الصوت الذي يسمعه ولا يرى صاحبه ولكنه، بعدهما، أنس بجبريل، فلم يزمّل ولم يدثّر ولم يخاطبه الوحي بعدها إلا بالنبي أو الرسول.

وفي الصفحة ٧٩ ــ إياها يقول: «لقد أدخلت الآيات ٣١ ــ ٣٢ ــ ٣٣ ــ ٣٤ على المدثر تكملة للآية ٣٠ ــ وربما قام النبي (ﷺ) بنفسه بهذه الإضافة لكي يخاطب بها المجموعات البشرية الأربعة «اليهود» و«المؤمنين» و«المنافقين الذين في قلوبهم مرض» و«عبدة الأصنام» وقال في حاشية الصفحة: «هذا ما أحس به لافايل في ص ٣٦٥ من مؤلفه ولكنه لم يجرؤ على قوله.

أما هو «نولدكه» فمرحى له لأنه كان أجرأ من لافايل حيث دفعت به جرأته إلى اتهام النبي بوضع الآيات بنفسه. ولو وقفت جرأته عند هذا الحد لكان جديراً، بالتغاضي عنه. لكنه عبَّأ كتابه باعتقادٍ راسخٍ أن القرآن جميعه لم يكن غير هلوسات وتمثيليات قام بها محمد (ﷺ).

http://kotob.has.it

هذا التجاوز المصحوب بعمى الألوان، قد يسمى جرأة، وقد يسمى استهتاراً بمشاعر الغير ولكنه لا يسمى علماً. ولا فصلاً من فصول البحث. لأن أول شرط في البحوث، أن تملك المرجعية والدليل. وإلا كانت جزافاً في القول. وخيالاً في التعبير.

٧ ــ في الصفحتين ٨١ ــ ٨٠ ــ يقول:

«إن قول أبي لهب لمحمد: «تباً لك ألهذا جمعتنا» هي كلمة كانت تقال للمزاح.

لذلك يقول في الهامش: «لم تكن أكثر من صيحة إنسان غاضب دُعِيَ إلى أمرٍ عظيم مهم، فلم يجد إلا سخافات وليس في هذه العبارة معنى سيء».

قبل الدخول إلى «قاع كلمات المؤلف» وتحليلها نود أن نشير إلى بواعثها عند المؤلف فهو يهمه دوماً أن يبرز محمداً والقرآن، معتدين ظالمين حاقدين. لذلك رأى أن عبارة أبي لهب، كانت مزاحاً لا يستدعي ما جاء في السورة عنه وعن امرأته.

وبالتالي: يكون القرآن هو المعتدي لأنه تجاوز. بعد ذلك نعود إلى معنى «التب» وإلى تحليل أقوال نولدكه. فالتبُّ معناه الهلاك والخسران، وتبَّاً له ــ على الدعاء ــ وتبت يداه أي خسرتا وفي القرآن:

ــ ﴿... وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ (غافر: ٤٠/ ٣٧).

ــ ﴿... وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ (هود: ١١/ ١٠١).

وإذا جاءت منصوبة، فلأنها مصدر محمول على فعله، مثل سقياً لك، أو سقياً لفلان أي سُقِيَ فلان. وبما أنها صدرت عن أبي لهب فقد صدرت محمولة على عواطف لدودة للنبي. فهي من جميع الجوانب، تختلف عن المزاح البريء. ثم إنها صدرت، صيحة إنسان غاضب. وما نعلم أن الصياح الغاضب، يعبر عن المزاح والمداعبة.

ثم: لا نعلم كيف قرأ «نولدكه» ما في نفس أبي لهب، ورأى فيها، أن ما دعي إليه كان مجرد سخافات. إن أبا لهب لم يخرج مع النبي. ولا وجد في ما خاطب المجتمعين سخافة. بل وجد فيها دعوة جديدة ترفض القديم، معتقدات وعادات، وتضع جديداً يحارب الطبقية والاستعباد ويدعو إلى البر والإيمان.

وهذه المبادئ تقوِّض «كتلة الأخلاق التعبدية والاجتماعية» التي كانت تتبعها قبائل العرب، ومنهم أبو لهب وقومه. لهذا دعا عليه بالضلال والخسران.

http://kotob.has.it

٨ ــ وفي تعليقه على سورة «عبس» قال في الصفحتين ٨٦ ــ٨٥: «محمد ملوم لأنه فضل أن يدعو إلى الإسلام رجلاً غنياً وتولى عن فقير أعمى جاء يطلب الإيمان». وقال: من المدهش أن تُضمَّ كلمات هذه السورة إلى القرآن ولجلاء هذا الغبار الذي أثارته كلمات نولدكه نقدم الحقائق التالية:

ــ نزلت في عبد الله بن شريح بن مالك بن ربيعة الفهري بن أم مكتوم. من بني عامر بن لؤي جاء إلى النبي (ﷺ) ليقرئه ويعلّمه. وكان النبي آنذاك مشغولاً بمجادلة، «عتبة بن ربيعة» و«أبا جهل بن هشام» و«العباس بن عبد المطلب» و«أبيًّا، وأمية ابن خلف» فأعرض عنه وأقبل على القوم يكلمهم. فنزلت السورة بمثابة «عتاب» للنبي (ﷺ) على موقفه. وبعدها: أي بعد نزول السورة، صار النبي (ﷺ) يرحب به ويكرمه عند قدومه قائلاً له: «مرحباً بمن عاتبني ربي فيه».

ــ أما دهشة المؤلف من وضع هذه السورة في القرآن. فإن دهشته هي المدهشة، لأن الله هو المتكلم، وليس النبي وما كان للنبي إلا إعلان ما ينزل عليه.

فهو بشر مثل غيره، يخطئ ويصيب بغير الوحي. فالوحي هو الذي يميزه عن الناس: وقد أُمِرَ أن يعلن ذلك للناس حتى لا يظنوا أنه «ملاك».

ــ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾ (الكهف: ١٨/ ١١٠).

ــ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ...﴾ (فصلت: ٤١/ ٦).

وهو ببشريته، شرح الله صدره بأخلاق كريمة وصفها القرآن بقوله.

ــ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٦٨/ ٤).

ــ ﴿...وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ (آل عمران: ٣/ ١٥٩).

وتلك صفات ميَّز الله بها الأنبياء عن سواهم. فالسيد المسيح، صرخ وهو على الصليب طالباً المغفرة لجلاديه قائلاً:

«يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون...» (لوقا ــ ٢٣/٣٢).

٩ ــ وقارن المؤلف بين الآية ٢٣ ــ من سورة التكوير والآية ٧ ــ من سورة النجم. وتساءل: من هو الذي رآه محمد : «بالأفق الأعلى ــ ٧» و«بالأفق المبين ــ ٢٣» هل هما: شخص واحد أم شخصان.

يؤسفنا جداً أن هذا المؤلف الذي تصدى لآيات القرآن تفتيشاً وتنقيباً بين الحروف والفواصل، أن يتغافل عن أمر واضح جداً. وهو أن الوحي من الله

http://kotob.has.it

وكان الملاك جبرائيل هو المكلف بنقله. فالأفق المبين، هو الأفق الأعلى. أي «أفق المشرق» لأنه فوق جانب أفق المغرب في صعيد الأرض[1] وهو ــ أي جبرائيل «الأمين» و«ذو القوة المتين»: ولن يخالجنا شك في أن المؤلف على علم بهذه الحقائق. ولكنه سعى هنا مثلما سعى هناك ومثلما سوف يسعى في ما يأتي من آيات، ليقنع القارئ بأن محمداً كان يخدع الناس بنسبة الآيات إلى الله فيما هو يضعها تغطية لحاجاته وظروفه.

١٠ ــ وبعد الآيتين ٢٠ ــ ١٩ من سورة النجم. وبعد أن عاد إلى بعض المراجع الحاقدة ووجد فيها بعد الآية ٢٠ ــ آيتين كانتا قد وردتا في مدح آلهة قريش وتعظيمها بقولهما «تلك الغرانيق العلا. إن شفاعتهن لترتجى»

فقابل ذلك بغبطة «أرخميدس»، غير أن أرخميدس وجدها فعلاً. أما نولدكه فقد أخفتها عن عينيه سحب الانحياز. حيث قال: «يمكن تفسير هذه القصة انطلاقاً من الخوف الذي اعترى في ذلك الحين محمداً الذي فتش عن حل وسط مع الدين القويم».

وتابع: «يعترف موير وشبرنغر أن الحادث حصل فعلاً ورأيا فيه دافعاً لوصف النبي (ﷺ) بالخداع.. ومن الواضح أن المؤلف ــ وإن كان عاد في وصف النبي بالخداع إلى «موير» و«شبرنغر» فقوله السابق الذي اتهم محمداً بعد الثقة بربه وأنه خاف على دين الله من قريش لا يختلف كثيراً عن التصريح بالخداع.

على كل حال. فإننا، منذ أن قرأنا كتاب المؤلف تأكد لدينا أن نظرة المستشرقين إلى القرآن ومحمد والإسلام هي واحدة لا يختلف فيها المتقدم عن المتأخر. ولكننا لن نقف طويلاً عند القولين، بل سوف نعود بالقارئ إلى سورة النجم بكاملها، لنقرأها بتمعن على ضوء قوانين اللغة، وعبقريتها.. وللتقريب والترتيب يقسم ما يهمنا الآن من السورة إلى ثلاثة أقسام:

ــ من الآية ١ ــ حتى الآية ١٨ ــ

ــ الآيتان ١٩ ــ و٢٠ ــ

ــ الآيات من ٢١ حتى الأخير ــ ٣١.

---

[1] الشرقاوي ــ ص ــ ٢٨٨ ــ من المجلد الخامس.

http://kotob.has.it

ففي القسم الأول: تأكيد على أن النبي (ﷺ) ما ضل عن الحق، ولا نطق بالهوى لأن نطقه بالآيات، هو وحي أوحي إليه من الله. جاء به جبرائيل «شديد القوى». «ذو مِرَّةٍ فاستوى». «وهو بالأفق الأعلى». «ثم دنا فتدلى». «فكان من النبي قاب قوسين أو أدنى». «فأوحى إلى عبده ما أوحى».

ولقد رآه مرة أخرى: أي مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في الأفق الأعلى.

وفي القسم الثاني: بعد أن استرسل الوحي في الحديث عن صدق الرؤية «ما زاغ البصر وما طغى». «أفتُمَارُونه على ما يرى»

فالتفت إلى المشركين قائلاً بلهجة تهكمية: أين آلهتكم «اللات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى» (١٩ - ٢٠) أين موقعها إن كانت كما تزعمون ــ «بنات الله»؟ ومن الواضح أن هذا الاستفهام هو من النوع التهكمي الاستنكاري.

وفي القسم الثالث: على امتداد الآيات «٢١ ــ ٢٢ ــ ٢٣ ــ» تهكم على تلك الآلهة «ألكم الذكر وله الأنثى»[1] تلك إذن قسمة ضيزى». «إن هي إلا أسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى».

هنا نقف مع القارئ لنقول ونرى، أنه ليس من المعقول فكرياً، ولا من المقبول بيانياً. أن يصف الأصنام بالغرانيق وأن ترتجي الشفاعة منهن، بعد أن نفى نفياً قاطعاً أن يكون بينها وبين الوحي أية صلة.

كما: أنه ليس من المعقول ولا المقبول أن ينتقل من حالة تقديس الأصنام إلى حالة التهكم عليها، ووصفها بأنها أسماء توارثها الأبناء عن الآباء ولم ينزل بها الله أي سلطان، وأن الاعتقاد بقداستها، هو اتباع للظن، وما تهوى الأنفس.

نعود لنقول مؤكدين: إن إيجاد صيغة «تلك الغرانيق العلا، إن شفاعتهن لترتجى» بعد الآية ٢٠ ــ وقبل ــ «ألكم الذكر وله الأنثى». «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان». يترك خللاً بلاغياً وموضوعياً يجل عنه القرآن الذي نزل بأسمى حالات اللغة العربية حتى وصل إلى درجة إعجاز البلغاء عن بلوغ مستواه.

هذا عدا عن أن الدعوة الإسلامية من ألفها إلى يائها، قامت على توحيد الله وهجران الأصنام.

---

[1] اعتبرتموها بنات الله. فخصصتموه بالإناث أما أنتم فقد اختصصتم بالذكور. إشارة إلى عادة التشاؤم من البنات ووأدهن التي كانت سائدة في العصر الجاهلي.

http://kotob.has.it

١١ ــ على أن هذا «الأرخميدس» لم تقف فرحته، عند سورة النجم، بل تعداها إلى غيرها، كما سوف نرى. فقال عن سورة الفاتحة في القرآن: «إنها تنتمي إلى أصل يهودي ومسيحي كما هو مبرهن عليه في الهامش». نزلنا إلى الهامش، لنقرأ فيه قوله:

ــ آية «الحمد لله» مأخوذة من إنجيل لوقا ٦٨/١ وكورنثوس الثانية ١ /٣ وسفر الخروج ١٠/١٨. تتبعنا قوله فوجدنا ما يلي حرفياً:

الآية ٦٨ ــ من الإصحاح الأول من إنجيل لوقا ــ تقول:

ــ «مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع فداءاً لشعبه» ٦٨/١

الآية ٣ ــ من رسالة كورنثوس الثانية ــ تقول:

ــ «مبارك الله ...أبو ربنا يسوع المسيح أبو الرأفة وإله التعزية» ٣/١

الآية ١٠ ــ من الإصحاح ١٨ ــ من الخروج قالت:

ــ «وقال يثرون مبارك الذي أنقذكم من أيدي المصريين ومن يد فرعون» ١٠/١٨ ومع أن المسلمين، آمنوا بأن كلمة الله واحدة. كما آمنوا بأنها كانت تلقى إلى الرسل ليبلغوها إلى الناس على مقاس تطورهم العقلي فإننا: لم نجد ذلك الانتماء لذي زعمه المؤلف: ونرجو من كل قارئ، أن يحدق جيداً في الآيات الثلاثة، وأن يقارن بينها وبين الآية القرآنية «الحمد لله» لعله يرى ما رآه «أرخميدس» القرن العشرين «نولدكه».

ــ آية «رب العالمين» قال المؤلف إنها تنتمي إلى:

الجامعة ــ ٣/٧ –١٣ و٧/٩، وراعوث ــ ٢١/٤، وتكوين ١/٢٢-٥ و٢٧/٤٩، وخروج ١١/١٢ و١٧/١٩، وعدد ٢١/-٤.

عدنا إلى الآيات التي اعتبرها الأب الطبيعي للآية القرآنية «رب العالمين» فلم نجد هنا أيضاً تلك العلاقة النسبية، التي وجدها المؤلف.

وها إننا ندونها بحرفيتها، لكي يكون حكم القارئ على «الشاهد»

ــ «الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجد يصلح القلب» (**الجامعة ــ ٣/٧**).

ــ «اذهب كل خبزك بفرح لان الله منذ زمان قد رضي عملك» (**الجامعة ــ ٧/٩**).

ــ «وحصرون ولد رام ورام ولد سلمون» (**راعوث ــ ٢٠/٤**).

ــ «وحدث بعد هذه الأمور إن الله امتحن إبراهيم وقال له يا إبراهيم فقال ها أناذا» (**تكوين ــ ١/٢٢**).

http://kotob.has.it

ـ «فقال إبراهيم لغلاميه اجلسا أنتما ههنا مع الحمار وأما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ثم نرجع إليكما» (تكوين ـ ٢٢/٥).

ـ «بنيامين ذئب يفترس. في الصباح يأكل غنيمة وفي المساء يقسِّم نهباً» (تكوين ـ ٤٩/٢٧).

ـ «وهكذا تأكلونه أحقاؤكم مشدودة وأحذيتكم في أرجلكم وعصيكم في أيديكم» (خروج ـ ١٢/١١).

ـ «وأخرج موسى الشعب من المحلة لملاقاة الله فوقفوا في أسفل الجبل» (خروج ـ ١٩/١٧).

ـ «ولما سمع الكنعاني ملك عراد الساكن في الجنوب أن إسرائيل جاء في طريق أفاريم حارب إسرائيل وسبى منهم سبياً» (عدد ـ ٢١/١).

ـ «لذلك يقال في كتاب حروب الرب، واهِبٌ في سوفه وأودية أرنوث» (عدد ـ ٢١/١٤).

هذه هي الآيات بحرفيتها من مصادرها. حدقت فيها جيداً، وقلبتها يميناً ويساراً فلم أجد أي نسب أو انتماء بين الآية القرآنية وبينها. ولقد وضعتها بحرفيتها بين يديك أيها القارئ لتحكم بالإنصاف على هذا المؤرخ الذي لم يكتف «بالتحريف» بل لجأ إلى الإدعاء والوضع.

ـ آية «الرحمن الرحيم» قال المؤلف: بهذه العبادة قلد محمد من سبقه «مسيلمة» الذي كان يدعي النبوة ويسمي نفسه «رحمان اليمامة» ومنافسه «أسود» الذي كان يدعي النبوة في اليمن ويسمي نفسه «رحمان اليمن».

ولكن كلمة «الرحمن» و«الرحيم» كلمتان عربيتان، مشتقتان من الثلاثي «رَحِمَ» التي أخذت مع مشتقاتها حوالي خمسة أعمدة من معجم «لسان العرب» فالرحمة والرحمن والرحيم، معان تدل على العطف والشفقة.

وفي قوله تعالى، بوصف القرآن:

ـ ﴿... وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (الجاثية: ٤٥/ ٢٠).

وقال في وصية التعامل بين أبناء آدم:

ـ ﴿... وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد: ٩٠/ ١٧).

http://kotob.has.it

فالرحمن في القرآن، هو أحد أسماء الله، الذي:

ـ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ (الرحمن: ٥٥/ ٢).

ـ ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ (الرحمن: ٥٥/ ٣).

ـ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: ٥٥/ ٤).

وإليه: ـ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ (الرحمن: ٥٥/ ٦).

ـ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ (الرحمن: ٥٥/ ٧).

لا يمكن لغير المؤلف أن يقارن بينه وبين رحمان اليمامة أو رحمان اليمن. إذ كل منهما أضيفت إليه الرحمة بصيغة محلية ضيقة وبطابع بشري بحت.

على أنها، وقد أضيفت إلى الله ودخلت في جملة أسمائه، أصبحت إضافتها إلى البشر محرمة فتقول عن زيد «إنه رحيم» ولكنك لا تقول «إنه رحمان»وفي القرآن صراحة، بأن الرحمن هو الله. وذلك في الآية:

ـ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الإسراء: ١٧/ ١١٠).

ـ آية «مالك يوم الدين» قال: لكي تعرف مرجعية هذه الآية اقرأ:

الجامعة ٣/١٥ و١٧ و٧/١٥ و١٢/١٤، وأيوب ٥/٤، وعدد ٢/٧-١٧، ومتى ٢/٢، ويوحنا ١٩/٣.

أما نحن الذين أخذنا على عاتقنا أن نتبع المؤلف حتى «باب الدار» ـ كما في المثل العربي ـ عدنا إلى أسفار التوراة وإنجيلي متى ويوحنا، فكان من الأمانة أن نضع تلك الآيات بحروفها بين يديك أيها القارئ لكي تحكم فيما إذا كانت تشكل مرجعية للآية القرآنية.

ـ «ما كان فمن القدم هو وما يكون فمن القدم قد كان والله يطلب ما قد مضى» (الجامعة ـ ٣/١٥).

ـ «فقلت في قلبي: الله يدين الصدِّيق والشرير. لأن لكل أمرٍ ولكل عمل وقتاً هناك» (الجامعة ـ ٣/١٧).

ـ «قد رأيت الكل في أيام بُطلي. قد يكون بارٌّ يبيد في برِّهِ. وقد يكون شرير يطول في شره» (الجامعة ـ ٧/١٥).

ـ «لأن الله يحضِّر كل عمل إلى الدينونة على كل خفي إن كان خيراً أو شراً» (الجامعة ـ ١٢/١٤).

ـ «بنوه بعيدون عن الأمن وقد تحطموا عند الباب ولا منقذ»(أيوب ـ ٥/٤).

http://kotob.has.it

ـ «يجري ماءً من دلائه ويكون زرعه على مياهٍ غزيرة ويتسامى ملكه على أجاج وترتفع مملكته» (عدد ـ ٧/٢٤).

ـ «أراه ولكن ليس الآن. أبصره ولكن ليس قريباً. يبرز كوكب من يعقوب ويقوم قضيب من إسرائيل فيحطم طرفي موآب، ويهلك كل بني الوغى» (عدد ـ ١٧/٢٤).

ـ «قائلين: أين هو المولود ملك اليهود فإننا قد رأينا ...نجمه في المشرق وأتينا نسجد له» (متى ـ ٢/٢).

ـ «وكانوا يقولون: السلام يا ملك اليهود وكانوا يلطمون» (يوحنا ـ ٣/١٩).

قبل قول أية كلمة. نذكر القارئ بأننا قلنا. بان المسلمين يؤمنون أن كلمة الله واحدة، وإنها خالدة ـ كما قال السيد المسيح ـ «تزول السماء والأرض ولا تزول» فإن وجد تشابه بالمعاني، بين ما غَبَر منها وما حَضَر، فذلك من الأمور الطبيعية لأن المتكلم واحد، هو الله، وغايته واحدة وعنايته لم تنفصل عن خلقه منذ أن خلقهم. ثم لابد أيضاً من الاشتباه الكبير في نية هذا المؤلف ومصداقيته. فهو فيما سبق أكد أن محمداً لم يكن يقرأ شيئاً من كتب اليهود والمسيحيين. وهو هنا يؤكد أن آيات الفاتحة جميعها مأخوذة من أسفار التوراة والأناجيل. لقد كان متحاملاً في الثانية. وكان صادقاً في الأولى. لأن ثمة استحالتين تحولان دون الاعتماد على التوراة والإنجيل.

أولهما: إن النبي (ﷺ) كان أمياً. بالمعنى العربي لهذه الكلمة.

الثانية: كانت جميع الكتب اليهودية والمسيحية باللغات الأجنبية ولم يكن هو ولا واحد من الصحابة يفهم اللغات الأجنبية. فإن وجد تشابه ما بين آية من القرآن وآية من التوراة أو الإنجيل، فلأن الظروف متشابهة، ولأن المتكلم واحد. وغايته من التنزيل والرسل واحدة.

وبعد: لن يرى القارئ من تشابه إلا فيما تعلق «بيوم الدين» الذي جاء التعبير عنه في الجامعة «بيوم الدينونة»

ـ وفي «أعمال الرسل» ٣١/١٧ و٢٥/٢٤.

ـ وفي «رسالة بطرس الأولى» ٥/٤.

ـ وفي جميع الرسائل.

وما ذلك إلا لأن الجميع يعتقدون بأن الله هو القاضي العادل الذي يرجع إليه جميع الخلق في اليوم الأخير «يوم الدينونة» أو «يوم الدين» ليجزي ويجازي بمقدار الأعمال.

http://kotob.has.it

١٢ ــ **والسبع المثاني:** التي وردت في القرآن:

ــ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ١٥/ ٨٧).

ــ ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ ...﴾ (الزمر: ٣٩/ ٢٣).

قال: تعددت معانيها. ولكن أصلح تلك المعاني للقبول هو: أن هذه الكلمة مأخوذة عن الأصل العبري «مشنا» والأفضل القول بالكلمة اليهودية الآرامية «مثنيثو» أي التقليد وهو المقصود بالآية ٨٧ ــ من سورة الحج.

فالذين قالوا: إن الفاتحة هي السبع المثاني، لأن آياتها ست وليس سبعاً ذلك قول المؤلف بالضبط. فلقد اعتدنا ألا نراه إلا وهو يلقي بالفكر الإسلامي ونصوصه المقدسة في حضن اليهودية أو سواها. حتى ولو لم يكن الحضن الغريب محتوياً على الكتاب المقدس.

إنه لا يستطيع أن يرى في كتلة العلوم العبادية والمعرفية والتشريعية والأخلاق التي جاءت في القرآن غير تَتِمَّةٍ وتكملة لما جاء قبله في الإنجيل والتوراة. مع أن جميع ذلك جاء دروساً تهذيبية لعقل الإنسان وضميره وسلوكه العبادي. ولكن: فلنلتفت عن «مشنا» و«مثنيثو» ولنعد إلى العربية، ولنبحث في قاع تلك اللغة لنرى إن كان لكلمة المثاني أصل فيها أم أنها استوردت استيراداً من اليهودية.

المثاني: كلمة عربية مشتقة من الثلاثي «ثَنَى»: ثنى الشيء ثنياً أي ردَّ بعضه على بعض. وقد: تثنَّى، وانثنى، وانثناؤه، ومثانيه. جميعها مشتقات من الثلاثي، وقد وردت بصيغ مختلفة.

والاثنان ــ كما هو معروف ــ هما ضعف الواحد.

وعندما يقال الاثنان بقصد الإشارة إلى اليوم فالمقصود «الأحد والاثنين».

ويوم الاثنين لا يثنَّى ولا يجمع لأن صيغته مثنى ولأنه الثاني في الأسبوع. وروي عن حسان بن ثابت قوله:

من للقوافي بعد حسَّان وابنه ومن للمثاني بعد زيد بن ثابت

وزيد بن ثابت صحابي عاش بين ١١ ــ ق.هـ و٤٥ هـ خزرجي الانتماء. كان من حفظة القرآن وقد أخرج أحمد في مسنده عن الرسول (ﷺ) قوله «أفرضكم زيد» وقال ابن عباس لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أن زيداً من الراسخين في العلم. وقد ترأس لجنة تصحيف القرآن التي شكلها عثمان.

http://kotob.has.it

أما المشنا: فهي التجارب والاجتهادات اليهودية التي ظلت تتوارد وتتراكم حتى القرن الثاني الميلادي حيث قام «الرابيّ» «يهودا هنسيا» في منتصف القرن الثاني بجمع مخلفات الأحبار: «هال» و«عتيبا» و«ماير» وترتيبها. ثم أضاف إليها الكثير من أقواله وشروحه وتجاربه وسمى هذا الخليط «مشنا» فكانت مشناه، أي مشنا يهودا هي المشنا اليهودية.

ومع أنها جُمعت بعبرية التوراة. وبأسلوب أبسط من أسلوب التوراة إلا أنها اختلفت عن التوراة في اللفظ والصيغة والجملة. مما حمل الأحبار فيما بعد إلى وضع الشروح والتفاسير والإفاضة في مجموع خاص سموه «الجمارا» كما أضافوا كتاباً آخر أطلقوا عليه اسم «المدراش» وهو التعمق في الشريعة.

ومنذ القرن الثالث الميلادي صارت ثلاثية «التلمود» تضم «المشنا والجمارا والمدراش». هذه: هي كلمة مشنا، وهذا معناها وفحواها. تلك التي اعتبرها «نولدكه» أساس الكلمة القرآنية «مثاني».

بعد هذا نعود إلى المثاني في القرآن :

ـ الذين قالوا أنها الفاتحة، هم عدد كبير. ولكننا سوف نقتصر على الصحابة منهم الذين ذكرهم الطبرسي في شرحه للآية ٨٧ ـ من سورة الحجر. وهم: «علي» و«ابن عباس» و«الحسن» و«أبو العالية» و«سعيد بن جبير» و«إبراهيم» و«مجاهد» و«قتادة». وقال بقولهم كثيرون بعدهم.

ـ إن أسباب تسمية الفاتحة بالمثاني هي:

ـ إن قراءتها تثنى في الصلاة.

ـ نصفها ثناء ونصفها دعاء.

ـ نزلت مرتين تعظيماً لها.

ـ تثني أهل الفسق عن فسوقهم.

أما الذين قالوا بأن كلمة «مثاني» تعني القرآن. آخذاً من الآية (الزمر:٢٣/٣٩). حيث حددوا ما تعنيه كلمة الثاني في الآية المذكورة. وقالوا: سمي القرآن مثاني في الآية: ـ لأن بعض الأخبار والمواعظ تثنى فيه، تارة بضروب البيان وتارة بالتلاوة كيلا يحصل ملل من سماعه.

http://kotob.has.it

أما قول نولدكه بأن الفاتحة ست آيات لا سبع. فهو قول خطأ لما يلي:

ـ جميع المصاحف في جميع البلدان الإسلامية تضمنت أن سورة الفاتحة هي برقم (١) وأن عدد آياتها هو (٧).

ـ إن إسقاط «بسم الله الرحمن الرحيم» التي هي الآية رقم ١ ـ من الفاتحة. هو تصرف مسيء. لأنها قرئت وكتبت هكذا منذ عهد الرسول (ﷺ).

ـ وحينما أكد علي والحسن وابن عباس وابن جبير والذين قالوا بقولهم بعهدهم ومن بعدهم، أن الفاتحة هي «السبع المثاني» كانوا يعرفون العدد تماماً. ويعرفون أن الفاتحة سبع آيات وأن البسملة هي الآية الأولى. ولا أظن أي قارئ أو منصف، يحيد عن قول أولئك ليأخذ بقول «نولدكه» و«هايغر».

ـ والمؤلف الذي تعب كثيراً، لينفي عن الفاتحة كلمة «السبع المثاني» (ص ـ ١٠٣) لم يقدم للقارئ أي تفسير لكلمة المثاني، بل اكتفى بتهشيم الآراء فقط. مثل عادته دوماً.

ـ يطوي الآيات ويثنيها، ليحشرها في ثقب يهودي.

ـ وما لا يطوى معه، يبدده إلى أقسام ويتركه مبعثراً.

فذلك بالنسبة إليه، كان هدفاً أساسياً، أخفاه وراء حشد من المنقولات عن كتب المتأخرين الإسلاميين. مهملاً كل ما ثبت صدوره عن الصحابة الذين عاصروا الدعوة الإسلامية وعاشوها من ألفها حتى آخر حرف من حروفها.

وقد كان له من المثل الشائع «أهل مكة أدرى بشعابها» ما يلزمه باتباع الصحابة الذين عرفوا فحوى الآيات والعبارات أكثر ممن جاء بعدهم.

ـ وإذ يقول:

ـ البسملة في القرآن تعود إلى الفقرة ١٧ ـ من الإصحاح ٣ ـ من رسالة الرسول بولس إلى أهل كولوسي.

ـ الآية ٤١ ـ من سورة هود والآية ٣٠ ـ من سورة النمل ينبتان عن أصل يهودي.

فإنه يسير في حقل من الأخطاء الفكرية والكتابية:

أ ـ فالآية ١٧/٣ ـ من «كولوسي» تقول بالحرف: كل ما عملتم بقول أو بفعل فاعملوا الكل باسم الرب يسوع شاكرين الله والآب به.

http://kotob.has.it

فأين وجه التشابه؟ طبعاً هو لم يحدد وجه التشابه. ولو نوى ذلك لما وجد.

ولكن: لماذا لم يسأل نفسه وهو يقرأ الآية ١٧ ــ من كولوسي: كيف يمكن تصور «الله والآب» فهل الله غير الآب وهل الآب غير الله؟

ب ــ والآية (هود: ١١/ ٤١).

ــ ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

والآية (النمل: ٢٧/ ٣٠).

ــ ﴿إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

يقول نولدكه: البسملة في الآيتين ترجعان بلا لبس إلى أصل يهودي. ومع أن ذلك ــ كما قال ــ بلا لبس. فهو لم يقدم أي مصدر يهودي، لأنه ــ على ما يبدو ــ وجد نفسه معفى من تقديم الدليل. وهو إن كان حراً في إعفاء نفسه «فالمتلقي» لا يعفيه، ولا يأخذ بقوله دون دليل حاسم.

الفترة المكية الثانية:

في هذه الفترة الممتدة من ص ــ ١٠٥ ــ ١٢٧ من كتاب المؤلف، وفي الفترة الثالثة الممتدة من ص ــ ١٢٨ ــ ١٤٩ ــ

وفي السور المدنية الممتدة من ص ــ ١٥٠ ــ حتى آخر الكتاب. لن نغير من خطتنا مع المؤلف، لأن المؤلف لم يغير من خطته ولم ينحرف قيد شعرة عن خطه فقلمه المثقل بالعواطف اللدودة لا يفتأ يجزئ الآيات ويفسرها في ظل عواطفه، دون الاهتمام بأن ذلك يخالف المهمة التاريخية التي رصد لها كتابه. وأن ذلك يخالف مبدأ الحياد الذي يجب ألا يغادر قلم العالم.

قلنا مراراً: إن المسلمين في أنحاء الدنيا غير معنيين. بالوقوف على الروايات المتناقضة في تواريخ نزول الآيات وأماكن نزولها. وأن أي قارئ لتلك الروايات إنما يقرأها للرفاهية وليست لحاجة العقل، التي ارتوت بما في الكتاب والسنة الصحيحة.

كما أنهم بطوائفهم كافة، غير معنيين بِنُسَخِ المصاحف التي أمر عثمان بإحراقها، لان المصحف الإمام المعتمد السائد بينها. هو الذي وحَّد الكلمة. وجمع الآراء. ولو كان فيه نقص أو زيادة يخلان بجوهر الدعوة، لجاهر الصحابة آنذاك في المعارضة والاحتجاج، حتى الجهاد.

http://kotob.has.it

تعدد نسخ الكتب، واعتماد واحد أو أكثر وتحريق الباقي، ظرف مرت به المسيحية مثلما مرت به الدعوة الإسلامية.

فحتى مجمع نيقية الذي عقد بأمر الإمبراطور قسطنطين في سنة ٣٢٥م كانت تنتشر بين المسيحيين أعداد كثيرة من الأناجيل والرسائل، اختار المؤتمر ــ بإلهام الله ــ الأناجيل الأربعة الحالية واعتمدها. وأمر بتحريق النسخ الأخرى وملاحقة أربابها الذين فرَّ من بقي حياً إلى جوار الإمبراطورية الفارسية. وليس لأحد أن يلوم ذلك التصرف. إذ لولاه لما توحدت كلمة المسيحيين على الأناجيل الحالية. لذلك: سوف نكتفي بتتبُّع أفكاره فيما يتعلق بنقده للقرآن واتهامه محمداً بخداع الناس. وانتقائه من بين من كتبوا وألَّفوا عن الكتاب وفترة الدعوة، أكثر المراجع خصومة للفكر الإسلامي.

١ ــ قال في ص ــ ١٠٥ ــ

«اعتمد محمد في هذه الفترة أكبر قدر من السكينة، معدلاً أسلوبه ليبطل ويعطل الشك في أنه شاعر أو كاهن.

ويقدم في هامش الصفحة الأدلة القرآنية على صحة قوله وهي: «الآية ٧٠ ــ المؤمنون» و«الآيتان ــ ٨ و٤٦ من سبأ» و«الآية ١٨٤ ــ من الأعراف»

قبل عرض الآيات بحروفها، نود تكرار التأكيد على عدالة الشك في نية المؤلف. فهو ــ حتى لو لم يكن في وضع فكري محرج ــ لا يغفل أبداً عن الصراخ بأن الله ليس له علاقة بالقرآن. وأنه من صنع محمد وتخطيطه السياسي.

طبعاً ــ وهو من أبناء القرن العشرين ــ لا يبغي من هذا الاستهداف غير أتباع القرآن والمؤمنين به وبمحمد. فهو يهمه أن يغرس القناعة في نفوسهم أن القرآن صناعة بشرية اخترعها شخص عادي. كان يغير أسلوبه مع تغيير المناسبات والمناخات السياسية.

أما الآيات الأدلة فهي الآتية:

ــ ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٣/ ٧٠).

ــ ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (سبأ: ٣٤/ ٨).

ــ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٣٤/ ٤٦).

ــ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: ٧/ ١٨٤).

http://kotob.has.it

ليس في هذه الفترة فقط، بل فيما قبلها وما بعدها، لم يتوقف المشركون عن اتهام محمد، بالكهانة والجنون وممارسة الشعر في القرآن، ويستنكرون أن يرسل الله رسولاً من البشر مثل البشر يأكل وينام ويستيقظ ويسير بين الناس.

وكان القرآن يجادلهم تارة، بالحسنى، وتارة بسوء العاقبة. ويذكرهم بأن جميع الرسل، السابقين، كانوا بشراً كالبشر ولكن الله اصطفاهم وخصهم بصفات لم تتوفر في سواهم.

- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ...﴾ (يوسف: ١٢/ ١٥٩).
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ...﴾ (النحل: ١٦/ ٤٣).
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم ...﴾ (الأنبياء: ٢١/ ٧).
- ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٢١/ ٨).
- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾ (الفرقان: ٢٥/ ٢٠).

فإن كان ثمة في تغيير صيغة الجدال. فالذي يتكلم يعرف طبيعة المناسبات. ويعرف صيغة الخطاب التي تناسبها.

على أن ما يجب ألا يغيب عن أي باحث أن الدعوة نشرها بأمر الله، رجل بين البشر، لذلك ولأنها استمرت منجَّمة ربع قرن تقريباً. كانت صيغ الخطاب تتغير، شدة ولياناً على مقاس تطور العقل. وتدرجه في قبول الدعوة.

ففي الفترة الرسالية التي خفت فيها حدة المجابهة، واتسعت مساحة الدعوة بين الناس وازدادت عمقاً في النفوس. وصار الكثيرون يستفتون عقولهم ويبعدون عواطفهم مالت لهجة الخطاب بهذا الاتجاه، وأي منصف من الباحثين:

- لو قرأ شيئاً عن موسى لعلم أنه عاش بين الناس مثل الناس وأن التوراة لم تنزل عليه جملة، بل نزلت منجَّمة تابعة للحوادث والمستجدات.
- ولو قرأ شيئاً عن السيد المسيح لقرأ أقواله وتأكيده على أنه «ابن الإنسان» وقد أكل وشرب ونام وصلب ــ كما يعتقد الكثيرون ــ

لو قرأ ما سبق بحياد وإنصاف. وقرأ تأكيد القرآن على أن الرسالة الإلهية لا توجه إلى البشر إلا عن طريق رسول بشري.

- ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلآئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً﴾ (الإسراء: ١٧/ ٩٥).
- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام: ٦/ ٩).

http://kotob.has.it

بقي بعد ذلك أن نقول: إن جميع من يدين بالإسلام والقرآن وقدسية محمد، لن يغير كتاب «نولدكه» شيئاً من قناعاتهم. وجميع من يدين بعكس ذلك لم يكونوا في حاجة إلى كتاب « نولدكه» لأنهم ممتلئون قناعة بما في الكتاب قبل قراءته، بل وبدون قراءته.

٢ ــ قال في ص ــ ١٠٦: للمرة الثالثة، أو الرابعة وليست الأخيرة حتماً:

«إننا على معرفة وثيقة بأن أصل القرآن هو في الكتاب المقدس»فقلنا وما نزال على قولنا: إن التشابه في معاني النصوص بمواضيع التوحيد والعبادة، وقواعد الأخلاق لدى جميع الكتب الإلهية هو الأمر الطبيعي وحده، لأن المتكلم واحد، هو الله. ولأن غايته واحدة، وهي تربية روح الإنسان وعقله وجسده.

وحين نجد في اللاحق ما يختلف عن السابق، فذلك ليس إلا فيما يتعلق بالعلاقات الاجتماعية. التي كانت تتغير على مقاس درجة تطور العقل البشري والمرحلة التي وصل إليها في قبول الكلمة والقيام بما تفرضه من طقوس وواجبات. أي: ليس الاختلاف غير الإكمال دون مساس بما سبق. فالمسيح: الذي قال:

ــ «ما جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء جئت لأكمل فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متى: ٥/١٧ ــ ١٨).

حدد بعد ذلك أن نواحي الإكمال تتعلق بالمشاكل الإنسانية الدنيوية.

ــ «فما يدخل إلى الفم لا ينجِّس، الذي يخرج منه هو الذي ينجِّس»

ــ «والسبت جُعِل للإنسان وما جُعِل الإنسان للسبت» (مرقس: ٢/٢٧).

ــ «وأنه لأيسر أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة من أن يدخل الغني ملكوت السماوات» (متى: ١٩/٢٣ ــ ٢٤).

ــ «ولا أحد يقدر أن يخدم سيدين.. الله والمال» (متى: ٦/٢٤).

حتى شريعة السبت التي لم يلغها المسيح بل ظلت لديه مقدسة ظل يدخل إلى المجمع يوم السبت كعادته (لوقا ــ ٤/١٦) ومع ذلك وجد أن واجب المحبة مقدم مادياً على التمسك براحة السبت.

ومحمد الذي أرسل بعده بأكثر من ستة قرون، قال: «إنما أرسلت لأتمم مكارم الأخلاق». وحينما قوبل بمعارضة من لا يؤمن بوجود الله وعورض

http://kotob.has.it

بمن لا يؤمن بوحدانيته. كلف أن يبلغ الناس سورة الإخلاص، لأنها تعبر عن التوحيد، وهي وسطٌ بين القولين.

كما أنه حينما قوبل بمعارضة من لا يؤمنون بغير مفاتن الدنيا وعورض بمن لا يقيم أي وزن للدنيا، كلف أن يتلو على الناس حكم الله الوسط .

ـ ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص: ٢٨/ ٧٧).

٣ ـ وإذا حذا المؤلف حذو مشركي قريش ووصف النبي بانه شاعر مثلما وصفوه فقد كان يكفيه لو كان حياديَّ الفكر والقلم أن يقرأ الأوصاف التي وصف بها الشعراء في القرآن. تلك الأوصاف تُرغم ممتهن الشعر على تركه.

ففي سورة «الشعراء» قال القرآن:

ـ ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ، يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ، وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٢٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٦).

وفي سورة يس يتحدث القرآن عن النبي فيقول

ـ ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ (يس: ٣٦/ ٦٩).

فالشعراء المعاصرون للنبي: «عبد الله بن الزبعري» و«أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب» و«هبيرة بن أبي وهب المخزومي» و«مسافع بن عبد مناف الجمحي» و«أبو عزّة عمرو بن عبد الله» و«أمية بن أبي الصلت» هؤلاء الشعراء كانوا يهجون النبي ويقولون: نحن شعراء وهو شاعر وإننا لنقول مثل قوله.

فلو بذل الكاتب شيئاً من الجهد الصادق وقرأ تنديد القرآن بالشعراء وتأكيده على أن الله لم يعلمه الشعر. ولم يأذن له به. وان القرآن لم يستثن مما قاله في الشعراء عامة إلا اللذين «آمنوا» و«عملوا الصالحات» و«وذكروا الله كثيراً» و«انتصروا من بعد ما ظلموا» الآية ٢٢٧ ـ من سورة الشعراء.

لما وصف لنبي بأنه شاعر، ولما وصف القرآن بأنه شعر. ولكنه ـ وهو بميزانه ذي الكفة الواحدة ـ كأنه المعني بقول الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة ولكن عين السوء تبدي المساويا

http://kotob.has.it

٤ ــ قال المؤلف: في ص ١٠٧:

في هذه الفترة المكية أطلق محمد على إلهه اسم الرحمن، وقبلها لم يطلقه.

عجيب أمر هذا المؤلف. ألم يكتب هو في ص ٢ ــ من كتابه أن سورة الفاتحة رقم ١ ــ وسورة الرحمن رقم ٥٥ ــ من سور الفترة المكية الأولى؟ ففي الفاتحة أول الأسماء هي الله وثاني الأسماء الرحمن.

وفي الثانية: الرحمن هو الذي علم القرآن، وهو الذي خلق الإنسان، «علمه البيان وله النجم والشجر يسجدان. والسماء رفعها ووضع الميزان (سورة الرحمن: ٥٥) كذلك في (النبأ: ٧٨/ ٣٧ ــ ٣٨):

ــ ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَاباً، يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾

ألم يكن جديراً به أن يتذكر/ما كتبه/ قبل أن يصدر حكمه. وإذا كانت الفاتحة ــ ١ ــ والرحمن ــ ٥٥ ــ والنبأ ــ ٧٨ ــ قد نزلت في الفترة المكية الأولى، وكانت كلمة الرحمن مشيرة فيها إلى الإله الخالق. فكيف يقول: إن الرحمن لم يطلق قبل الفترة المكية الثانية بتاتاً.

ثمة مثل عربي في من هو أحوج من سواه إلى أن يكون ذكوراً. لن نضعه هنا تقديراً لعلم المؤلف وترفعاً به. ثم لم يكتف المؤلف هنا بل قال: «إن اسم الرحمن غاب تماماً في السور المدنية. ولعل ذلك هو لأبعاد الشك في أن محمد يعبد إلهين الرحمن والله » ص ــ ١٠٧

مرة ثانية وثالثة نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله. كيف يمكن التعامل مع هذا المؤلف. الذي نفى وجود اسم الرحمن بتاتاً قبل الفترة المكية الأولى. ونفاه تماماً في السور المدنية. مع أنه ورد في المدنية بالسور الآتية: «البقرة ٢ ــ الآية ١٦٣» و«الحشر ٥٩ ــ الآية ٢٢» ففي البقرة: نصت الآية:

ــ ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: ٢/ ١٦٣).

وفي الحشر: نصت الآية

ــ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (الحشر: ٥٩/ ٢٢).

بعد هذا ألا يحق لنا، وقد قبضنا قبض اليد على تخلُّعِهِ مما كتب أن نقول:

كل ما يشغل فكره وقلمه وعواطفه أن يقدم طبقاً من الكلام يبرز فيه «محمداً».

http://kotob.has.it

وقد جرَّع الناس منذ عهده حتى الآن كؤوساً من الإدعاء المخادع من «النبوة» و«القرآن» و«الهالة القدسية التي أحاط نفسه بها» و«إلزام الأتباع أن يهتفوا باسمه مقروناً إلى اسم الله كل يوم خمس مرات».

والمؤلف الذي امتلأ قلبه بهذه العواطف لا يهمه أن يكون كلامه مخالفاً للمنطق. بل لا يهمه أن ينفي من آيات الفترة المكية الأولى ومن الآيات المدنية اسم الرحمن. من أن كلمة الرحمن بدلالتها الإلهية واردة وروداً صريحاً في آيات الفترتين. وفترات النزول حددها بذاتها وذكرها بأرقامها في الصفحة الثانية من كتابه.

٥ ــ وعند الآية ١١٥ ــ من سورة الإسراء: صرحَ: لقد وجدتها. وقال: هاهو محمد يصرح بأنه يعبد إلهين «الله والرحمن».

ــ ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...﴾ (الإسراء: ١٧/ ١١٠).

وقد فات على المؤلف كثير من قوانين اللغة العربية منها أن «الرحمن» صيغة من صيغ المبالغة في الرحمة ولا يمكن بعد الإسلام أن تطلق أو أطلقت إلا على الله.

وفي الأيام الأولى، حين كانت اللغة العربية في حيازة أبنائها العارفين، فهموا آنذاك المعنى العبادي «للرحمن الرحيم» كما فهموا المعنى اللغوي تمام الفهم.

واحد من مشركي قريش الذين ناصبوا الدعوة العداء جهارة. قال: حينما سمع محمداً يقول وهو ساجد: يا رحمن يا رحيم: إنه يدعو اثنين مع أنه يدعونا إلى إله واحد.

من هذا المشرك. انطلقت تحليلات نولدكه للآية ١١٠ ــ من سورة الإسراء. وأرخى العنان للخيال. متغافلاً عن أسماء الله الـ (٩٩) التي من بينها الرحمن، والرحيم، والبارئ، والخالق، وغيرها... وجميعها موجودة في القرآن الذي طرح نفسه مؤرخاً أكاديميا له.

٦ ــ أما انشقاق القمر:

ــ ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر: ٥٤/ ١).

فقد تحدثت بعض الروايات عن انشقاق القمر إلى نصفين استقر أحدهما على الصفا والثاني على المروة. وقالت روايات أخرى: أن ذلك من بعض صفات يوم الدينونة الذي تحدثت عنه الآيات فقالت:

http://kotob.has.it

- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ...﴾ (إبراهيم: ١٤/ ٤٨).
- ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً﴾ (الطور: ٥٢/ ٩).
- ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (المعارج: ٧٠/ ٨).
- ﴿...حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً...﴾ (الأنعام: ٦/ ٣١).
- ﴿... لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا... ﴾ (الكهف: ١٨/ ٢١).
- ﴿... وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً﴾ (الأحزاب: ٣٣/ ٦٣).
- ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا...﴾ (غافر: ٤٠/ ٥٩).

ومع أننا لا نملك دليلاً مادياً على شيء وليس بين أيدينا سوى الروايات، فثمة الإيمان بالله، الذي فطر السماوات والأرض وخلق الوجود والموجودات هو الذي يحفظنا من خطأ القول وخطأ العمل. وهو الذي يعقل عقولنا عما وراء هذا الكون المادي. لأننا إن سمحنا للعقل أن يتسلل إلى حيث يشاء، فسوف يحرجه استجابة الميت من باطن الأرض وتحت الركام، فيمتلئ جسده الهامد بالحياة، ويكتسب قوة خارقة تزيل الحجارة والركام ويستجيب لنداء المسيح.

وسوف يحرج العقل أن يشفي الأكمه والأبرص ومرضى الزمنى[1] بلمسة أو إشارة أو كلمة. كما سيحرج العقل إن أصبحت قطعة الخشب (عصا موسى) ثعباناً ضخماً يلتقم جميع الأفاعي وأن يضرب بها موسى بحر القلزم فينشطر شطرين يفصل بينهما جداران من قدرة القدير وينفرجان عن طريق برية سلك عليها أكثر من مليون إنسان مع متاعهم ومواشيهم. ثم يضرب بها ثانية فينطبق فكا البحر على فرعون وجنوده ويغرقهم جميعاً.

تلك القدرة التي لا تحد ولا يحاط بها «علماً»هي قدرة الله التي منحت للرسولين دعماً لرسالتيهما.

هذه القدرة ترجح القائلين بانشقاق القمر إلى نصفين. لأن شخصية محمد خلقها الله استثنائية بمواهبها. ولأن ما دعا إليه يشتمل على جميع ما دعا إليه السابقون، مضافاً إلى ذلك ما تتطلبه مرحلة التطور الإنساني.

وفي الحقيقة لم نتوقف كثيراً عند عدم قناعة المؤلف بانشقاق القمر. ولكننا توقفنا ودهشنا من هذا العالم وهو يقول في ص ١٠٨ «إنها افتراء سخيف» كيف تم له التقييم؟

---

[1] مرضى الزمنى ــ الذين يقعون في مرض مزمن، لا يرجى شفاؤه.

http://kotob.has.it

وكيف يقيِّم قدرة العصا، ونداء عيسى للقبر؟ وسيره على الماء؟

هل يستطيع أن يقدم دليلاً مادياً؟ وهل لديه أي دليل غير الإيمان بأنها حصلت.

نحن نؤمن بها جميعاً ونعترف أن عقولنا عاجزة عن إيجاد الدليل المادي. وقد كان حرياً بهذا الأكاديمي ــ قبل أن يقول عن المعجزات المنسوبة إلى محمد بأنها افتراء سخيف ــ أنه يمتلك الدليل على السخف والافتراء. لا أن يكتفي بعدم انطباقها على عقله.

٧ ــ ويكرر اشمئزازه ثانية وثالثة من الجنس العربي

ــ فيعتبر أن الأصنام التي هاجمها نوح هي أصنام العرب.

ــ ويعتبر أن ما روي في سورة الإنسان غير صحيح.

ــ ففي أصنام العرب التي هاجمها نوح نقول:

إن أضعف قراء التاريخ يعرف أن نوح جاء وذهب من الدنيا قبل العصر الجاهلي العربي بأكثر من ثلاثين قرناً.

صحيح إن الأصنام التي كان قومه يعبدونها، اكتشفت فيما بعد وأُخرجت من باطن الأرض وعبدها العرب بعد تلك المدة المديدة وهي «ودَّ» و«سُوَاع» و«يغوث» و«يعوق» و«نسر» فعبدت قضاعة «ودًّا» وعبد بطنان من طيِّء «يغوث» وعبدت كهلان وحمدان «يعوق» وعبدت حَثْعم «نسراً» وعبدت ثقيف «اللات» وعبدت مكة «إساف ونائلة وهُبَل».

وقد كان جديراً به وهو يقرأ في سورة نوح، شكوى نوح إلى ربه لأنهم عصوه وعبدوا الأصنام ومكروا. أن ينسب الأصنام إلى قوم نوح.

ونحن هنا لا ندافع عن الضحية الجاهلية، بل نلفت النظر إلى هذا المؤرخ الذي قفز بالتاريخ أكثر من ثلاثين قرناً لكي يصل إلى ظرف ينال فيه من العرب.

ترى؟ ــ وهو مؤرخ ــ هل يستطيع تنظيف أوربا طيلة الأزمنة التي سبقت وصول الحروف الأولى من الحضارة العربية من العادات والعبادات الفاسدة؟ وهل لديه دليل أن قارته المتحضرة كانت على أي مستوى حضاري في الزمن الذي كان فيه الجاهليون يعبدون الأصنام؟ وبعد فالآيات من سورة نوح هي:

ــ ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا، وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا، وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾

(نوح: ٧١/ ٢١ ــ ٢٢ ــ ٢٣ ــ ٢٤).

http://kotob.has.it

ـ قال: « رواية سورة الإنسان غير صحيحة»

في سورة الإنسان روايتان: لا ندري أياً منهما قصد المؤلف: هما: «قصة خلق الإنسان» و«قصة الذين أطعموا المسكين واليتيم والأسير»؟ لذلك سوف نعتبر أنه قصدهما ومع أنه لم يقدم دليلاً على كذب أي منهما. فإن ردَّنا سوف يكون علمياً وتاريخياً بوقت واحد.

في قصة خلق الإنسان :

ـ ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا، إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان: ٧٦/ ١ ـ ٢).

طبعاً لا يستطيع المؤلف ولا غيره القول بأن الإنسان قبل تكونه الإنساني كان شيئاً مذكوراً، نعم كان شيئاً، ولكنه لم يكن مذكوراً. كان تراباً وطيناً هكذا كان جدُّنا الأول، من الصلصال فنفخ الله فيه الحياة.

وتلك المرحلة الأولى. أما في ما تلا فقد خلق من المشيج أي الخليط، وهي حالة النطفة الذكرية حينما تختلط بالبويضة الأنثوية. ولقد كان قد فصَّل تكون الخلق الإنساني في سور عدة، منها «المؤمنون ـ ٢٣»

ـ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

(المؤمنون: ٢٣/ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤).

لقد كنا أتينا على ذكر خلق الإنسان في بحث «الإعجاز» فيكفي هنا أن نقول لهذا العالم:

ـ لقد أثبتت أحدث النظريات العلمية هذه المراحل التكوينية التي يمر بها الجنين في الرحم. وأن تلك المراحل يمر بها أي جنين يخرج من رحم. حتى إذا كُسِيَت العظام لحماً، تنوعت المخلوقات. «ثم أنشأناه خلقاً آخر»

ـ كما أثبت العلم أيضاً أن حجم العلقة والمضغة، هو مجهري، أي لا يرى بدون مجهر. فأين عدم الصحة،«في خلق الإنسان»

في قصة إطعام المسكين واليتيم والأسير:

قال الإمام فخر الدين الرازي في المجلد الخامس عشر (٢٩ ـ٣٠) لقد نزلت آيات الإطعام والآيات التي جاءت بعدها في علي وفاطمة والحسن والحسين، أخذاً عن الواحدي في كتاب البسيط، والمغزلي صاحب الكشاف

http://kotob.has.it

حيث روى الحادثة مباشرة عن عبد الله بن عباس. (ص ــ ٢١٦) من المجلد كما جاءت في المجلد العشرين من «الميزان» للطباطبائي، رواية: عن عطاء عن ابن عباس وعن البحراني في «غاية المرام» وعن الموفق بن أحمد وعن قتادة عن ابن عباس ثانية وعن الحاكم في إسناده وعن أبي حمزة الثمالي في تفسيره وعن القمّي في تفسير.

وقال: أمين الإسلام «علي أبو الفضل بن الحسن الطبري» في ص ــ ٢٠٩ ــ من التفسير: «روى الخاص والعام أن الآيات من هذه السورة من (٥ ــ حتى ٢٢) نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين وجارية لهم تدعى «فضة» والروايات تنتمي إلى «ابن عباس» و«مجاهد» و«أبي صالح»».

وثمة عدد غير قليل من الذين كتبوا عن سورة «الإنسان ــ الدهر» قالوا: إن هذه الآيات نزلت في الأبرار بوجه عام.

وسواء أكان الصحيح فيما رواه الأولون أم الآخرون، فإن الله وصف بالفلاح الذين يحسنون إلى الفقراء ويؤثرونهم على أنفسهم، ولو كان بهم خصاصة (فقر وحاجة)

ــ ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٥٩/ ٩).

ووعدهم بالجنة التي فيها جميع طيبات الدنيا ومفاتنها.

نحن مع عدم قدرتنا على فهم: كيف أن الأرواح المؤمنة التي دخلت الجنة إثابة لها عما صنعته في الدنيا، وتعويضاً فائضاً عما خسرته فيها، أمور بدنية مادية. ومع ذلك وبما أننا لا نملك الدليل على دحض هذه المادية. فإننا نقف عاجزين وفي ذات الوقت مبتعدين عن اللغو. لأن اللسان الذي يستطيع بسبب خلوه من العظام أن يتحرك في جميع الجهات، كثيراً ما يورط.

إن «الجنة» مشتقة من الثلاثي «جَنَنَ» ومنه «الجنين المستتر في الرحم» و«المجنون الذي اختفى عقله» وفي قولك: جَنَّ عليه الليل أي ستره.. والجنَن هو القبر الذي يخفي الجسد.

قال الأعشى:

ما إن أبالي إذا ما مت ما فعلوا أأحسنوا جَنَنِي أم لم يُجِنُّوني

والجَنَان: القلب لاستتاره في الصدر.

والجُنَّة: الدرع. وكل ما وقاك فهو جُنَّة.

والجنّ: خلاف الأنس. واحده «جني» مخلوقات لا ترى.

http://kotob.has.it

هذا المكان الذي قال الله عنه:

ـ ﴿... وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: ٣/ ١٣٣).

هذا المكان الفسيح الذي لا تدل كلمة «عرضها» على عكس «الطول» بل على البعد اللا متناهي. لم يعرف أحد عن مكان وجوده، لذلك قالوا: هو الملكوت، ملكوت الله الذي قال عنه المسيح: «طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون. طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله طوبى لصانعي السلام من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات» (متى: ٥/٣ ـ ٤ حتى ١١).

إن المؤلف لم يوضح أياً من القصص الثلاث الموجودة في سورة الإنسان «غير الصحيحة» إذ لو قال: هي بعيدة عن العقل، لقنعنا بعجزه عن إدراكها مثلما عجز غيره. ولكنه قال: «غير صحيحة» وهذا يعني أنه حللها تحليلاً كاملاً، وفتّق أسرارها بعقله الجبار، فوجد أن قصة مراحل التكون الإنساني التي وردت في سورة المؤمنين غير صحيحة، وأن قصة أصنام نوح غير صحيحة، وأن قصة الجنة غير صحيحة. إن هذا الجزم منه هو غير الصحيح ما دام لم يقترن بدليل.

٨ ـ وحينما استدعى سورة مريم إلى التحقيق قال: «لقد وضع محمد في نهاية الفترة المكية الثانية الآيات من ٣٤-٤٠ كتتمة عقائدية أو تهجمية للآيات التي تتناول عيسى، لأنها تختلف عما هو حولها في اللغة والفاصلة» لقد حافظت على حرفية أقواله. ليتبين للقارئ أن المؤلف نسي ـ كما يبدو ـ اتهامه للنبي بأنه وضع القرآن على مقاس ظروفه. فإن كان النبي هو واضع القرآن ـ بمنطقه ـ فكيف يعود فيتهجم بذات السورة على ما كان كتبه وإن لم يكن هو واضع القرآن، فإن عدم الرضا عن اختلاف اللغة والتواصل لا يوجه إلى النبي.

إن مختصر ما يَحْسُنُ قوله هنا: هو أن قراءة المؤلف لسورة مريم كانت قراءة خاطئة في المباني والمعاني.

فالسورة جاءت بالأحداث التالية: تحدثت عن زكريا وتبشيره بيحيى ووصفها ليحيى من الآية ١ ـ حتى ١٥، ثم تحدثت عن مريم ومجيء الملاك

http://kotob.has.it

وحديثه معها، وحملها ليسوع، ومخاضها إلى جذع النخلة وتسلية يسوع لها وهي تعاني من آلام المخاض «يا ليتني مِتُ قبل هذا وكنت نسياً منسياً» فناداها من تحتها ألاّ تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً. وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رُطباً جَنِياً. ٢٥

ــ ثم جاءت تحمله وقد نذرت الصوم عن الكلام فأنَّبها قومها واعتبروا ذلك زنى.

فأشارت إليه فقالوا «كيف نكلم من كان في المهد صبياً»؟

حينذاك تكلم الطفل وقال: «إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً، وبراً بوالدتي ولم أكن جباراً شقياً، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً» من (٢٨-٣٣)

حينذاك جاءت الآيات التي التبس أمرها على المؤلف وهي من (٣٤-٤٠) ولو تمعن جيداً، وكانت لديه زخيرة لغوية مقبولة، لأدرك أن القرآن بعد أن انتهى من قصة عيسى قال هذه هي قصته الحقيقية فقد قلنا لكم قولَ الحق عنه، فهو ــ مثلما قال عن نفسه ــ إنه نبي الله وعبده.

لا كما يقول النصارى: إنه ابن الله. ولا كما يقول اليهود: إنه كذاب. ثم جاءت الآية ٣٥ ــ لتؤكد أن الله لم يلد ولم يولد. وأن عجيبة خلق المسيح بدون أب بيولوجي إنما هي صنع الله الذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ، وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (مريم: ١٩/ ٣٥ ــ ٣٦).

فالسورة: من الآية (١٦) طفقت تتحدث عن ظروف الحمل المقدس وعن آلام المخاض. ثم انتقلت إلى هذا المولود العجيب يتكلم بطلاقة وهو في أيامه الأولى فيعلن أنه عبد الله ونبيه. أوتي الكتاب مع النبوة. وسواء أكان القارئ ممن يعتقدون بصدقها أم لا، فليس مقبولاً في العلم التاريخي أن تحصل القطيعة بين آياتها المتكاملة. لأنها بكليتها (من الآية ١٦ ــ ٤٠) تروي قصة متكاملة بحيث جاءت الآيات الأخيرة منها تكملة ونتيجة للآيات الأولى.

وسواء اتفق الفقهاء من أي صنف على أنها معجزة أم لا. فالمسلمون يعتقدون أنها معجزة، وأن الله الذي صنعها لا يُعجزه شيء فهو ــ أي الله ــ هو الذي بعث الحياة في عصا موسى حتى تحولت إلى ثعبان هائل ابتلع أفاعي السحرة. وبعث فيها القوة حتى استطاعت أن تقسم البحر إلى قسمين يفصلهما

---

(١) أي رب محمد.

http://kotob.has.it

جداران من الماء وبينهما طريق ترابية مر عليها بنو إسرائيل ومواشيهم وبعد العبور ضرب بها البحر ثانية، فأطبق فكّاه على فرعون وجنوده وهو الذي قال عنه المسيح: «أنا مرسل من الآب. والأعمال التي أعطاني الآب لإكملها هذه الأعمال بعينها التي إذا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد أرسلني» **(يوحنا:٥/٣٦)**.

لقد نزلتُ من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني» يوحنا ٦/٣٧ - ٣٨. فالله أيها السيد المؤلف: هو الذي يحدد أنواع المعجزات ومواقيتها وحاجة الرسالة إليها. لذلك ــ وأنت المؤرخ ــ لم تكن في حاجة إلى زج كتابك في هذا المضيق بل ليس من حقك وغير مقبول منك أن تضع عواطفك في رأس قلمك، لتقرر جازماً ما هو الصادق وما هو الكاذب وما هو الخرافي، في نصوص تقدسها مليارات من البشر تفصلك عنها قرون وقرون.

كنا ــ وما زلنا ــ نؤمن بأن الرسالات مناهج إصلاحية تربوية تكلف بها الرسل إلى الخلق، كعناوين على عناية الله بخلقه. وأنه كلما كان يفتح قلوبهم وعقولهم إلى التطور كانت رسالاته إلى الخلق تتتالى مراعية درجة التطور.

أما المعجزات فقد زود بها الرسل لكي يخرجوا رسالاتهم من مآزق الرفض ويبهروا أبصار المكذبين وعقولهم.

وليس لنا ــ إن لم نستطع الاستيعاب ــ أن نكذب معجزات موسى وعيسى ومحمد ولأنها لن تبقى معجزة، إذا جاء زمن تكشفت لنا فيه أسرارها، وكيفية ظهورها تكشفاً مادياً.

٩ ــ لقد أصر المؤلف: في ص ــ ١٢٢ ــ: على أن قصة المعراج هي قصة خرافية. كما أصر: على أن الآية الأولى من سورة الإسراء كان يجب أن توضع بجوار الآية ٦٠ ــ من السورة. مرحى لهذا القادم بعد أربعة عشر قرناً يقول: إن من نزل عليه القرآن أخطأ في ترتيبه، وهاهو يقترح ترتيبه من جديد.

المؤلف... هل هو رسول أم مقرئ أم جامع للسور؟ يخبر عن نفسه أنه جميع ذلك، فما من مصحح للرسالة غير الرسول اللاحق.

لقد أعْفَى علياً وعثمان وعبد الله بن عباس وأباذرّ من شدة تعلقهم بالقرآن. وطلب إليهم التواري والاعتزال، لأنه رفع فأس المسيح ليقطع بها رؤوس الآيات التي لا توافق مزاجه، ويشطب بها أماكن تواجد بعضها لينقلها قهراً وجبراً إلى حيث يريد.

http://kotob.has.it

ولكنه إذ يقول بضرورة مجاورة الآية الأولى من الإسراء إلى الآية ٦٠ ــ منها ــ لا يبين لماذا؟

ــ خاصة ولا يوجد ما يبرر لأن أكثر السورة موجهة إلى النبي حتى إذا انتهى في السرد إلى ثمود وآية الناقة، خاطب النبي مذكراً إياه بالرؤيا أي برؤية العين التي وردت في الآية الأولى. فقد سمتها الآية ٦٠ ــ رؤية وسمتها فتنة أي امتحان يمتحن به الناس فيجزل الثواب للمصدق ويضاعف الجزاء على المكذب.

ــ ثم كما ثبت عن الصحابة المرافقين للنبي أن النبي هو الذي كان يوزع الآيات على السور. واتفقوا ــ كما اتفق التابعون ــ أن ذلك العمل وقف عليه لأنه النبي ولأنه الأدرى بما يوحى.

وإذ يقول بخرافة «الإسراء» يرتكب خطأً علمياً وخطأً اجتماعياً. فمثلما لا يملك هو ولا سواه غير الإيمان بالعصا وإحياء الميت وخلق الطير والسير على وجه الماء كذلك لا يملك الآخرون غير الإيمان بالإسراء وإلا جاز انسحاب هذا الرفض على المعاجز الأولى. ولو كان المؤلف يملك الدليل على الخرافة لما أخفاه عن الناس. فتوصيف الإسراء بأنها «قصة خرافية» هو الخرافة بعينها. لأن من يصدر الأحكام، دون دليل هو شخص عصابي لا يؤخذ بقوله.

كما أن عجز العقل عن تعليل ما لا يعقل لا ينهض دليلاً على عدم وجوده. مثلاً:

ــ هل يستطيع العقل أن يعلل كيف وجد قانون الجاذبية.

ــ وكيف تتكون الرياح ومن أين تأتي؟ ولماذا تكون عاصفة حيناً وعليلة حيناً؟ ولماذا ظلت نسبة اليابسة إلى البحار ثابتة، منذ الأزل وبدون تغيير؟

ــ ولماذا وكيف وجدت طبقة الأوزون؟

ــ ولماذا تصمت الجوارح جميعها وتتوقف عن نشاطها حينما يموت الإنسان؟

مع أن الجوارح تبقى سليمة فتؤخذ من الجسد الميت، العين، أو الكلية، والكبد والقلب، وغيرها لتزرع في أجساد حيَّة أخرى فتمارس نشاطها السابق؟ وما هي تلك القوة الكامنة في الجسد التي كانت قبل مغادرته تأمر العين بالنظر والأذن بالسمع والفكر باختراع المعجزات وغيرها؟

http://kotob.has.it

ثمة كثير مما لا يستطيع العقل أن يقدم له تحليلاً أو تعليلاً ومع ذلك هو قائم وموجود وهو يؤثر فينا ولا يتأثر بنا، لا يقل عن المعجزات التي عجز العقل عن تعليلها أو مضاهاتها.

ما أكثر انطباق قول السيد المسيح على «تجاوز المؤلف» حين قال: «قبل أن تعيِّر أخاك بالقشة في عينه انزع الخشبة من عينك».

ولا ندري إن كان المؤلف قد سلط عقله «الجبار» على «معاجز المسيح وموسى وإبراهيم الذي وضعوه في الأتون، فكانت النار برداً وسلاماً عليه».

وعلى «فلك نوح» كيف اتسع بأبعاده المحدودة على أصول جميع ما يَدِبُّ من إنسان وحيوان وزواحف وهوام.

نحن واثقون أنه يستطيع استيعاب أي منها استيعاباً عقلياً. ومع ذلك نحن واثقون أيضاً أنه لا يستطيع وصفها بالخرافة. فقط بالنسبة إليه وإلى أمثاله يدخل إلى المحرمات الإسلامية دون استئذان لأنها مهدمة الأسوار.

نعود بعد هذا إلى الآية الأولى من سورة الإسراء التي وصف ما فيها بالخرافة لنرى أن الآية بدأت بكلمة «سبحان الله» تنزيهاً مطلقاً لله. وقد جاءت هنا إشعاراً مسبقاً بأن ما بعدها هو معجزة تخرج عن قدرة البشر مادياً وعقلياً. ثم جاءت بعدها عبارة «أسرى بعبده»لكي تدل على أن النبي (ﷺ) أُسرِيَ به ولم يسر من تلقاء نفسه. وهذا يلتقي مع قول السيد المسيح «أبي أعظم مني»

وعندما راجعنا مناسبات المعاجز عند جميع الرسل، وجدنا أنها تأتي دائماً حين تكون الرسالة في معضلة، فتظهر المعجزة لإنقاذها من المعضلة. وهكذا كانت معجزة الإسراء. حيث جاءت بعد أن سقط جناحا النبي «خديجة وأبو طالب» فقال له القرآن له بعدهما: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ، إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٦/ ١٢٧ ــ ١٢٨).

فالآيتان اللتان أمرتا محمد بالصبر على فقدان «خديجة» و«أبي طالب» وأمرتاه بعدم ضيق الصدر من الذين كذبوه ــ فالله لن يخذله ــ وهو دوماً مع المتقين.

فلم تلبث بعدها عملية الإسراء أن تمت، ورأى في رحلته من الملأ الأعلى ما عزّاه عن فقدان الأحبة، وما ملأه ثقة وإيماناً بنهجه التوحيدي. ومن الثابت تاريخياً أنهم كذبوه حينما روى قصة الإسراء وقرأ نصَّها القرآني. حتى أن عتبة بن أبي جهل جاء إلى النبي وبصق في وجهه وطلق زوجته التي هي بنت النبي كذلك فعل شقيقه بشقيقتها.

http://kotob.has.it

ترى لو كان الأمر حلماً وأخبرهم أنه حلم هل كانوا ليكذبونه؟ كلا، فالأحلام مثلما لا تصدق، لا تكذب لأنها ليست موضع اهتمام الناس ولكن إصراره على أنها كانت حقيقة هو الذي دفعهم إلى المجاهرة في تكذيبه.

فالإسراء: معجزة مثل بقية المعاجز. ولم تأخذ هذا الاسم إلا لأنها خرق لأحد القوانين الكونية، التي لا يمكن خرقها إلا من قبل واضعها.

فالله الذي رفع إدريس وعيسى بجسديهما إلى السماء، لا تعجزه قصة الإسراء. والموت الذي هو قانون أزلي خرقه الله على يد عيسى الذي أمر الميت المقبور أن ينهض من القبر وأن يخلع عنه الأكفان ففعل.

والخشب الذي صنعت منه عصاة موسى ليس فيه روح أو مقاومة ضد الكسر والحرق والطحن، ولكن الله خرق هذا القانون وبعث الحياة في ذلك الجماد، فإذا هو أفعى، وإذا هو فالق للبحر.

١٠ ــ أما انتقاده لأسلوب القرآن ورأيه في أنه كان يجب أن تسبق الآية ٩١ ــ من سورة النمل بفعل الأمر «قل». فهما، الانتقاد والرأي مرفوضان لما يلي:

ــ لأن القرآن نزل بالعربية ولأن البلاغة كانت في العرب سليقة. ومع ذلك فقد بهر البلغاء والشعراء وأعجزهم عن مضاهاته، وكان بينهم من هو أدرى من نولدكه وأقدر على فهم «الخطأ والصواب والبلاغة والتفاهة» والذين عاصروا نزول القرآن ومن تبعهم ــ فيما بعد ــ لم يجدوا فيه عيباً بلاغياً أو لغوياً، فكيف أباح لنفسه هذا الأجنبي أن يتسلل إلى «رحم اللغة العربية» فيقترح أن يكون الجنين اللغوي غير ما ولد عليه من جوارح ومواهب؟ ليس من جواب على ذلك غير أن هذا المؤرخ، وضع على مائدته قرطاس التاريخ ولكنه كتب عليه بالميراث العاطفي.

ــ أما الاقتراح على «الله» لو كان قد وضع فعل «قل» قبل الآية ٩١ ــ من سورة النمل، لأن مضمون الآية ــ بدون هذا الأمر ــ يفيد أن محمداً هو القائل وليس الله.

يدل ظاهر كلامه أنه يدافع عن الإسلام كدين سماوي. ولكن دخيلة الكلام تدل على أن خلو الآية من كلمة «قل» تحسم الجدل في سماوية القرآن وتؤكد إن واضعه هو الرجل العادي الذي اسمه محمد. وهو لو امتلك من الثقافة القرآنية واللغوية ما ينبغي، لقرأ الآيات السابقة التي احتوت على بعض القوانين الكونية لإلزام الجميع بعبادة الصانع، حيث ابتدأ الإلزام بالنبي (ﷺ) فقالت الآية في بدايتها:

http://kotob.has.it

ـ ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ...﴾ (النمل: ٢٧/ ٩١). وهذا الفعل المجهول ينطوي على الأمرَ بالقول. كما ينطوي على فكرة أخرى هي: إعلان النبي أنه لا يكلف الناس إلا بما هو أوّل المؤمنين به و«رب هذه البلدة» أي مكة.

ـ وقد خصها بالذكر: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ٣/ ٩٦).

ـ و«حرمها»: أي حرم فيها القتال فكان الرجل ـ ولا يزال ـ يلاقي قاتل أبيه فيها فلا يتعرض له احتراماً لحرمتها.

ـ «وأمرت أن أكون من المسلمين» أي لا أخبرُ بأمر لا أسلم به ولا أصدقه.

وبعد: فالقرآن نزل وهو «محفوظ من الذي أنزله» وفي قوله تعالى بالآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٥/ ٩). تأكيد بأن الحفظ للمعاني والألفاظ.

وحينما أضيفت عبارة «صلى الله عليه وسلم» على الآية ٢٩ ـ من سورة الفتح سأل المسلمون لماذا وضعتموها، أجابوهم: وضعناها تكريماً لنبيكم، فصرخوا بصوت واحد: لا نريد أن يضاف حرف واحد على كتاب الله. وقاموا بجمع نسخ المصاحف المطبوعة بهذه الصيغة وأحرقوها.

والآية هي: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح: ٤٨/ ٢٩).

الفترة المكية الثالثة

عدد السور التي نزلت في هذه الفترة، يقول نولدكه نقلاً عن سواه كما مرَّ معنا هو عشرون سورة لذلك خصص لها عشرين صفحة من (١٢٨ ـ ١٤٧) ولكنه لم يتغير عن نهجه في الفترتين «الأولى» و«الثانية».

فالغاية الاستشراقية اللدود سقطت عنها الأقنعة. وعندما قرأنا ما قرأناه حتى الآن، عجبنا من كاتب المقدمة الدكتور جورج تامر، الذي قال في ص ١٢ ـ: «لابد من التنويه بأن نولدكه وتلميذه لم يشككا في صدق النبي بل اعتبراه نبياً حقاً. لا شك في صدق الخبرة الدينية التي عاشت والتي يعبر عنها القرآن الكريم أحسن تعبير أما عجباً :

http://kotob.has.it

- فلأن جورج تامر ترجم دون تمعن في أهداف النص.
- ولأنه لو تمعن لأدرك أن الذي يتهم النبي «بالخداع» و«الخرافة» و«وضع القرآن» لا يمكن أن يقال عنه «إنه لم يشكك في صدق النبي».
- ولذلك لن يكون هدف الترجمة غير الإعلان في المقدمة أن ما سوف يأتي لا تخالطه شكوك في قداسة القرآن وصدق النبي، وبالتالي يعتبر قلب الحقائق هذا تسويقاً للكتاب بين المسلمين العرب. لذلك لم تستطع مقدمة الترجمة العربية أن تصادر قناعتنا سلفاً. فتعاملنا مع هذا الكتاب بأسلوب النقد العلمي الحيادي، القائم على ركيزتين هما:
- عدم إعطاء أي اهتمام لتواريخ نزول الآيات التي أجهد «نولدكه» نفسه في استدعائها من بعض المراجع، والتي لم يُتَفَق بشأنها.

وقلنا: ما دام أن القرآن بترتيبه الحالي أخذ وضعه دون تغيير حرف من حروفه عن مكانه، على أعين الصحابة وموافقتهم، وهم الذين ترافقوا مع الآيات منذ نزولها وكانوا مغمورين بقداسة معانيها ومبانيها. وتواكبها مع التطور ومجرى الأحداث، فإن بذل الجهود في المفاضلة بين تاريخ نزول هذه الآية عند أحدهم وتاريخ نزولها برأي الآخر، وأقدم واحد من هؤلاء إلى عصر النزول أكثر من مئة سنة، هو مضيعة للوقت، ومجلبة لاختلافٍ لا جدوى منه.

- ملاحقة جميع المنافذ السُّميَّة أينما وجدت في كتاب نولدكه وإبراز وجوه التحيز فيها ضد العرب والإسلام، وقطع تلك الأورام بسكين المنطق.

وإننا ــ إذ نعلن رفضنا لهذا اليوحنا الجديد الصارخ في بريتنا ــ وإذ نعلن عدم قبولنا ملاحظاته، واقتراحاته بإعادة صياغة القرآن وإعادة ترتيبه وحذف ووضع ما رآه نولدكه، فلأن لنا أسوة بالمسيح الذي حذر الجميع من المُسَحاء الكذبة (مرقس: ١٣/٢٢) و(متى: ٢٤/١١)

ونؤمن حقاً بأن محمداً جاء لكي يتمم مكارم الأخلاق. الأخلاق التي هي: العلاقات الاجتماعية المميزة. وتنظيف النفس من الطمع والأذى والتسلط علىٍ أشياء الغير، تلك الكتلة الماسية لم تعرف الإنسانية في جميع عهودها، عهداً نشرت أشعتها وبريقها مثلما أتيح لها في عهد الإسلام.

فاليهود الذين اعتادوا على البكاء من ظلم الاغيار، عاشوا أزهى حياتهم وأوسعها حرية، في ممارسة الطقوس والتجارة وممارسة الثقافة الخاصة، وذلك في القرون الثلاثة التي عاشوها في ظل الحكم العربي الإسلامي بالأندلس.

وبعد فلنعد إلى تتبع السموم لاجتثاثها من الأصول.

http://kotob.has.it

١ ــ **قال في ص ١٢٨ ــ:** لغة السور هنا: «مُطْنَبَة» و«واهية» و«نثرية» و«تكرار لانهاية له» و«براهين ينقصها الوضوح» و«غيره». كل هذا ــ يتابع ــ يجعل الآيات مملة.

وقال في هامش الصفحة إياها: «كان محمد ذا أسلوب متوسط إذ خلق لوثيقة دينِه الجديد أسلوباً جديداً ذا لون كتابي»[1] هذا القول مهما أكثر من مساحيق حسن النية يبقى خروجاً عن الموضوع، وانسياقاً أعمى وراء العواطف اللدودة.

طبعاً لم يقدم نولدكه ولن يستطيع أن يقدم آية واحدة من آيات تلك الفترة لتأييد قذفه وقذائفه. لذلك نسرد أمام بصر القارئ آيات منها ــ لا على التعيين ــ لكي يمارس في تقييمها ما أوتي من ثقافة ومواهب. وبالتالي لكي يحكم بذاته على نولدكه ويلقي القبض على عواطفه التي خبأها المترجم.

أ ــ [ــ ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ **(يوسف: ١٢/ ١ ــ ٢)**.

ــ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ **(يوسف: ١٢/ ٤)**.

ــ ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ **(يوسف: ١٢/ ٢٣)**.

ــ ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ...﴾ **(يوسف: ١٢/ ٢٥)**]

ب ــ[ــ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ **(إبراهيم: ١٤/ ٢٤)**.

ــ ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ **(إبراهيم: ١٤/ ٢٦)**.

ــ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ **(إبراهيم: ١٤/ ٣٧)**.

ــ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ **(إبراهيم: ١٤/ ٣٩)**]

---

[1] نستطيع الجزم أن «جورج تامر» بعد هذا القول وامثاله من نولدكه، لا يمكن إلا أن يكون أحد اثنين:

ــ إما أنه لم يقرأ الكتاب وإن قرأه كاملاً لم يتفرس في نفي النبوة، وقداسة القرآن.

ــ وإما إنه تفرس وقبل بما جاء فيه، لذلك سوّقه عن طريق الترجمة.

http://kotob.has.it

ج ـ[ـ ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ، وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ (النحل: ١٦/ ٥١ ـ ٥٢).

ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (النحل: ١٦/ ٥٨ ـ ٥٩).

ـ ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٦/ ٦٨ ـ ٦٩)]

ء ـ [ـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٣٤/ ١ ـ ٢ ـ ٣)]

تلك الآيات استنسخناها ـ لأعلى التعيين والانتقاء ـ من سور هذه الفترة المكية، فأين «الإطناب» و«الوهن» و«التكرار» و«الغموض»؟

هذه العيوب الأربعة التي قذف بها عشرين سورة ليست موجودة إلا في خياله الذي شابه القصور المخجل في فهم قوانين اللغة ثم تلك الطريقة التي وصف بها النبي بأنه وضع السور لكي يصطاد بها قناعات الناس، هل جاء بها المؤلف لدعم الغاية التاريخية؟ أم لغيرها وهي لم تعد خافية على أي متجول في الكتاب.

٢ ـ أما قوله في «التكرار القرآني» بأنه يورث الملل، وأنه ناجم عن الضعف اللغوي وفقر الثقافة بفكر الغير وفلسفته... هذا التكرار علله المسلمون الأوائل والمتأخرون بما يلي: «قد ينزل الشيء أو الحكم مرتين تعظيماً له أو تذكيراً به عند تكرار أسبابه» غير أن أياً منهم أو من غيرهم باستثناء المستشرقين واليهود لم يصف آيات القرآن بالملل ولم يقل أحد إنها تعاني من «فقر الثقافة» و«عدم الإحاطة بقوانين اللغة».

إن المشكلة ليست في آيات القرآن «المبهرة» بل في هذا المستشرق الذي أعماه التحيز عن رؤية الحق وألقت به ضحالة ثقافته في اللغة العربية في هذه المضايق الفكرية الكثيرة. فالقرآن نزل بين العرب بلغة العرب. كذلك لم ينزل كتاب إلا بلغة القوم الذين ينتمي إليهم الرسول. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (إبراهيم: ١٤/ ٤).

http://kotob.has.it

لذلك لا يسمى الانتقاص من لغة القرآن إن جاء من هجين على قواعد اللغة وعبقريتها، إلا احتطاباً في الليل كما قال العرب. أو ضخامة في الذات بلغت شاطئ الانفجار.

إن أسلوباً وصفه أساطين الفصاحة والبلاغة ــ على مرِّ العصور ــ بأنه «معجز مثل السحر» و«أنه يعلو ولا يعلى عليه» و«أنه يحطم ما تحته» لا يقبل أن يتهم بضعف اللغة وفقر الثقافة والتكرار الممل، خاصة إن جاءت تلك القذائف من صهيوني أو مستشرق متصهين.

٣ ــ ثم يكرر المؤلف ما كان قد قاله سابقاً.

وهو «ملاحقة الآيات» و«واعتبار غياب السجع في بعضها» نقصاً وعورية غافلاً عن أن قيد القوافي تحتم في الشعر أما القرآن فقد نزل بأسلوب لا هو شعر ولا هو نثر بل هو أسلوب عجيب لم يماثل سواه، لا قبله ولا بعده.

٤ ــ يقول المؤلف في ص ١٣١ ــ

«كان محمد في البداية مقتنعاً بأن عليه أن يأتي للعرب بما أخذه المسيحيون عن عيسى وما أخذه اليهود عن موسى. ويستند إلى فئة العارفين (سورة النحل: ١٦/٤٣-٤٤) والأنبياء (٢١/٧) الذين لا يحتاج المرء إلا أن يسألهم ليتأكد صحة تعاليم محمد. ولكن خيبته في المدينة من أهل الكتاب جعلته يمد يده إلى الأنبياء القدماء كما هو واضح من الآيات ١٢٩-١٣٥ من سورة البقرة.

تلك قراءة المؤلف للآيات لا نملك إلا أن نقول: إنها قراءة تعيسة. فالأنبياء لا يكررون حروف بعضهم، بل يتممون ويضيفون ما احتاجته ظروف الزمان والمكان ولكل من المسيح ومحمد قول صريح بهذا المعنى، فالمسيح قال: ما جئت لأنقض بل جئت لأكمل. ومحمد قال: أرسلت لأتمم مكارم الأخلاق.

ولكن مناسبة آيتي النحل وآية الأنبياء فقد كانت لإقناع الذين استنكروا أن يكون الرسول بشراً كالبشر يأكل ويمشي في الأسواق فجاءت الآيات تلك لتبين لهم أن الرسول الذي يكلف إلى نشر الرسالة بين البشر لن يكون ولم يكن إلا بشراً:

ــ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ، بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٦/ ٤٣ ــ ٤٤).

http://kotob.has.it

ـ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ، وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٢١/ ٧ ـ ٨).

فأين إصرار محمد على الإتيان بما أخذ المسيحيون عن عيسى وما اخذ اليهود عن موسى؟ ليس موجوداً لا في هذه الآيات أو سواها، لأنه جاء ليكمل لا لينقل أو ينقض. والآيات (١٣٠ ـ ١٣٥) من سورة البقرة لا تدل على خيبة الأمل، بل تدل على تأكيدها بأن الرسالات متكاملة، ففي الوقت الذي يجب ألا يطوى السابق يجب ألا يُستغنى به عن اللاحق.

ـ «ما جئت لأنقض بل لأكمل، فإني الحق أقوله لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (المسيح)

ولكي يعاين القارئ خطأ استنتاج نولدكه، نضع آيات البقرة بين يديه، مهيبين به إلى قراءتها بتمعن:

ـ ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ، وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ، وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُولُوا آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، صِبْغَةَ اللّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ، قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾

(البقرة: ٢/ ١٢٩ حتى ١٣٦).

هنا دعوة صريحة إلى المسلمين كي يؤمنوا بجميع الرسالات القديم منها والحديث دون تفريق، لأنها تكاليف الله وكلمات الله. وتدعوا الجميع إلى هذا الشمول الإيماني حيث تقول الآية ١٣٧ ـ من البقرة للنبي:

ـ ﴿فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (البقرة: ٢/ ١٣٧).

ـ ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (البقرة: ٢/ ١٤١).

http://kotob.has.it

هذه هي الآيات التي اعتمدها المؤلف في نقد القرآن. و«اتهام محمد بمحاولة نشر ما أخذه المسيحيون عن عيسى وما أخذه اليهود عن موسى دون تكملة ولا تطوير» والقول بأن خيبة أمله جعلته يمد يده مستعيناً بالسابقين. فهل يوجد شيء من هذا في الآيات؟ أم إن تلك الاتهامات ميراث من الحقد لم يستطع العالم «نولدكه» أن يمنعه من الحضور؟

٥ ــ المؤلف نولدكه يشرق ويغرب في القرآن ظناً منه أنه لن يلاحقه أحد وله أن يقول ما يشاء حينما يشاء.

قال في هامش ص ــ ١٣١ :

«كلمة (ملة) تستخدم في القرآن لدى اليهود والمسيحيين، حيث استخدمت مرة واحدة لهما في سورة البقرة بالآيتين ١٢٠ و١١٤، هذا القول يحتاج إلى التصحيح القرآني واللغوي كما يلي:

أولاً:

ــ استعملت في سورة البقرة بالآيتين ١٢٠ و ١٣٥

وهما تعبران عن ملة إبراهيم وليس عن اليهود والنصارى.

ــ لم ترد هذه الكلمة في الآية ١١٤ ــ من البقرة

ــ استعملت مرة واحدة لتعبر عن ملة اليهود والنصارى في الآية ١٢٠

ــ استعملت في آل عمران ٩٥/٣ ــ عن ملة إبراهيم

ــ وفي النساء ١٢٥/٤ عن ملة إبراهيم

ــ وفي الأنعام ١٦١/٦ عن ملة إبراهيم

ــ وفي النحل ١٢٣/١٦ عن ملة إبراهيم

ــ وفي الحج ٧٨/٢٢ عن ملة إبراهيم

ــ وفي يوسف ٣٨/١٢ عن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب

ــ وفي الأعراف ٨٨/٧-٨٩ عن ملة الذين كذبوا شعيب.

فهي ــ أي كلمة ملة ــ وردت في القرآن مرة واحدة تعبيراً عن اعتقاد اليهود والنصارى ووردت ثمانية مرات للتعبير عن غير ملّتهم.

ثانياً: الملة تعني في اللسان العربي «السنة» أو «الشريعة» أو «الطريقة» أو«الدين» أما القول بأن أصلها هو «مِلْثا» الآرامية التي تعني «كلمة» فما نعرف كيف قارب نولدكه هذه المقاربة. إذ يكفي التمعن في معناها

http://kotob.has.it

العربي الذي يعني الدين ومعنى «كلمة ــ مِلْثا» الآرامية التي تعني مفرد القول، ليدرك المتمعن الفرق النوعي بينهما.

ومع هذا: فمن الثابت أن ثمة كلمات فارسية وحبشية ونبطية وزنجية وعبرية ورومية وسريانية دخلت إلى لغة العرب فتعربت واستعملت بلفظها الأصلي فمن قال إنها عربية فهو صادق لأنها تعربت ومن قال إنها غريبة فهو صادق لأن أصلها غير عربي.على أنه في جميع تلك المعربات لم ترد «كلمة ــ ملثا»

٦ ــ قال في هامش ص ــ ١٣٥ ــ

«حتى لو عصرت الآيات عصراً لما أمكن استخراج غير صلوات أربع، هي التي وردت في الآيتين ١٧ ــ ١٨ من سورة الروم.

أما نحن فقد التقينا بالصلوات الخمس دون عصر ولا إكراه وذلك كما يلي:

أ ــ الآيتان ١٧ ــ ١٨ من سورة الروم لا تتحدثان بكلمة واحدة عن الصلاة

ــ ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ٣٠/ ١٧ ــ ١٨ أي له التنزيه والحمد في كل وقت

ب ــ في سورة البقرة ٢٣٨/٢ أمر صريح بالصلاة وهو:

ــ ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

فكلمة «صلوات» هي صيغة جمع مفرده «صلاة» فإن اعتبرنا كلمة الصلوات اثنين خرجت عن صيغة الجمع إذ لا وسطى بين أول جمع في الإعداد وهو ثلاثة، لذلك انتقلنا إلى ثاني جمع في الأعداد وهو خمسة، وبذلك أمكن وجود الوسطى فإن اعتبرناها «صلاة العصر» كانت وسطى بين «الفجر والظهر» و«المغرب والعشاء». وإن اعتبرناها «صلاة الفجر» كانت وسطى بين «الظهر والعصر» و«المغرب والعشاء».

ــ وفي المأثور أن النبي (ﷺ) كان يصلي خمساً ويقول صلوا كما تروني أصلي. فليس من المعقول أن يصلي خلاف ما يأمر القرآن.

ــ وفي القرآن جميعه وردت كلمة «ركع» سبعة عشر مرة بعدد الركعات المفروضة في الصلوات الخمس،كما وردت كلمة «سجد» ٣٤ ــ مرة لأن كل ركعة لها سجدتان.

ــ وقد وردت كلمة «صلوات» في (الحج ــ ٤٠/٢٢) و(المؤمنون ــ ٩/٢٣) و(البقرة ــ ١٥٧/٢) وهي تنسجم مع ما جاء في الآية ٢٣٨ من سورة البقرة. من ذلك: يتبين أن العصر والضغط لم يكن في الآيات بل في الفهم التعيس لها.

http://kotob.has.it

٧ ــ ولا ندري، كما لم يفصح المؤلف عما يقصده من عباراته حينما يذكر إسماعيل بن إبراهيم أينكره؟ أم يستنكر ذكره؟ أم يستهزئ به؟

على كل حال: نحن لن نستوضح، وإن استوضحنا فلن يوضح.

لذلك عدنا ونطلب من القارئ العودة إلى التوراة ــ العهد القديم ــ لنرى أن إسماعيل بن إبراهيم من هاجر المصرية، وكان عمر «أبرام ــ إبراهيم عند ولادة إسماعيل ٨٦ سنة وحينما صار عمر إبراهيم ٩٩ سنة ولد ابنه إسحق من سارة التي كانت قد بلغت التسعين.

فالقرآن لا يخطئ ولا يحابي. إذ عندما يورد أسماء الثلاثة يوردهم بالترتيب «إبراهيم وإسماعيل وإسحق». (النساء ــ ١٦٣/٤) و(البقرة ــ ١٣٣/٢ و١٤٠) و(الإصحاحين ــ ١٥/١٦) و(التكوين ١٧/ ١ ــ ١٧).

٨ ــ ويتحدث عن الآية ٤٦ ــ من سورة العنكبوت حديثاً يدل ــ كما قلنا ــ عن ثقافة قرآنية محدودة فيقول: «يسمح في هذه الآية للمسلمين أن يجادلوا من يعارضهم من اليهود بطريقة أخرى غير «الحسنى» أي بالقوة ــ ص ــ ١٣٩ ــ ١٤٠. إن الفهم السطحي الذي يرافق المؤلف دوماً عند قراءة النصوص القرآنية، هو الذي جعله يقذف بنيران الكلام.

فالآية:

ــ ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٩/ ٤٦).

والجدل: من فعل «جَدَلَ» أي «فتل» وهو مأخوذ من «فتل حبل الليف» ولكنها أخذت في التداول الفكري معنى مقارعة الحجج للوصول إلى الحق.

أما كلمة الأحسن: أي أحسن من الحسن، فالجدل الحسن هو مع «الملحدين الذين لا يؤمنون بالله» ومع «المشركين الذين يشركون معه سواه» فالجدل مع «هؤلاء» بالحسن مثل:

ــ ﴿قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سبأ: ٣٤/ ٢٥).

وقول نوح:

ــ ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح: ٧١/ ٢ ــ ٣ ــ ٤).

http://kotob.has.it

أما أهل الكتاب أي أهل الكتب المنزلة من الله. فإنهم يمتازون عن المشركين والملحدين بأنهم يؤمنون بالله، لذلك وجب الجدال معهم بالأحسن، أما الجدل الحسن فهو مع غيرهم ولكن هذه الخصوصية مع أهل الكتاب مشروطة بألا يظلموا.

حتى في حال الظلم الصادر عنهم لا يجادلون بالسيف ــ كما قال نولدكه ــ بل بقطع الجدال معهم وترك مصيرهم لله الذي يفصل يوم القيامة في خلافهم مع المسلمين وخلافهم مع بعضهم.

ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ٢٢/ ١٧).

ففي الآية: صراحة ووضوح في تحريم الجدل بالسيف حتى مع المجوس والذين أشركوا. ولكن الفرق في الجدال بين «الحسن مع الملحدين والمشركين» و«الأحسن مع أهل الكتاب» نعم: هنالك المشركون الذين لن يغفر الله لهم.

ــ لأن الشرك بالله ظلم عظيم. (لقمان ــ ١٣/٣١)

ــ ولأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء (النساء ــ ١٨/٤)

فهم أي المشركون لن ينالوا رحمة الله التي وسعت كل شيء.

ــ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٣٩/ ٥٣).

ــ ﴿... قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...﴾ (الأعراف: ٧/ ١٥٦).

٩ ــ قال في ص ١٤١ ــ عن سورة لقمان ــ ٣١ قولين:

أولهما ــ في السطر التاسع قال: يراها بعضهم مدنية

الثاني ــ في السطر التاسع عشر قال: هي تنتمي في الأرجح إلى الفترة المدنية

ولكنه كان في ص ٢ ــ من كتابه، صنفها في الفترة المكية الثالثة.

كذلك صنفها السيوطي في الإتقان (ج ــ ١ ص ــ ٢١) و«تاريخ القرآن ــ ص ٥٢» للدكتور محمد سالم محيسن. غفر الله له: إن كان يرجح نزولها في المدينة فلماذا صنفها بكتابه في الفترة المكية؟

وأي القولين ــ يعبر عن قناعته؟

http://kotob.has.it

١٠ ــ وفي الصفحة ١٤٣ قال: نزلت الآية ١٧٥ ــ من الأعراف في عدو مجهول لله. ينسى وهو الذي يدعي معرفة واسعة بأسباب النزول ــ أن الاختلاف في الشخص المعني ليس جهلاً لله.

ــ فمن قائل هو «بلعام بن باعور» وكان يهودياً.

ــ ومن قائل هو «أمية بن أبي الصلت» الذي قال النبي عنه بعد أن سمع شعره «آمن شعره ــ وكفر قلبه»

وكانت أخته قد قرأت للنبي (ﷺ) من شعره قوله:

لك الحمد والنعماء والفضل ربنا ولاشيء أعلى منك جداً وأمجدُ

مليك على عرش السماء مهيمنٌ لعزته تعنو الوجوه وتسجدُ

وقوله:

وقف الناس للحساب جميعا فشقيٌّ معذّبٌ وسعيد

وقوله:

عند ذي العرش تعرضون عليه يعلم الجهر والسِّرار الخفيا

يوم يأتي الرحمن وهو رحيم إنه كان وعده مأتيا

ربِّ إن تعف فالمعافاة ظني أو تعاقب فلم تعاقب بريا

وأما نسبة الجهل لله: فليس من تفسير لصدورها عن المؤلف إلا اعتقاده بان كلمة الله هي إله المسلمين وليست «چدْ ــ كد» الإنكليزية ولا «ديو» الفرنسية التي تشير إلى الخالق فاطر السماوات والأرض. وهذا الاعتقاد، أفضل رد عليه هو السكوت عنه لأنه يعبر عن جهل كبير بالكتاب الذي وضعه على مائدة التشريح.

١١ ــ وكثيراً ما ينسى المؤلف أن غاية كتابه هي «تقديم تاريخ للقرآن» إذ حتى لو صفح القرآن عنه لأنه لم يقل غير ما نقله عن الكتب الإسلامية، فهو لن ينال الصفح منهم ولا من غيرهم. حينما ينسى غايته التاريخية ويتحول إلى ناقد لدود للقرآن، فكراً ولغةً وأسلوباً.

هنا مثلاً في ص ــ ١٤٥ ــ يقول: «توجد في سورة الأنعام (٦) مواضيع يتقطع فيها المعنى بشدة» هل هذا تاريخ؟ فالمؤرخ يعرض الحوادث

http://kotob.has.it

بدقة لأنه مصور ليس له أن يثني على ما يعجبه، ويستنكر ما لا يعجبه. فقد يكون بين قرائه من يخالفه الرأي في أحد الحالين أوكليهما. فالمؤرخ الذي يتحدث عن غزو المغول لبغداد أو دخول الصليبيين إلى القدس والأمريكان والإنكليز فيما بعد، ليس له أن يخفي الوحشية والقتل والتدمير التي وقعت على أهل بغداد والقدس حتى لو كان ذلك يزكي حقد النفوس على قومه الظالمين. أي: حتى لو كان مستشرقاً يؤيد الغزو الصليبي. أو: خائناً عربياً يؤيد الاحتلال الأمريكي. أو: أمريكياً أو إنكليزياً أو غير ذلك. لأن مهمته كمؤرخ هي أن تستبعد العواطف لكي تبرز الوقائع.

١٢ ــ تحدث في الصفحتين ١٤٦ ــ ١٤٧:

عن الخرافة التي شاعت بين المسلمين وهي أن الآيتين: ١٢ ــ ١٣ من سورة الرعد نزلتا للاعتبار في موت«عامر بن الطفيل» و«الأربد بن قيس» والآيتان هما:

ــ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ (الرعد: ١٣/ ١٢).

ــ ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ (الأعراف: ١٣/ ١٣)[1]

لقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال: عُنِيَ بالآيتين «إربد بن قيس» أخو لبيد بن ربيعة لأمه. و«عامر بن طفيل» اللذان جاءا إلى النبي (ﷺ) يجادلانه ويريدان الفتك به: فكان عامر يجادله وإربد يدور حوله محاولاً ضربه بالسيف ولكن الله أفقده قدرته على سلِّ السيف ثم هرب الاثنان: فمات إربد بصاعقة ومات عامر في بيت امرأة سلولية. هذا ما روي عن ابن عباس. ولكن «محمد الباقر» أبا جعفر بن علي زين العابدين. قال بصدد الآيتين: «إن الصواعق تصيب المسلم وغير المسلم» كما هو صريح في الآية ١٣/ من الرعد، ولكن الباقر لم ينف نية الرجلين في قتل النبي.

ومع أن نولدكه يؤكد أن جميع المفسرين تحدثوا حين شرحوا الآيتين فقالوا لقد نزلتا في الرجلين، هذين وقالوا لقد قصد الرجلان قتل النبي، فقد أوصى عامر إربداً بقوله: إذ رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه فاضربه بالسيف،

---

[1] المِحَال ــ من محل ــ وهي هنا العقاب والشدة: قال ابن مسعود: إن هذا القرآن شافع مشفّع وماحِل مصدّق

http://kotob.has.it

فجعل عامر يخاصم رسول الله (ﷺ) ويراجعه في الكلام. فدار إربد خلفه ليضربه فاخترط من سيفه شبراً ثم حبسه الله عنه في فلم يقدر على سله. وعامر يومي إليه فالتفت رسول الله فرأى إربداً وما يصنع بسيفه فقال اللهم اكفنيهما بما شئت. ص ٢٣ ــ من الجزء السادس من المجلد الخامس (٥-٦) من الطبرسي. ص ٣٢٩ ــ من المجلد ١١ ــ للطباطبائي.

ومع تأكيده على أن الجميع عرفوا ورووا عن نية الرجلين في القتل. فقد قال: «أقدم خبر تلقيناه عن ابن سعد وهو الوحيد ينفي نية القتل عند الاثنين (ص ــ ١٤٧ والهامش) فابن عباس معاصر النبي وتلميذ علي هو أقدم من ابن سعد الذي توفي في سنة ٢٣٠ ــ هـ.

ــ السور المدنية:

تحت هذا العنوان استعرض المؤلف أربعاً وعشرين سورة. فاستمر الاستعراض من منتصف الصفحة ١٤٨ ــ حتى آخر الجزء الثاني ص ٢٣١ ــ تاركاً لهذا البحث خاتمته في الصفحة ٢٣٢ ــ التي تشكل أول صفحة في الكتاب الثاني.

وإذا قلنا: استعراض فإننا نعني الاستعراض بمعناه اللغوي. فالاستعراض «لغةً» هو تفاخر الإنسان وتباهيه بما لديه. وفي حديث لعثمان بن العاص أنه رأى رجلاً فيه اعتراض، أي الظهور والدخول في الباطل والامتناع عن الحق. (لسان العرب ــ الحقل الرابع ــ لمادة عرض).

وأنا لم اقصد التهجم ــ معاذ الله ــ فالعلم لا يقابله غير العلم. ولكن المؤلف لم يغير عند دراسته للسور المدنية أسلوبه في دراسة السور المكية. حيث انتهج هنا النهج ذاته، الذي انتهجه هناك. وهو يدور حول المحاور الثلاثة التي بنى مؤلفه على قواعدها.

أولها ــ اعتماده الكامل على ما تركه الإسلاميون من كتب ومصنفات.

وكان الاعتماد انتقائياً، مزاجياً، فما خف حمله وينسجم مع غايته أخذه واعتمد عليه، وما لم ينل رضاه وهواه تركه. وهو لا يخفي رضاه وهواه، اللذين تركّزا منذ البدء على الإقناع ببشرية الدعوة الإسلامية. وان ما بين يدي الإنسانية من ألف وأربعمائة سنة حتى الآن ليس غير نتائج نوبات الجنون والصرع التي كانت تجتاح محمداً بين حين وحين.

http://kotob.has.it

الثاني ــ الإصرار بأن جميع ما صدر عن محمد، من أقوال وأفعال بما فيها القرآن والسنة كان ورشة سياسية ــ هدفت منذ البدء ــ إلى بناء كيان سياسي لذلك كانت تنزل الآيات وتتبدل الأحكام، مع تبدل الظروف السياسية التي كان يمر بها، وكثيراً ما كان يبدل الأحكام بآيات قرآنية ينسبها إلى الله لتنال الحصانة والقداسة. وتغدو من السنن المقدسة. التي نزل بها وحي من السماء.

الثالث ــ وهو في جميع الكتاب محكوم بهاجسٍ مقيم، يجده القارئ في كل صفحة تقريباً وهو: أن ما جاء به محمد من أقوال وما صَدَرَ عنه من أفعال كان سطواً على التوراة والإنجيل، وعلى تصرفات موسى وعيسى.

فما إن يعثر في القرآن على نهج أخلاقي يتفق مع مثيله في التوراة أو الإنجيل حتى يملأ الفضاء بالصراخ باذلاً ما يستطيع من الكلام لإثبات انتماء ما في القرآن إلى التوراة أو الإنجيل، ولا ينسى أبداً أن يصف ذلك الانتماء بالسطو الفكري.

طبعاً: سوف نترك الجواب إلى حينه. ولكننا هنا : دفعاً وتوضيحاً لنية المؤلف الحقيقية، ودفعاً للعتاب الذي قد يأتينا بسبب اختصار القول في هذا الباب، نبادر إلى التذكير بما كنا توسعنا فيه لكي لا يعاب التكرار في القول وهو:

إن المبادئ الأخلاقية والتشريعية وثوابت التوحيد، هي ميزان التوازن في كل مجتمع، وهي إذ تسير مع الزمن لا تنسخ الماضي ولا تلغيه بل تعدله، سيراً ومسايرةً للظروف التي تمر بها المجتمعات.

إن المتكلم في الكتب والصحف المنزلة، هو الله الأحد الفرد الصمد ولو كان غيره أو كانوا عدداً لتغير الخطاب في المعنى والمبنى. ولكن أحديته في ذاته وخطابه، وأحديته في غايته، جعلت اللاحق من الرسالات يكمل ما تقدم منها. فالإنسان لم يتكون مجتمعه المتوازن إلا بعد أن عاقب القاتل والزاني وشاهد الزور وسواها، ووضع قوانين العقاب مما أمَّن الاستقرار.

تلك ثوابت، وإن كانت تكتب بالأصابع البشرية فقد كانت إلهاماً إلهياً.

ــ ففي عصور ما قبل مصر سيطرت على المجتمعات المستقرة الآلهة والأرواح.

ــ وفي مصر عبدوا السماء وآلهتها، والشمس والقمر والحيوانات.

ــ وفي بابل كان الإله مردوك، وكان الكهنة يمثلونه على الأرض.

http://kotob.has.it

ـ وعند الفينيقيين كان «بعل» سيد آلهة المدن.

ـ وفي أشور كانوا يعبدون الشمس.

ـ وعند اليهود كان «رب الجنود».

في تلك المجتمعات كانوا ينسبون «كل قاعدة تنظيمية يحتاجها المجتمع» إلى الإله المعبود لكي تحظى بالقداسة ولكي ينعم المجتمع بها في الاستقرار.

تلك الصور لا تخرج عن مضمون واحد هو أن الحياة ما كان لها أن تتطور إلى حياة اجتماعية إلا بتصور «العدل» والعدل يأتي إلهاماً من العادل المطلق الذي هو الله، حتى عبدة الأصنام في بدء الدعوة الإسلامية.

قال عنهم القرآن:

ـ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (العنكبوت: ٢٩/ ٦١).

ـ ﴿. . . مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ...﴾ (الزمر: ٣٩/ ٣).

السور المدنية التي جاء تصنيفها في ص ـ ٢ ـ من كتاب المؤلف هي أربع وعشرون سورة وقد ورد فيها ألف وأربعمائة واثنتان وخمسون آية.

ـ ففي تقدم نزول بعض الآيات وتأخر بعضها نذكر هنا بما قلناه سابقاً من أن صرف الوقت حول هذا الموضوع فيه مضيعة وضياع منفعة.

إذ ما يجدي الوقوف على اختلاف المؤلفين والرواة الذين يروون ما يروون بالعنعنة حتى الوصول إلى أقرب قريب لعصر النزول فنرى أنه يبعد عنه أكثر من قرن، وقد سبقه الجمع والتصحيف. وأن التصحيف الذي هو بين أيدينا اليوم لم يتغير موضوع حرف من حروفه رفعاً أو انتقالاً منذ أن وضع هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد كانت تسمية السور بأسمائها، وتوزيع الآيات عليها من عمل النبي لا من عمل سواه فكثيراً ما نزلت الآيات في المدينة فيقول ضعوا هؤلاء الآيات في المكان الذي يقول «كذا وكذا» فينفذ الأمر على الفور وقد يجيء وضع الآية المدنية في السور المكية لأن ذلك وقف على النبي لذلك: حينما أمر عثمان بالتصحيف ولم يغير في وضع الآيات ولا في تسمية السور لم يعترض على عمله أي قارئ أو صحابي، وهم الأدرى والأكثر حفظاً ومحافظة على القرآن ممن جاء بعدهم.

أما الذين ألفوا في تاريخية النزول. وتعدد الآراء فيه فقد التزمت مصنفاتهم بالجانب التاريخي دون سواه، إذ لم يصدر عنهم أي انتقاد أو اقتراح في وضع الآية والتزامها اللغوي لذلك كله نستطيع أن نقول:

http://kotob.has.it

ـ إن جهد المؤلف هنا لا يختلف عن جهده هناك، كلاهما لا حاجة إليه ولا غناء فيه، خاصة بالنسبة إلينا نحن العرب المسلمين الذين أغنانا عنهما ما بين أيدينا من المؤلفات العربية ومصنفاتها والتي كُتِبت آلاف الصفحات في الاختلافات إياها.

ـ فجهود المؤلف ليس فقط لم تقدم نفعاً بل قدمت ضرراً. وذلك لان هاجس بشرية الدعوة الإسلامية وإسقاط القداسة عنها، خلط الغث بالثمين، والخطأ بالصواب، وبدا كتاب تاريخ القرآن كأنه ميدان لا نسمع فيه غير الصهيل. لقد استنكر المؤلف على محمد أن يكون رسولاً. واستكبر أن يكون وحياً من الله.

وفي اليقين لو ثبت لدي ولدى الكثيرين من المسلمين في كل مكان أن محمداً هو مؤلف القرآن وواضعه. لما قلَّ تقديره مثقال ذرة.

بل ولكانت هذه الاستثنائية العظيمة التي قدمت إلى الإنسانية دين الإسلام بتعاليمه وشرائعه ووصاياه، وضبطه الاجتماعي هي أعجب من رسول يحمل رسالة لكي يبلِّغها إلى الآخرين ويلتزم بمضمونها مثل الآخرين، ولم يضع فيها كلمة واحدة.

لقد تحدثنا عن الإعجاز قليلاً. وسوف نولي هذا البحث ما يستحقه من العناية في الجزأين التاليين.

لأننا هنا سوف نقتصر على مناقشة هواجس المؤلف، لا لكي ننتزعها من صدره فذلك مستحيل بل لكي نغلق عليها أبواب ذلك الصدر ونمنعها من نشر هذا الدخان السام بين الناس. وذلك كما يلي:

١ ـ في ص ـ ١٥١ ـ وهامشها قال:

«إن عبد الله بن أبي بن سلول «زعيم الخزرج الشهير» الذي بقي نفوذه كبيراً حتى بعد تقلص سلطته السياسية ودوره السيادي بين قبيلته وسواها كان محمد يكن له كرهاً من صميم قلبه. ولكنه كان مضطراً إلى أن يعيره اهتماماً كبيراً وظل يعامله حتى وفاته كندٍّ له. أما ردنا على هذه المغالطات فهو كما يلي:

أ ـ خلافاً لما قال فلم يبق بين المسلمين غير سلطة الله التي ينفذها النبي.

ب ـ لقد توفي في سنة ٩ هـ، أي قبل الفتح المبين ـ فتح مكة. وسلول: جدته لأبيه وكان بيته في المدينة ـ حتى بعد أن أسلم ـ مجمعاً لليهود والمنافقين.

http://kotob.has.it

ج ــ انعزل يوم أحد بثلاثمائة من أصحابه.

د ــ وقف مع يهود قينقاع لمّا غدروا بالمسلمين.

هـ ــ وقف سراً مع بني النضير ضد المسلمين.

و ــ كان أشد الناس اتهاماً للسيدة عائشة فيما عرف فيما بعد بالأفك وكان من أبرز الذين نزلت فيهم الآية

ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور: ٢٤/ ١١).

أما إن النبي كان يكن له الكراهية ولكنه كان مضطراً إلى الاهتمام به واحترامه وظل يعتبره نداً له حتى وفاته. فذلك من خيال المؤلف ليس في ذلك من شك. ثمة قصة اتفق عليها المؤرخون والمفسرون تتلخص فيما يلي:

إن عبد الله بن أُبي قال في رهط من قومه وكان بينهم «زيد بن أرقم»: لقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال القائل «سمِّن كلبك يأكلك» أما والله لئن رجعنا ليُخرِجَنَّ الأعز منها الأذل، ويعني نفسه «بالأعز» كما يعني «بالأذل» محمداً وأصحابه وبعد أن سمع النبي هذه المقالة حضر عبد الله وحلف إن زيداً يكذب ففشت ملامة الناس على زيد ولكن سورة «المنافقون» لم تلبث أن نزلت وفيه ما قاله «عبد الله».

ــ ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٦٣/ ٨).

وبعد أن صلى النبي عليه عند وفاته نزلت في الكفار والمنافقين خمس عشرة آية وضعت في سورة التوبة ٩ ــ آخرها الآية ٨٤

ــ ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (التوبة: ٩/ ٨٤).

ومنها الآية

ــ ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (التوبة: ٩/ ٨٠).

فالمؤلف الذي يدعي المعرفة العميقة بعلوم القرآن: كان عليه أن يقرأ قصص عبد الله بن أبي مع الإسلام.

http://kotob.has.it

وكان عليه ألا يتسرع في الحكم على النبي بإظهار الصداقة وإخفاء الكراهية. فالنبي كان يعرف نفاق «عبد الله» وكان يعرف أن عواطفه ومواقفه ضد المسلمين. وكان النبي رأس دعوة يستشهد الكثيرون في سبيلها فلم يكن في حاجة إلى إخفاء الكراهية وراء جدار كرتوني من الصداقة.

٢ ــ في الصفحة ١٥٣ ــ يقول:

«ولا يتعرض القرآن للمشركين الذين أعلنت عليهم الحرب في الفترة المدنية إلا نادراً كذلك النصارى الذين كانوا يقيمون بعيداً عن يثرب.

طبعاً: هو يقصد «بالفترة المدنية» الفترة التي نزلت فيها السور بالمدينة وقد سميت فيما بعد السور المدنية.

وقبل الدلالة على نقصان ملكة التدقيق عند المؤلف. نذكر بأن السور والآيات التي نزلت في المدينة متحدثة عن الشرك ومشتقاته وصيغه جاءت بالترتيب الآتي:

- في سورة البقرة ــ٣ــ آيات هي ذات الأرقام ١٠٥ و١٣٥ و ٢٢١
- في آل عمران ــ٣ــ آيات هي ٦٤ و٦٧ و٩٥
- في النور ــ١ــ آية هي ٣
- في الحج ــ١ــ آية هي ٣١
- في الممتحنة ــ١ــ آية هي ١٢
- في التوبة ــ١١ــ آية هي ١ و٣ و٤ و٥ و٦ و٧ و١٧ و٢٨ و٣٣ و٣٦ و١١٣

أما ذكر النصارى في السور المدنية فقد جاء في الآيات التالية:

- في البقرة ــ٧ــ آيات هي ١٣ و١١١ و١١٣ و١٢٠ و١٣٢ و١٤٠ و١١٢
- في آل عمران ــ ١ــ آية ولحدة هي ٦٧
- في المائدة ــ ٥ــ آيات هي ١٤ و١٨ و ٥١ و٦٩ و٨٣
- في التوبة ــ ١ــ آية ولحدة هي ٣٠
- في الحج ــ ١ــ آية ولحدة هي ١٧

تلك السور مدنية، حتى في تصنيف المؤلف وقد ذكر فيها الشرك بمشتقاته وصيغه عشرين مرة. كما ذكر النصارى خمس عشرة مرة.

http://kotob.has.it

٣ ــ في ص ــ ١٥٣ يقول:

«إن السور المدنية لم تخاطب المسلمين إلا نادراً عن العقائد والأخلاق»

أما نحن ــ وقد فقدنا ثقتنا بحياد المؤلف ومصداقية أقواله ــ عدنا إلى السور المدنية، أخذاً من تصنيفه، فوجدنا ما توقعناه تماماً:

- سورة البقرة تحض على المعروف في ١٢ آية هي ١٧٨ و١٨٠ و٢٢٨ و٢٢٩ و٢٣١ و٢٣٢ و٢٣٣ و٢٣٤ و٢٣٦ و٢٤٠ و٢٤١ و٢٦٣
- سورة آل عمران ٣ ــ آيات هي ١٠٤ و١١٠ و١١٤
- سورة النساء ٦ ــ آية هي ٦ و١٩ و٢٥ و١١٤ و٥ و٨
- في التوبة ٣ ــ آيات هي ٦٧ و٧١ و١١٢
- في الحج ١ ــ آية هي ٤١
- محمد ١ ــ آية هي ٢١
- الطلاق ٢ ــ آيتان هما ٢ و٦
- الأحزاب ٢ ــ آيتان هما ٦ و٣٣

نستطيع ــ بعد أن ثبتت لنا عدم دقته في الأحكام وعدم تعمقه في علوم القرآن، بل وتجاوزه على ثوابت تبدو لأي باحث غير أعمى ــ أن نقول:

لم يكن يقدّر المؤلف ولا من قرظوا جهوده وأحكامه، أن جميع ذلك سوف يدقق ويناقش على ضوء العلم والحياد. وسوف تفرز تحت تلك الكواشف، جميع الأقوال التي أُطلقت على العواهن دون تدبر. واحتقرت واستهانت بثوابت الآخرين.

٤ ــ يقول في ص ــ ١٥٥:

«إن بعض مقاطع القرآن قد اختفت كما أن محمداً أتلف بعضها» أقل ما يقال عن هذا القول: إنه تجَنٍّ وعدم تبصر ومعرفة تعيسة بالقرآن والإسلام. فقد كلف محمد أن يعلن رسالته إلى جميع الناس:

ــ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ (الأعراف: ٧/ ١٥٨).

كما كلف بأن يعلن نزول القرآن عن طريق الوحي:

ــ ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ﴾ (الأنعام: ٦/ ١٩).

http://kotob.has.it

وقد ثبت تاريخياً:

ـ أن الآيات فور نزولها كانت تتلى.

ـ وكانت تتكرر قراءتها على الكتَّاب والحفَّاظ.

ـ وكان اللذين يحفظون ويكتبون ويسمعون، يؤمنون بقداسة كل حرف من حروفها لذلك فإن استحالة شديدة تحول دون فقدان بعض الآيات أو إتلاف بعضها. خاصة وقد نقل المسلمون كافة عن الرسول قول الله:

ـ ﴿... لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: ١٠/ ٦٤).

ـ ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ (الكهف: ١٨/ ٢٧).

فالمؤلف وهو يتحدث عن الفقدان والإتلاف في السور والآيات المدنية.

نسمي ـ على ما يبدو ـ أن التأكيد على ثبات كلمات الله، مؤكد عليها في سورتي يونس والكهف. وهما من السور المكية. كذلك سورة الحجر ـ ١٥ ـ مكية هي أيضاً وقد جاء فيها:

ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ١٥/ ٩).

وفي سورة الإنسان المكية رقم ٧٦ ـ:

ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلاً﴾ (الإنسان: ٧٦/ ٢٣).

وإن كان النبي ـ قد أتلف بعض الآيات ـ فمن أخبر نولدكه بذلك. طبعاً ذلك الإتلاف المزعوم، لم يكن جهراً لما في ذلك من مخالفة صريحة لآيات القرآن بل يجب أن يمارس في السر. وما دام الأمر كذلك فمن أخبر نولدكه أو سواه أن النبي أتلف بعض الآيات فيما بعد. من المؤكد أن هذه الروايات ليست من بنات خياله فقط بل من بنات عواطفه أيضاً لأنه لا نولدكه ولا سواه كشف عن قلب النبي فبانت أعماقه له وقرأ ما فيه من أسرار. والإتلاف، هو عمل يتلو الإعلان. والأحرف للآيات، كان بتبليغها إلى الناس الذين كانوا يكتبونها ويحفظونها، ولم يذكر أحد من الشرق والغرب، غير نولدكه، أن محمداً أتلف أو أمر بإتلاف أية آية أعلنها.

٥ ـ قال في ص ـ ١٥٧:

«عبرت الآية ٦٢ ـ من سورة البقرة وما قبلها حتى ٥٩ ـ عن أن كل شيء يتوقف على الإيمان وبحسبه لا يتقدم اليهود على النصارى والصابئة بشيء، طبعاً لقد تعودنا على مقاصد المؤلف في دراسته. وكررنا ما لمسنا

http://kotob.has.it

عنده من «لَدَنٍ» وضحالة ثقافة قرآنية ولغوية. لذلك نقدم مناقشتنا لأقواله موضحين ومعددين المبادئ التي استبعدها عن بحثه والتي اعتبرها القرآن هوية الدين الجديد.

أ ــ إن الآية ٦٢ ــ من البقرة حددت مبادئ الإسلام وفتحت أبواب تلك المبادئ وعددتها واعتبرتها سقفاً يجتمع تحته الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى دون فرق بينهم أو تمييز. والمبادئ هي الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح.

ــ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة: ٢/ ٦٢) (١) (٢) (٣)

لن نتساءل عن الأسباب التي قوّلت المؤلف «أن كل شيء أوقفته الآية ٦٢ على الإيمان» والتي جعلته ينسى «الإيمان بالآخر» و«القيام دوماً بالأعمال الصالحة». لأننا نعرف أنه لا يريد أن يكتب أية إيجابية في القرآن.

ب ــ حينما ظهرت الدعوة الإسلامية، كانت تنتشر في المجتمعات عقائد «اليهودية» و«النصرانية»و«الصابئة» و«المجوسية» و«الشرك».

ولما كانت رسالة الإسلام موجهة إلى الناس كافة فقد حددت هوية الدعوة التي تكفي أهل الكتاب كافة لكي ينالوا الأجر ويأمنوا من الخوف والحزن، وطمأنتهم بأن عفو الله وغفرانه يمحو السيئات السابقة بل يمحو الإسراف فيها. فجاءت الآية ٥٣ ــ من سورة الزمر آمرة النبي بأن يعلن هذه البشارة إلى الذين أدركهم القنوط مما عملوه:

ــ ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الزمر: ٣٩/ ٥٣).

---

(١) الذين هادوا ــ هم اليهود.

(٢) النصارى نسبة إلى الناصرة وهي قرية في الشام، وقد سمي المسيح: يسوع الناصري (مرقس ــ ١/ ٢٤) نسبة إليها والتنصر هو الدخول في النصرانية والنصارى منسوبون إلى الناصرة. وفي الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه اللذان يهوّدانه أو ينصّرانه» (لسان العرب ــ مادة ــ نصر)

(٣) الصابئين: هم الصابئون: قوم يزعمون أنهم على دين نوح وقبلتهم من مهب الشمال، جنس من أهل الكتاب وكلمة «صبأ» تعني أنه خرج من دين إلى دين، وكان المسلمون الأوائل يقولون «صبأنا» وكان المشركون يسمون النبي بالصابئ. وفي الحديث: لتعودُنَّ فيها أساود «صُبَّىً» أي فعلاً. أراد كالحيات التي يميل بعضها إلى بعض. (لسان العرب ــ مادة ــ صبأ).

http://kotob.has.it

ثم جاءت فيما بعد الآية ٦٢ ــ من سورة البقرة فحددت شروط استحقاق المغفرة وشطب جميع الذنوب عن سجل الحساب بثلاثة هي: «الإيمان بالله» و«الإيمان باليوم الآخر» و«الاستمرار في العمل الصالح». تلك الصيغة البدائية لتوحيد الهوية بين أهل الكتاب ظلت مثلما جاءت في آيتي «الزمر» و«البقرة» ومع ذلك: ظل تحذير الإسلام قائماً وشديداً من تبادل الاتهامات بالكفر. فذلك في يد الله وحده لأنه الفاصل الوحيد في هذه الأمور.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (الحج: ٢٢/ ١٧).

فقط: «الشرك بالله» لا يغفره في الدنيا، ولا يغفره في الآخرة. والقرآن وإن بشر الذين أسرفوا في الذنوب بغفرانها. فإن الشرك مستثنى من الغفران: لأن الشرك بالله ظلم عظيم ــ لقمان ــ ٣/٣١. والله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً (النساء ــ ١١٦/٤ و٤)[1].

٦ ــ وفي حاشية الصفحة ١٥٨ ــ قال:

«إن الآية ٨٧ ــ من سورة يونس (١٠) أشارت إلى أن محمداً كان حينئذٍ يعرف مفهوم القبلة. فمحمد الذي لم يكتف بأن أخذ من ديانتي الوحي السابقين اسم «الصلاة» بل أخذ عبادات وطقوساً صلاتية كثيرة لهذا يكون من المستغرب جداً أنه لم يتبعهما في مسألة القبلة»

قلنا: لقد صرح النبي مثلما صرح عيسى أن كلاً منهما لم يأت لينقص بل جاء ليتمم. فإن وجد في رسالة المتأخر ما يشابه بعض النصوص والطقوس التي وردت في رسالة المتقدم. فذلك ليس سطواً ولا اعتداء.

وإن وجد فيما تأخر تطوير في الأحكام والعلاقات الإنسانية فذلك إكمال وتتمة وليس رفضاً أو استنكاراً. ومع ذلك: فإن أقوال «نولدكه» عبارة عن أخطاء متلاحقة ندل عليها بالآتي:

أ ــ إن الآية ٨٧ ــ من سورة يونس تحدثت عن موسى وهارون حينما أوحى إليهما الله، بقبول التواري في البيوت هرباً من فرعون، وذلك لممارسة

---

[1] كنا تحدثنا عن الشرك في الفقرة ــ ٥ ــ من الفترة المكية الثالثة. ونعتذر عن التكرار الذي اضطرتنا إليه طبيعة البحث.

http://kotob.has.it

العبادة فالبيوت كفيلة بإخفاء بني إسرائيل وهم يمارسون طقوساً عبادية تختلف عن طقوس المصريين.

لذلك: ــ جاءت القبلة بمعنى الجهة.

ــ وفي لسان العرب ــ القبول من الرياح «الصَّبا»

ولكن الإسلام جاء أكثر شمولاً واتساعاً إذ قال:

ــ ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...﴾ (البقرة: ٢/ ١١٥).

ــ ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ (الرحمن: ٥٥/ ١٧).

ففي الجميع بين هاتين الآيتين، يتضح الشمول القرآني وينتفي التحديد حيث تشرق أو تغرب الشمس. فأحد المشرقين هو أقصى ما تشرق الشمس منه في الصيف والثاني أقصى ما تشرق منه في الشتاء وبين الأقصيين مئة وثمانون مشرقاً. وأحد المغربين هو أقصى ما ينتهي إليه غروب الشمس في الصيف والثاني هو أقصى ما تغرب منه في الشتاء وبين الأقصيين مئة وثمانون مغرباً.

ب ــ إن الأمر بالتوجه إلى الكعبة

ــ ﴿... وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ...﴾ (البقرة: ٢/ ١٤٤).

ــ ﴿... حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ...﴾ (البقرة: ٢/ ١٤٩).

كان لتوحيد الكلمة وتوحيد ممارسات الطقوس. فأينما يصلي المسلم يتوجه نحو الكعبة فمن كان منهم في الجنوب منها يتجه شمالاً، كذلك يتوجه إليها من كان منهم في الشرق والغرب من الكعبة.

والمؤلف الذي أكد على معرفة محمد للقبلة من قبل حيث ذكر ذلك في الآية ٨٧ ــ من سورة يونس، لم يدقق في الآية جيداً. ولو فعل لوجد أن المقصود بقبلة البيوت هو للتوجه إلى البيوت والصلاة فيها. وليس المقصود أن تبقى البيوت قبلة.

ج ــ والمسلمون وجميع المؤمنين بوحدانية الله لا يستنكرون ــ كما تقدم ــ أن تظهر بعض عبادات وطقوس الديانات السابقة في الديانات اللاحقة.

ومع ذلك فإن إدعاء المؤلف «أن النبي محمداً أخذ عبادات وطقوساً صلاتية كثيرة من ديانتي الوحي السابقتين» هو ادعاء جزاف. فالطقوس الإسلامية لا تتشابه أبداً مع طقوس ديانتي الوحي السابقتين.

لأن الطقوس ممارسات وحركات بشرية، تتغير بتغير الظروف والأزمنة.

http://kotob.has.it

د ــ أما اسم الصلاة الذي يقول المؤلف: إن محمداً أخذه من ديانتي الوحي السابقتين فهو مرفوض لما يلي:

ــ كان المؤلف نفى إطلاع محمد على كتب اليهود والمسيحيين ونفى أن تكون تلك الكتب آنذاك مترجمة إلى العربية.

ــ «الصلاة» في اللغة تعني «اللزوم» (لسان العرب) وفي المدلول الإسلامي تعني «الرحمة إذا صدرت عن الله» و«الاستغفار إذا صدرت عن المخلوقين» ويعبر عنها بالركوع والسجود لأنهما أقصى حالات الخضوع، فالركوع: هو طأطأة الرأس لأن الراكع هو المنحني.

وكانوا في الجاهلية يسمُّون الحنيف راكعاً إذا لم يعبد الأصنام. وقد قال الشاعر: «إلى ربه ربِّ البرية راكع» [1] والسجود: هو وضع الجبهة على الأرض إمعاناً في الخضوع، وفي قول القرآن عن يعقوب وبنيه :

ــ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً...﴾ (**يوسف**: ١٢/ ١٠٠).

إنما هو سجود إعظام وتكريم لا سجود عبادة. لأن يعقوب وأبناءه لا يسجدون عبادة إلا لله. بهذا المعنى اللغوي وليس بسواه أخذت كلمة الصلاة مدلولها الشرعي الذي هو الاستغفار والتعبير الصادق عن خضوع المخلوق للخالق.أما حركاتها ومناسباتها فقد كانت تختلف باختلاف الأزمنة.

فالصلاة عند **بني إسرائيل** أخذت صوراً شتى:

ــ بدأت على صلة وارتباط بالأحداث ما وقع منها وما يرجى وقوعه.

ــ صلاة موسى كانت للتشفع عن أخطاء الإسرائيليين.

ــ في المزامير والتوراة صارت الصلاة «دعاءً وتذكراً»

تنتقل بعدهما إلى الضحك ثم إلى الدموع.

والصلاة التي علمها يسوع :

ــ فهي كما جاءت في الأناجيل:

ــ «إذا صليتم فقولوا أبانا الذي في السماوات فليتقدس اسمك فليأت ملكوتك فلتكن مشيئتك» (**لوقا ــ ٢/١١**).

ــ صلى المسيح على الجبل (**متى ــ ٢٣/١٤**).

ــ وصلاة الكنيسة لم تبق على شكل واحد:

---

[1] قال ذلك في أحد الحنفاء.

http://kotob.has.it

ـ الرسل كانوا يلازمون الهيكل مسبحين (لوقا ـ ٥٣/٢٤) (وأعمال الرسل ـ ١٢/٥).
ـ وبطرس يصلي في الساعة السادسة (أعمال ـ ٩/١٠).

ويؤدي مع يوحنا في الهيكل صلاة الساعة التاسعة (أعمال ـ ويؤدي مع يوحنا في الهيكل صلاة الساعة التاسعة (أعمال ـ ١/٣).

ولكنها ظلت دون مداومة. حتى قرن «بولس» الألفاظ الدالة على الصلاة بعبارة بلا انقطاع أو في كل حين (روما ـ ٢٠/١) و(افسس ـ ١٨/٦) و(تسالونيكي ـ ٣/١ و١٣/٢) أو بعبارة «ليل نهار» (تسالونيكي ـ ١٠/٣)

وبما أن بولس كان يعتبر الصلاة جهاداً كان يقول: «جاهدوا معي بصلواتكم التي ترفعونها لله من أجلي» (رومة ـ ٣٠/١٥) و(كولوسي ـ ١٢/٤)

فمثلما: اختلفت طقوس الصلاة، ومثلما: اختلفت عند اليهود من موسى إلى المزامير والتوراة صارت إلى ما صارت إليه في أيام المسيح.

ومثلما: اختلفت في تصرفات الرسل وتضرعاتهم ولم تستقر إلا بعد بولس.

هكذا: اختلفت في الإسلام بالطقوس والممارسات مع بقاء معناها السامي وهو الخضوع لله، في موقعه دون تغيير. لقد سمي ذلك «مناسك» من «نَسَكَ» أي أطاع وتعبد فطرائق الطاعة والتعبد تختلف باختلاف الزمان والمكان. لذلك جاء في القرآن:

ـ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [1] (الحج: ٢٢/ ٣٤).

فالقرآن ذكر تعدد الطرق التعبدية والتفرد بالإلوهية لله وحده، الذي هو إله الجميع وخالقهم. فالدين الذي هو «الإيمان بالله الواحد» و«اليوم الآخر» و«بالعمل الصالح» هو الذي لا يتغير بتغير الزمان والإنسان. لذلك نبه القرآن إلى «التعدد والتفرد» بقوله:

ـ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ...﴾ (الشورى: ٤٢/ ١٣).

لما تقدم:

نستطيع أن نقول: لو كان المؤلف على سعة إطلاع ومعرفة في القرآن والكتابين لما استغرب لماذا لم يتبع المسلمون الجهة التي يتجه إليها الآخرون.

---

[1] المخبت: الخاضع الذي إذا ظلم لا ينتصر لنفسه تيمناً بقوله تعالى: (وإصبر على ما أصابك إن الله مع الصابرين)

http://kotob.has.it

٧ ــ **قال في ص ١٥٨:** «ويبدو أن الآية ١١٥ ــ من سورة البقرة إنما هي هجوم على قبلة اليهود وأن ما تلاها من الآيات قصد في بعضها النصارى وفي بعضها أشار إلى أن دين إبراهيم خير من اليهودية، وأنه بمقتضى الآية ١١٥ ــ لم يعد مهماً أية قبلة يستقبلون. ففي هذه الأقوال نقول:

أ ــ لقد بيَّن الإسلام أن المقصود بالقبلة هو الجهة.. وبما أن جميع الجهات لله، جاءت الآية ١١٥ ــ من سورة البقرة لتؤكد هذه الحقيقة وكانت الآية ١٧ ــ من الرحمن قد أكدت أن ليس الشرق ولا الغرب وحدهما بل جميع المشارق والمغارب[1] وهو رب العالمين والسماوات والأرض وما بينهما. (الأعراف ــ ٦٧/٧ و ١٤) و(الشعراء ٣٤/٢٦)

ب ــ أما إن في الآية هجوماً على اليهود فهذا غير صحيح. لأن اعتبار جميع الجهات لله، لن يتضرر منه غير من يحاولون حصر الله بمكان واحد. وهو مالك الأمكنة جميعها.

ج ــ أما تفضيل إبراهيم على اليهودية فليس في هذه الآية ولا فيما تلاها ما يشير إلى هذا. نعم تحدث القرآن من ١٢٣ ــ ١٣٢ عن قصة بناء إبراهيم للكعبة وتوسله إلى الله بأن ينشر الأمان على بلدها. وأن يبقيه مع ذريته مسلمين وجوههم لله. ثم قالت الآية:

ــ ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ **(البقرة: ٢/ ١٣٠).**

د ــ أما الحديث عن ملة اليهود والنصارى في الآية ١٢٠ ــ فليس إلا من باب «أن الهدى هو هدى الله لا هدى الملة». وكان في الآية ١١٦ ــ نزه الله عن اتخاذ الولد وقال:

ــ ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ **(البقرة: ٢/ ١١٦).**

ــ أما ما قبل الآية ١١٥ ــ فقد تحدثت:

عن كثير من أهل الكتاب دون تعيين الطائفة ولا الأفراد الذين ودوا لو يرجع المسلمون كفاراً، ولكن رغبتهم لن تنفذ لذلك تطلب من المسلمين أن يصفحوا عنهم وأن يتركوا الأمر لله (١٠٩). وقالت ليس الدخول إلى الجنة مقصوراً على اليهود والنصارى بل هي مفتوحة الأبواب لمن أسلم وجهه إلى الله ومارس الحسنات في حياته (١١٢). أما تبادل التهم بين هاتين الطائفتين فإن الإسلام ليس طرفاً فيه لأن ذلك منوط بالله الذي يحكم بينهم يوم القيامة (١١٣).

---

[1] كنا في فترة سابقة بيَّنا معنى المشرقين والمغربين

http://kotob.has.it

٨ ــ وفي الصيام ينساح المؤلف على مدى ثلاث صفحات مع هوامشها المزدحمة ليؤكد أمرين:

الأول: وهو المهم، يتحدث عن محمد الذي فرض الصوم مثلما فرض العبادات ووضع صيَغها ومثلما وضع القرآن أثناء نوبات جنونه.

الثاني: إنه استدعاء وجلب من الشرائع والأقوام المتعددة: «وثنية» و«يهودية» و«مسيحية». «ومع أن الصيام الإسلامي تقليد لما تقدم وأخذ عمن تقدم فقد بالغوا فيه وربما جاءت هذه المبالغة من صوم المانويين الذين يقول عنهم «فهرست ابن النديم» إذا أهل الهلال ونزلت الشمس الدلو (في العشرين من كانون الثاني) ومضى من الشهر ثمانية أيام يصام ثلاثين يوماً يفطر كل يوم عند غروب الشمس» (هامش الصفحة ــ ١٦٢)

تلك الأقوال اقتضت مواجهتها بما يلي:

أ ــ تجاه التكرار الذي عكف عليه المؤلف من أن الإسلام بكتابه ونظامه وشموله وانتشاره، هو صناعة صنعها رجل عادي عاش ومات في الصحراء العربية نقول:

تجاه التكرار الذي لا يمل منه، نكرر: أنه مخطئ، وأن الإعجاز القرآني يعلو على الإمكانات البشرية، وأن الاستثنائية في شخص محمد، لا تضاهيها استثنائية في تاريخ الخلق، وأن الأعراض التي كانت تنتابه في الفترة الأولى لتلقيه الوحي التي سماها المؤلف نوبات صرع أو جنون، كانت تمر عليه كغيبوبة يستفيق منها فيتلو القرآن.

قلنا: إن كان الجنون ينجب القرآن ودين الإسلام ونظام الإسلام فهو أحسن من عقل العقلاء مهما عقلوا. ولكن الأمر ليس كذلك أبداً وإلا لم يكن من فرق بين القائلين به وبين من كان يقول به من عبدة الأصنام منذ ما قبل أربعة عشر قرناً.

ب ــ إن كان صوم رمضان مأخوذاً عن السابقين. فعن من أخذ السابقون؟ وإن كان الله قد ألهم السابقين فهل عسير عليه أن يلهم اللاحقين؟

ج ــ أما الصوم المانوي ــ كما حددته حاشية الصفحة ١٦٢ ــ فإنه يختلف عن الصوم الإسلامي في التوقيت والشروط. كما يختلف مع الصوم اليهودي اختلافاً بيناً.

هنا ينبغي أن نستعرض المراحل التي مر بها الصيام الإسلامي حتى استقر على ما هو عليه فهو ــ أي الصيام ــ فرض بأسلوب تربوي مثل الصلاة..

http://kotob.has.it

وكان عليه أن يتطور مع تطور الإيمان وترسخه في النفوس. فالصوم: لغة هو ترك الطعام والشراب. والكلام والنكاح. وفي قوله تعالى:

ـ ﴿... إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً﴾ (مريم: ١٩/٢٦).

وفي قوله

ـ ﴿... آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً ...﴾ (آل عمران: ٣/٣١).

وفي قوله

ـ ﴿... آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾ (مريم: ١٩/١٠).

هذا النوع من الصوم، هو الإمساك عن الكلام. والصوم: بالمعنى الشرعي الإسلامي هو الإمساك عن شهوة البطن وشهوة الفرج من الفجر حتى الغروب، طيلة شهر رمضان.

أما التزيد فيه: فهو خارج الحدود الشرعية. ففي الحديث أن رسول الله (ﷺ) سئل عمن يصوم الدهر، فقال «لا صام ولا أفطر» مثل قوله تعالى: «فلا صدَّق ولا صلى» أي إحباط لأجره عن الصوم. وهو فصل من فصول تربية الإنسان، وأن اختلفت مفرداته في الكيفية والعدد لذلك كان اختيارياً في البداية:

ـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢/١٨٣ـ ١٨٤).

فيلاحظ من هذه الآية أن الصوم لم يكن في البداية محدوداً «أياماً معدودات» أي قليلة. كما يلاحظ فيه الاختيار «فدية إطعام مسكين». أي «بين الصوم بدون تكفير ـ فدية» وبين «عدم الصوم مع التكفير»[1]. والذين قالوا بالاختيار علّلوه «بأن الناس لم يكونوا قد تعودوا على الصوم» ثم: فرض فيما بعد وحدد، بالآية ١٨٥ من السورة ذاتها.

أي إن الآية ١٨٥ نسخت الآيتين ١٨٣ ـ ١٨٤:[2] وهي:

ـ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ٢/١٨٥).

---

(١) هذا رأي من آراء متعددة وليس الوحيد.

(٢) السيوطي ـ ص ٢٧ من الإتقان ج ـ ٢.

http://kotob.has.it

فكلمة «رمضان» مشتقة من الثلاثي «رَمَضَ» أي شدة القيظ.

و«الرمضاء» هي الرمل الحار: قال الشاعر الجاهلي يصف كيف «شوى على الرمضاء جثة الذئب، بعد أن أرداه بسهمه».

وقمت فجمعَّت الحصى فاشتويته عليه وللرمضاء من تحته وقدُ

وقد سُمِّي هذا الشهر «رمضان» لأن التسمية ــ على ما رُوي ــ كانت في وقت حر. مثلما سمي «ربيع أول» و«ربيع ثاني» و«جمادى» الأولى والثانية.

ومع أن هذه الأشهر تأتي في الصيف مثلما تأتي في الشتاء والربيع، تبعاً لدوران الأرض فقد ظلت على أسمائها دون تغيير.

غير أن ما يهم البحث مما تقدم، هو التأكيد على أن الاختلاف بين الاختيار والفرض، وعدم التحديد، هو التدرج الذي اقتضته طبيعة الإنسان وتطورها في الاستجابة إلى الأحكام.

ــ فالميراث فُرِض وحُدد بالتدرج. حيث بدأ بالوصية ثم نسخ فرض الوصية بتحديد الورثة، وتحديد ما يصيب كلا منهم. ففي الآية (١٨٠) من سورة البقرة. ورد النص بالخيار المطلق للمورث أن يكتب وصية يحدد فيها نصيب كل من والديه وأقربائه دون تعيين.

ــ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: ٢/١٨٠).

ثم جاءت آيتا المواريث (١١ ــ ١٢) من سورة النساء فحددتا الورثة، وحددتا الأنصبة فنسختا، فرض الإرث الذي كان قائماً على الوصية.

علماً بأن الاختيار الذي ألمحنا إليه في الآية (١٨٠) من سورة البقرة مشروط «بالمعروف» أي بما تعارف عليه الناس وهو العدل. فالموصي الذي يوصي لأحد ورثته بدرهم ويوصي للآخر بعشرة دراهم. يكون خارجاً على المعروف.

لذلك يأتي دور المصلح الذي يعيد الحق على نصابه.

ــ ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢/١٨٢).

على أنه منذ أن نزلت آية المواريث أكَّد النبي (ﷺ) على أمرين:

أولهما: «إن لا وصية لوارث» أي لا يستطيع الوارث أن ينال شيئاً من التركة بالوصية لأن نصيبه الأرثي هو الحد النهائي الذي يستحقه.

http://kotob.has.it

الثاني: إذا كان المورث يريد الإيصاء، فالايصاء المقبول بشرطين:

هما: «أن لا وصية لوارث» و«إن الوصية لغير الورثة يجب إلا تتعدى ثلث التركة»[1]

ـ والرفث[2] ليلة الصيام.

كان محظوراً إلى درجة التحريم، ولكن الله العالم بكل شيء كان يعلم أن الغرائز تنهش في هؤلاء الصائمين مثل غيرهم حيث كانت تدفع بالكثيرين منهم إلى مخالفة الخطر والمنع. ثم كان الصيام، الامتناع عن الطعام والشراب طيلة الليل والنهار لا يتناول الصائم خلالهما، غير وجبة واحدة. فكان، ثمة من لا يطيقون الصبر على الجوع والعطش طيلة تلك المدة.

فجاء الترخيص بهما. في الآية (١٨٧) من سورة البقرة.

ـ ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (البقرة: ٢/١٨٧).

٩ ـ وفي عاشوراء: قال المؤلف:

هذه الكلمة التي أطلقت على يوم العاشر من محرم أصلها يهودي لفظاً ونهجاً.

ففي اللفظ: أصل الكلمة «آرامي ـ يهودي» (عاشور) التي تختم بها الأسماء المعَّرفة في الآرامية. ثم تبناها اليهود، فأطلقوا على يوم الغفران (١٠/١٠) من كل عام.

هذا اللفظ ـ الذي التقطه العرب كما قال المؤلف ـ للدلالة به على اليوم العاشر من محرم. هو ـ في الحقيقة ـ لفظ عربي أباً عن جد. من قبل أن يخلق الله المؤلف بأكثر من ثلاثين قرناً. فهي ـ وإن عنت فيما بعد يوم العاشر من محرم ـ على وزن «فاعولاء»

---

[1] جاء في الحديث: «أن سعد بن أبي وقاص مرض فعاده النبي (ﷺ) فقال: يا رسول الله (ﷺ): لقد حضر ما ترى وليس لي إلا ابنه أفأ تصدق بثلثي مالي؟ قال: لا: قال: فبالنصف؟ قال لا: قال فبالثلث؟ قالت بالثلث والثلث كثير. إنك إن تدَعْ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس» (الميسرة ـ ٢٢٠٠)

[2] هو الجماع

http://kotob.has.it

مثل:

ــ الضاروراء : الضرَّاء

وــ الساروراء : السرَّاء

وــ الدالولاء : الدلاَّل

ولها جموع: عشرون، وعشرات. كما لها كسور: عُشْر، وعشير. والعِشْر من الإبل هي التي ترد كل عشرة أيام وتسمى كذلك العواشر.

وقد قال لبيد:

هَمَلٌ عشائره علـــى أولادهــا   من راشحِ [1]متقــوِّبٍ وفطــيم

وقال البحتري مفرقاً بين «شارب الرفه ــ أي الشارب اليومي من الإبل» وبين الشارب بالخمس ــ أي كل خمسة أيام رامزاً بذلك إلى الفرق بين السعيد والتعيس:

وبعيـــدٌ مـــا بـــين واردِ رفـــهٍ   عُلـــلٌ شـــربُه ووارد خمـــس

كلمة عشائر، هي جمع عشار، أي جمع الجمع. لأن العشار هي التي بلغت عشرة أشهر منها ما أعطى اللبن ومنها ما يُنتظر أن بعطين. وقد قال جرير في هجاء الفرزدق:

كم عمة لك يا جريـــر وخالـــةٍ   فدعاء[2] قد حلبت علي عشاري

١٠ ــ **قال في ص** ١٦٧: «نزلت الآيات من ٢٠٤ ــ ٢٠٨ من سورة البقرة إلى المسلمين الذين رغبوا في التمسك بالشرائع اليهودية..» إن عبارة المؤلف هذه توهم القارئ أن الغاية من الآيات هي استعادة المسلمين إلى حظيرة الشريعة الإسلامية. وهي إحدى الصور التي تتمخض بها عواطفه اللدودة بين حين وآخر.

---

[1] الراشح هنا: هو ولد الناقة الصغير الذي تباشره أمه بحركات من ذنبها ورأسها حتى يلحقها. حتى إذا قوي على المشي خلفها، يقال ترشَّح:

والمتقوِّب: هو المصاب بداء جلدي كان معروفاً «يتقشَّر ويتَّسع» كانوا يداوونه بالريق (لسان العرب)

[2] فدعاء ــ من الفدع هو عوج وحيل في كل المفاصل وأكثر ما يكون في الرسغ والقدم.

http://kotob.has.it

ونحن من أجل إثبات هذا «اللدد» سوف نضع الآيات بحرفيتها بين يدي القارئ، ليرى فهماً خاطئاً لآيات القرآن، عند المؤلف. ثم نستعرض ما قاله في مناسبة الآيات من رافقوا نزولها، وعرفوا حقيقة مناسبتها. فالآيات هي:

ـ ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ، وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ، وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

(البقرة: ٢/٢٠٤ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ـ ٢٠٧ ـ ٢٠٨).

فالآيات: لا تذكر المسلمين ولا تذكر اليهود. أي إنها، بصراحة لم تنزل في أحد من المسلمين. أما فمين نزلت؟. فذلك يقتضي، أن تفصل بين الآيات (٢٠٤ ـ ٢٠٥ ـ ٢٠٦) عن البقية لاختلاف الحكم والتوجه. فالآيات الثلاث، نزلت في المرائين المنافقين بوجه عام. والذين قالوا بذلك اعتمدوا على عبارة «من الناس» التي تفيد العموم.

أما من خالفوهم. فقد قالوا: «نزلت في الأخنس بن شريق الثقفي» وكان اسمه أبي والأخنس لقب أما الذين عمموا فقد قالوا: إنها حتى لو نزلت في «معيَّن» فذلك لا يمنع من التعميم على كل مراءٍ.

وأثر عن ابن عباس أنها نزلت في المرائي لأنه يظهر خلاف ما يضمر.

أما: «من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله». فقد تعددت الروايات في تحديد من نزلت به هذه الآية:

ـ فمن قائل (ابن عباس) أنها نزلت في «صهيب بن سفان» و«عمار بن ياسر» و«بلال بن رياح» و«خياب بن الارت» و«عباس بن الارت».

ـ ومنهم من قال: نزلت في رجل «أمر بمعروف ونهى عن منكر».

ـ ومنهم من قال: نزلت في علي بن أبي طالب حينما بات في فراش النبي (ﷺ) ليلة خروجه إلى الغار وان جبرائيل قام عند رأسه وميكائيل عند قدميه، وجبريل ينادي بخٍ بخٍ من مثلك يا ابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة. ونزلت الآية (**الطبرسي ـ المجلد الأول ص ـ ٥٧ والرازي ـ المجلد الثالث (٥ ـ ٦) ص** ١٧٤).

أما قول المؤلف: أن سبب النزول هو لاسترجاع المسلمين إلى حظيرة الإسلام، فد أخذه عن الطبري. ونحن، إذ ليس لدينا الطبري. الذي توفي في

http://kotob.has.it

سنة ٣١٠ ــ هـ. نسجل على المؤلف، عتاباً، قريباً من اللوم لأنه أخذ عن الطبري ــ على فرض صحة هذا الخبر ــ وأهمل عقله، فلم يقرأ الآيات. ولو قرأها، لوجد أن هذا الذي يعجبك قوله، ولكنه «الد الخصام» و«الساعي في الأرض ليفسد فيها» وذلك حينما يكون بعيداً عن العيون، و «تأخذه العزة بالإثم» حينما يكتشف أمره ويقولون له «اتق الله».

لنقول: لو قرأ هذه الأوصاف لوجدها بعيدة كل البعد عن المسلمين. إذ هي وصف شديد ينطبق على جميع المنافقين المرائين.

ولكنه ــ وهو الذي اعتاد عصر الآيات وطي الأفكار، صاغها على مقاس عواطفه.

١١ ــ **قال في ص** ١٦٥: «إن الآيات من ٢٤٣ ــ ٢٥٧ من سورة البقرة هي حض المسلمين بأمثلة من تاريخ بني إسرائيل على الطاعة والشجاعة»

لَقَد وجدنا، بكل جلاء إن الكتاب محمول على عاطفتين متوازنتين عند المؤلف.

الأولى: عداؤه العميق الشديد للعرب والمسلمين.

الثانية: محبته القصوى، وانحيازه الأعمى، إلى جانب اليهود، ماضياً وحاضراً.

في الآيات إياها:

ــ الآيات ٢٤٣ ــ ٢٤٤ ــ ٢٤٥ أخبرت المسلمين، بإن الجهاد هو فرض الله، يضاعفه يوم الحساب. وكانت الآيات السابقة من ٢١٥ ــ تحدثت عن المسلمين ومعهم في أمور الدين والدنيا والحرب.

ــ وفي الآية ٢٤٦ ــ وصف لليهود الذين تولوا عن القتال.

ــ وفي الآية ٢٤٧ ــ أنكروا واستنكروا طالوت.

ــ كذلك في الآية ٢٤٩ ــ انقسموا، فمنهم من أطاع طالوت ومنهم من عصاه وتمرد عليه. تلك الآيات ليست نموذجاً للحض على الطاعة والشجاعة.

ثم بمن يضرب القرآن مثلاً للمسلمين؟ باليهود؟ الذين لُعِنوُا أكثر من عشرين مرة في القرآن. والذين وصفهم المسيح: بأنهم أبناء الأفاعي. وأبناء إبليس. والمرائين.

ومن يقرأ التوراة يقرأ فيها فظائع اليهود، مع أنبيائهم. وهجرانهم دين موسى، وعبادة أصنام الأقوام الذين سكنوا بينهم في أرض الكنعانيين.

http://kotob.has.it

١٢ ــ **يقول في ص ١٦٦:** إن آخر ما نزل من القرآن هي الآية ٢٧٨ حتى ٢٨١ وقد نقل عن الطبري أنها آخر ما نزل من القرآن. وأنها نزلت في حجة الوداع.

هذا القول، سواء أكان من الطبري أم من بنات عواطف المؤلف يخالف الإجماع ويخالف صراحة الآية ٣ التي نزلت في حجة الوادع ودخلت بسورة المائدة تحت هذا الرقم.

ففيها:

ــ الصراحة بتحريم «الميتة» و«الدم» و«لحم الخنزير» و«ما أهل لغير الله» و«المنخنقة» و«الموقوذة»[1] و«المتردية» و«ما أكل السبع» و«ما ذبح على الأنصاب» و«الاستقسام بالازلام».

ــ تقوية يقين المسلمين ضد الذين كفروا الذين يبست مساعيهم في التعرض إلى الإيمان والتماسك الإسلاميين.

عدا عن جمهرة الفقهاء والصحابة والمفسرين. الذين أجمعوا على أن آخر ما نزل من الوحي القرآني على النبي (ﷺ) هو الآية التي ألحقت بسورة المائدة فور نزولها وأخذت رقم ــ٣ ــ من تلك السورة، ذلك لأن النبي (ﷺ) تلاها في حجة الوداع حيث لم يعش بعدها إلا واحداً وثمانين يوماً. و«ص ــ ٢٧٣ ــ من المجلد الثاني للطبرسي» و «ص ــ ٢٩٣٢ ــ من المجلد الرابع للشعراوي» و«ص ــ ١٩٤ ــ ١٩٥ من المجلد الخامس للطباطبائي».

ويقول الشعراوي في الآية (٣): «أكملت فلا نقص» و«أتممت فلا زيادة» و«رضيت فلا رضى يخالفه».

ويقول الطبرسي: «معناه أكملت لكم فرائضي وحدودي وحلالي بتنزيلي ما أنزلت فلا زيادة ولا نقصان. وكان ذلك في عَرَفه ــ عام حجة الوداع. كما أنه لم ينزل بعدها شيء من الفرائض في تحليل أو تحريم وإن الرسول مضى بعد ذلك بـ ٨١ يوماً».

ثم من نظرة سريعة إلى الآيات (٢٧٨ ــ ٢٨١) من سورة البقرة. نجدها كما يلي:

ــ الآية ٢٧٨ ــ أمرت بترك الربا.

ــ الآية ٢٧٩ ــ أمرت بالاقتصار على رؤوس الأموال وإلا فسوف يحاربهم الله ورسوله.

---

[1] الموقوذة: هي التي تموت تحت الضرب. والمتردية هي التي تسقط من شاهق فتموت.

http://kotob.has.it

ـ الآية ٢٨٠ ـ تحدثت عن ضرورة الرفق بالمدين المعسر.

ـ الآية ٢٨١ ـ إيصاء الدائنين باتقاء يوم الدنيوية.

نعم: يقول المؤلف: لم يجد تعليلاً كافياً لما قاله (سطر ٣ ـ ٤) من (ص ـ ١٦٦).

ولكن: مادام أنه غير متأكد مما روى. فلماذا هجره جمهرة الصحابة والمفسرين وصراحة الآية (٣) من سورة المائدة؟.

١٣ ـ **قال في ص ـ ١٦٩:** «لقد أشار محمد (ﷺ)» في الآية ٧٥ من سورة الأنفال إلى الرابطة الأخوية التي أسسها بين سكان «يثرب» وبين «قومه المهاجرين» الذين لم يكن لهم عون. ثم عاد ففصم عرى تلك الرابطة بعد المعركة ـ معركة بدر.

أي ـ بمنطق المؤلف واستنتاجاته أن الأخوة التي أقامها محمد (ﷺ) كانت مرحلية سياسية. فصمها وتنكر لها بعد الانتصار في بدر.

في هذا التهجم تجنٌ على الحقيقة التاريخية وعلى الحقيقة النبوية. ففي العهد الجاهلي حينما كان محمد (ﷺ) واحداً من أبناء قومه، اشتهر بصدق الوعد ووفاء العهد لذلك كان لقبه في الجاهلية «الصادق» و«الأمين». فلا يعقل من كان يحمل هذه المزايا وهو جاهلي عادي، أن يتخلع منها، بعد أن كلف من الله بالرسالة التي لم تحمل إلى البشر إلا الخير والصدق والأمان.

هذا من ناحية المنطق. أما من النواحي الأخرى: ففي (الحجرات:٤٩/١٠): ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ...﴾ وفي (آل عمران: ٣/١٠٣): ﴿... فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ...﴾ وفي (الحجر: ١٥/٤٧): ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾

وفي الحديث: «الإنسان أخو الإنسان أحب أم كره». فهذا الذي كلف برسالة بنيت على أخوة شاملة، اتسعت حتى احتوت أفاق الإنسانية جمعاء لا يتهمه بالتنكر لوعده. وفصم عرى الصداقة عمن أحسن إليه وإلى أصحابه إلا جاهل بحقيقته أو عدو لهذه الحقيقة.

١٤ ـ **في الصفحات من ١٧٠ ـ ١٩٠:** يقدم اقتراحات ونصائح لعامة المسلمين وقراء القرآن لكي يقوموا بتعديل الآيات وضعاً وصياغة وأسلوباً. وليس عليهم إلا أن يقرأوا اقتراحاته.

ويجب ألا ينسوا تلك الكياسة وذلك اللطف، الذين حالا بينه وبين إعدام القرآن نهائياً. ومع أنه ليس أجدر من سواه من أمراء الفكر والقلم الذين عجزوا

http://kotob.has.it

أمام إعجاز القرآن. كما إنه يقوم بعمل تاريخي يحظر عليه الاقتراحات بتعديل الأحداث التي وقعت حتى ولو كانت ضد رغباته. بل هو في مهمته لا يختلف عن المصور إلا بأنه يستعمل القلم في سرده وذاك يستعمل آلة التصوير.

نعم يستطيع أي منهما ألا ينشر ما يكره. ولكن ليس له إذا نَشَرَ أن يتدخل في مجرى الوقائع، فيقدم الاقتراحات والانتقادات والقص والبتر، عمَّا لا يحب ويُغدق ويزوِّر في الوقائع خدمةً لما يحب ومن يُحِب. وكان جديراً أن يتقيد بما حدث، لكي يقدم إلى القراء حقائق ما حدث.

لقد تحدث «وول ديورانت في قصة الحضارة» عن التوراة وهو يهودي أميركي فقال بعقلية العالم. كيف كتبت أسفارها؟ ومتى كتبت؟ وأين كتبت؟ ذلك سؤال لا ضير فيه. ولكنه سؤال كتب فيه خمسون ألف مجلد وتركوه بلا جواب ويجب أن نفرغ منه هنا في فقرة واحدة نتركه بعدها بدون جواب. **(قصة الحضارة ــ مجلد ١ ــ ٢ــ ص ٣٦٧)**

لقد عرض ذلك اليهودي أحداث التاريخ مثلما وقعت وظل محتفظاً باستقلال علمي ينسجم مع مؤلفه الكبير. وفي اليقين أن في صدره من العواطف اللدودة ضد المسيحية والإسلام ما لا يقل عما في صدر نولدكه على العرب والإسلام.. ولكنه أدرك أنه لن يكون مرجعاً للباحثين فيما سوف يأتي من السنين إن حوَّل عرضه التاريخي إلى متجر يفرز ما يحب من بضائعه عما يكره منها، فيمطر على الأولى شآبيب الثناء ويغرق الثاني بوابل الهجاء.

١٥ــ **قد يكون صحيحاً:** أن المؤلف وضع على مائدته مؤلفات: «ابن هشام» و«الطبري» و«الأزرقي» و«ابن سعد» و«الشهرستاني» و«القسطلاني» و«التبريزي» و«الواقدي» و«الذهبي» و«الترمذي» و«البغوي» و«ابن الجوزي» و«المسعودي» و«الزمخشري» و«القرطبي» وغيرهم.

ولكن كان عليه ألا يقتصر على رواة السوء والكتاب. أي كان عليه ألا يتسّمر عند كلام قاله أو نسب إلى أحد أعداء الدعوة.

هلا تساءل: أن كان المؤلفون الموسوعيون الذين ذكرهم واثقين من صحة تلك الروايات فلماذا ظلوا على إسلامهم؟ ولماذا لم يُرْوَ أن أياً منهم هجر أو قصر في الفروض الإسلامية؟.

هلا تساءل عن ابن هشام «مثلاً» وهو أقدم مرجع من مراجع المؤلف، أن بينه وبين عصر الدعوة مئتي عام (توفي ابن هشام سنة ٢١٣ هـ وبعده توفي ابن سعد في سنة ٢٣٠ هـ).

http://kotob.has.it

إن ما أخذه عنه: ــ لو كان صحيحاً لجاز أن نتَّهِم بالنفاق جميع من سبقه من المسلمين وعلى رأسهم الصحابة. إذ كيف يتقربون إلى الله ويتعبدون بدين وكتاب وضعه واحد منهم؟

ثم كل رواية من رواياته أو حديث من أحاديثه يقوم على عدد كبير من العنعنات التي لا يستطاع الجزم بنظافتها من المؤثرات الأخرى. ولا يستطاع الجزم بأنها وهبت قلبها وضميرها للصدق والحق.

١٦ ــ **من الثابت في التاريخ:** أن ما مر على الإنجيل من محنة «التعدد» مر على القرآن ولكن بشكل مختلف.

ــ فالإنجيل لم يعرف الجهارة إلا بعد أكثر من ثلاثة قرون.

ــ والأناجيل التي أمر مجمع نيقية وقسطنطين بإحراقها زاد عددها على ٣٠٠ ــ ٣٩٦ كما يقول ابن البطريق. في حين أن ما أحرق من نسخ المصاحف لا يتجاوز الثلاثين.

ــ وإن المجمع وقسطنطين لم يكتفوا بحرق الأناجيل بل لاحقوا أصحابها واتهموهم بالهرطقة وقتلوا عدداً كبيراً منهم، فهرب من بقي حيا إلى الاستيطان تحت حماية الفرس. في حين أن من حرقت مصاحفهم لم يلاحقوا ولم يحتجوا بل قنعوا بوحدة الكلمة على المصحف الإمام لقد كان «لعلي» مصحفه الخاص. وكان لابن مسعود ولابن عباس ولأبي بن كعب وغيرهم. فلم يتخلخل إيمانهم ولم يهاجروا وظلوا في مواقفهم القيادية والدينية. فسواء أكان المعارضون لإجراءات الحرق الذي وقع على الكتابة أكثر أم أقل عدداً من الموافقين إلا أنه لا خلاف في الجانبين على نبل الدافع.

فتصرف قسطنطين ومجمع نيقية. وتصرف عثمان بعدهما بأكثر من ثلاثة قرون كان سعياً إلى غاية كريمة ــ وهي وحدة الكلمة ــ ومع هذا فوحدة الغاية، لن تنسينا الفروق الجوهرية التالية:

أولها: أن عثمان كان مسلماً وكان آنذاك خليفة للمسلمين. فجمع كلمة المسلمين على مصحف واحد، كان لسد الطريق على تفرق الصف الإسلامي الذي كان محمولاً على اختلاف المصاحف وتعدد القراءات.

في حين أن قسطنطين الذي عقد مجمع نيقية بدعوته وتحت إشرافه لم يكن قد التحق التحاقاً نهائياً بالمسيحية. لأن «أبو سيبوس» الذي يلقبونه بسلطان

http://kotob.has.it

المؤرخين يؤكد أنه عمَّد قسطنطين على فراش الموت[1]. لذلك، كان هدفه الأول من وحدة الكلمة، حماية الإمبراطورية من تشتت الآراء.

ثانياً: إن قسطنطين لم يكن له تأثير على المتناقشين في مجمع نيقية. بل تبنَّى في النتيجة رأي بطريرك الإسكندرية، الذي آزره ٣١٨ أسقفا. ونَبَذَ آراء الآخرين ووافق على إطلاق صفة «الهرطقة» على آرائهم في المسيح وعَقَدَ لمن تبنَّاهم اجتماعاً خاصّاً سلمهم فيه خاتمه وسيفه وقضيبه وقال لهم: «لقد سلطتكم على مملكتي لتصنعوا ما ينبغي أن تصنعوا لما فيه قوام الدين وصلاح المؤمنين فأمروا بملاحقة المخالفين وتحريف أناجيلهم»[2].

أما عثمان: فلم يعط صلاحية الخلافة لأحد. ولم يلاحق أحداً من أصحاب المصاحف الأخرى.

١٧ ــ كتاب المؤلف لم يتعامل مع محمد (ﷺ) إلا مثلما يتعامل مع شخص عادي.

كما لم يتعامل مع القرآن إلا أنه كتاب عادي، احتوى على عناصر خديعة بشرية كبرى افترست عقول الملايين وأقفلت عليها ثلاجة التخلف.

ونحن، لا نسجل أي لوم على عواطفه العقائدية. بل ينحصر لومنا في مهمته العلمية التي هجرت الحياد في التحليل، واعتمدت في النقل على انتقاء الشكوك التي تخفف من موازين العرب والمسلمين.

وقد كان الواجب العلمي يفرض عليه:

ــ أن يقارن، على الصعيد البشري بين محمد (ﷺ) وباقي الأنبياء، ليرى أنهم لا يختلفون، في التركيب البيولوجي. وأنهم محكومون في الحياة بالغرائز والحاجات التي تحكم الجنس البشري. وليرى، أنهم بمن فيهم محمد (ﷺ)، كان موضع الاصطفاء، لأن لديهم مميزات ومواهب، يخلو منها الآخرون.

في هذا المضمار، لا يختلف محمد (ﷺ) عن بقية الرسل سواء من الناحية «البيولوجية» أم من ناحية «الاستثنائية الخارقة»

نعم: تزوج.. ولكن موسى تزوج وأنجب. كذلك جميع الأنبياء السابقين، باستثناء المسيح.

---

[1] محاضرات في النصرانية للإمام «محمد أبي زهرة» ص ــ ١٣٢ ــ وقد توفي قسطنطين في سنة ٣٣٧ م

[2] أيضاً: أبو زهرة ــ في المرجع ذاته ص ــ ١٣٢ــ

http://kotob.has.it

نعم: عدَّد الزوجات. ولكنه لم يتزوج ثانية وخديجة على قيد الحياة. أما بعد موتها. فكان زواجه، للتأليف. ومثلما كانت تتألف بعض القلوب المعارضة، بدفع من الصدقات لها.

(المؤلفة قلوبهم) هكذا كان الزواج. حيث كانت تفخر القبيلة، التي يصاهرها النبي (ﷺ) وبذلك يُضمَن وفاؤها للإسلام..

ولو كان الزواج. مدفوعاً بالغريزة، لكانت نساء النبي (ﷺ) من أجمل النساء. ولكن ثبت تاريخياً أنه لم يتزوج «أنثى بكراً» إلا عائشة. أما سواها فقد كن من الأرامل المسنات واللواتي لم يملكن نصيباً وافياً من الجمال.

ثم: وهو البعيد ببصره وبصيرته. رأى أن انتشار الإسلام. سوف يقاوم بالحروب من الشعوب الأخرى.

وأنه سوف يتخلف من تلك الحروب كثير من الأسرى، ومنهم كثير من النساء، ثم سوف يموت في الحروب كثير من الرجال. وبذلك سوف يختل التركيب الاجتماعي فيزداد عدد الإناث لذلك كان لابد من حل لهذا الاختلال، ولم يكن إلا إحدى طريقتين.

ـ قتل الأسرى، كما كان سائداً... وهذا ما حظَّره الدين الجديد.

ـ ترك الخلل الاجتماعي دون علاج رسمي، فيحدث من جراء ذلك انتشار البغاء وتمزق كيان الأسرة، وتداخل الأنساب.

أو: الأذن بالتعدد. حيث تقوم العلاقة الاثنينية على إباحة شرعية ومع ذلك، فقد توقع إلا يستطيع ـ غير القليل ـ أن يتحكموا بعواطفهم تجاه الزوجات فمع أمر القرآن بالعدل قال:

ـ ﴿... فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...﴾ (النساء: ٣/٤).

ـ ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ...﴾ (النساء: ١٢٩/٤).

وإن كان النبي (ﷺ)، لا يقل في تصرفاته وردود أفعاله البشرية ـ عن جميع الأنبياء كذلك القرآن لا يختلف في توجهاته العامة، عن الكتب المقدسة السابقة. بل استفاض بما يغطي حاجات الإنسان التنظيمية والعقائدية والفكرية. لأنه جاء بعد سابقه بأكثر من ستة قرون.

هذا التأثير في العمق الاجتماعي، الذي أحدثه القرآن، وتصرفات النبي (ﷺ)، هو التاريخ الحقيقي الذي كان يجب ألا يهمله «نولدكه» ولكنه بدلاً من التركيز على التاريخ الذي صُنِعت أحداثه في ظل القرآن. وانصبَّ، على «تلقط العنعنات

http://kotob.has.it

المشكوك في صدق نيتها» وأخلاقها السردية حول تاريخ نزول الآيات ونقد شخصية النبي محمد (ﷺ)، ومحاولة تقديم الأدلة الاستنتاجية على أن لا علاقة لله بذلك الشخص ولا بكتابه. فوصفه تارة «بالمصروع» وتارة «بالجنون» وتارة «بالخداع والاستغلال»

وينفي الأمية نفياً قاطعاً. ويتهمه بالسطو على الكتب والثقافات الأخرى، فيحشو بها الكتاب.

لقد كان من حق القرآن ومحمد (ﷺ) على «نولدكه» بعد أن عدل مهمته التاريخية إلى مهمة نقدية أن ينقدها نقداً اجتماعياً. ولو فعل، لما وجد في آيات القرآن، ولا في تصرفات النبي (ﷺ) كلمة واحدة أو تصرف واحد أو لحظة واحدة لم يكن فيها إصلاح اجتماعي. وإذ ذاك سوف تبهره تلك الورشة الإصلاحية، حتى ولو لم يكن يؤمن بأية علاقة لها مع السماء.

١٨ ــ وعلى مدى اثنتين وعشرين صفحة (٢١٠ ــ ٢٣٢ وتحت عنوان:)

«ما لا يتضمنه القرآن مما أوحي إلى محمد (ﷺ)» كتب بحثاً قسمه إلى قسمين:

ــ الأحاديث.

ــ المقاطع القرآنية التي ضاعت دون أن يبقى لها أثر.

ففي الأحاديث:

توضيح:

مع أن النبي (ﷺ) كان يفسر ما يسأل عنه من غوامض القرآن فإنه لم يأمر بتدوين ذلك مثل القرآن: بل ثبت عنه قوله: «من كتب عني غير القرآن فلْيمحُه»[١] لذلك اتفقت جميع الروايات على أن هذا الكم الكبير من الأحاديث لم يكتب في حياته. ولم يكتب الكتبة في حياته غير كلمات الوحي التي كان يتلوها على المسلمين. ويأمر بكتابتها، وترحيلها إلى السور. وفي الرواية عن الذهبي الذي يعتمد عليه المؤلف في كتابه.. «تذكرة الحفاظ» قال: «روى الترمذي عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال: استأذن النبي (ﷺ) في كتابة أحاديثه فلم يأذن»[٢]

---

[١] رواية «أحمد» و«مسلم» و«الدارمّي» و«النسائي».

[٢] تذكرة الحفاظ ج ــ ١ ــ

http://kotob.has.it

«وفي طبقات ابن سعد الذي يعتمد عليه المؤلف أيضاً:

أن عمر كاتَبَ الأمصار: من كان عنده شيء من الحديث فليمحه»[1]

وقال عبد الله بن يسار: سمعت علياً يقول: «أعزم على من عنده كتاب إلا رجع فمحاه. فإنما هلك الناس حيث تتبعّوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم»

وإنه لمن ثوابت التاريخ:

ــ أن أبا بكر أحرق ما كتبه من الأحاديث.

ــ وأن عمر كان يقول لا كتاب مع كتاب الله.

ــ وأن الصحابة لم يدونوا «الحديث» خوفاً من اختلاط المعرفة به وبالقرآن.

وأنهم لم يريدوا أن يتعاملوا معه كوحي ثانٍ. لأن النبي (ﷺ) لم يصفه كذلك. ثم نهى عنه كيلا يختلط البشري بالإلهي.

ومع هذا: فقد خضع بعض الفقهاء إلى رغبة رجال السلطة. وضعفِ مقاومتهم تجاه إغراءاتها فوضعوا الأحاديث الداعمة للسلطة والمؤيدة لرغباتها وطموحاتها. ونشروا بين الناس، أن ما يصدر عن النبي (ﷺ) في جميع الشؤون.

ــ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٣/٥٣ ــ ٤).

ثم وضعوا حديثاً نسبوه، إلى النبي (ﷺ) لتأييد ما ذهبوا إليه وهو: «ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه».

ومع أن الآيتين من النجم عادت بالضمير «هو» إلى الوحي القرآني.

ومع أن الحديث «أوتيته وأوتيت مثله» يفيدان القرآن نزل ناقصاً فأكمله ما أوتي إلى النبي (ﷺ) غيره. وهذا الاتجاه مخالف للدين. ومخالف لقوله تعالى:

ــ ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً...﴾ (المائدة: ٣/٥).

فالسلطة السياسية، كانت وراء وضع الأحاديث. وأرادت أن يكون لديها غطاء ديني يحمي اختراقاتها لحرية الإنسان، وحينما عجزت عن إيجاد مطلبها في القرآن استدعت الكثيرين من فقهاء ووجهاء واستولت على ضمائرهم فوضعوا من الأحاديث ما طفحت به المكاييل.

---

(1) الطبقات ــ ص ٢٠٠٦ ــ

http://kotob.has.it

أبو هريرة: ذلك الذي عاصر النبي (ﷺ) أقل من عشرين شهراً، وكان من أهل العفة يقول: خدمت الرسول (ﷺ)، على لقمة بطني. يستدعيه معاوية، ويبني له قصّر العقيق ويوليه المدينة لقاء ما يصنع من الأحاديث الداعمة للحكم الأموي.

والمغيرة، وعروة بن الزبير، وعمرو بن العاص. وسواهم، حيث ظلت الأحاديث تتراكم. إذ كلما كان تيار السياسة يحتضن فئة من الفئات، كانت تلجأ إلى غطاء ديني وإذ وجدت، أبواب القرآن مغلقة بوجهها التجأت إلى المنهل الثاني، فوضع لها الوضاع ما شاؤوا وما شاءت من الأحاديث الداعمة لنهجها وتميزها على باقي الطوائف. فلم يستقر عدد الطوائف والمذاهب الإسلامية حتى بلغت ٧٣ طائفة. حتى تجاوزت الأحاديث سقف المليون حديث:

- قال البخاري: احفظ مائة ألف حديث يحتمل أن يكون بعضها صحيحاً وأحفظ مئتي ألف لا يحتمل فيها حديث صحيح.
- وقال أبو بكر محمد بن عمر الرازي الحافظ: كان أبو ذرعة يحفظ سبعماية ألف حديث.
- وقالت «أم كلثوم» بنت علي وزوجة عمر:

لقد استطاع هذا الشيطان (وتقصد كعب الأحبار) أن يدسّ الأوهام والخرافات والأكاذيب في الدين حتى ملأت كتب التفسير والحديث فشوهتها.

- وقال عمر «لكعب» لتتركن الحديث عن رسول الله (ﷺ) وإلاّ ألحقتك بأرض القردة[1].
- وكان علي يقول عن كعب: «إنه كذّاب» فالإسرائيليات، أي أحاديث الإسرائيليين فعلت فعلها التخريبي في وضع الأحاديث، واتساع نشرها بين الناس. «فقد روى أنه بعد أنّ ثبت على «ابن أبي العوجاء» وضع الأحاديث وجيء به لكي يطبق عليه حكم الشرع قال كلمته الأخيرة: أيها الناس والله لقد وضعت فيكم أربعة آلاف حديث حللت فيها المحرم وحرّمت فيها المحلل. وفطرتكم في يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم ولن أدلكم عليها وسأدعها بين الناس» ثم قطعت رأسه وسارت تلك الأحاديث فانضمت إلى غيرها من الأكاذيب.

* * *

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير ج ــ ٨ ــ ص ٢٠٦ ــ أرض القردة ــ هي أرض اليمن.

http://kotob.has.it

لم نتقدم بهذا التوضيح إلا لجلاء بعض الأمور كالآتي:

أ ـ من بين هذا الكم الكبير من الأحاديث لا يستطاع الجزم بصحة أي منها إذ يقابل كل حديث حديث أو أكثر ينقضه ويناقضه.

ب ـ نهى النبي (ﷺ) عن كتابة شيء عنه غير القرآن وأمر بمحو ذلك الغير[1]

ج ـ الصحابة الذين صحبوا النبي (ﷺ) أحرقوا ما كانوا يحتفظون به من الأحاديث اكتفاء بالقرآن[2]

د ـ روى الحاكم عن عائشة أن أباها أبا بكر أمرها أن تحرق الأحاديث الخمسماية التي كانت عنده خوفاً من أن يموت قبل أن تحرق[3]

هـ ـ سئلت عائشة (ر) عن أخلاق النبي (ﷺ) فقالت: كان خلقه القرآن ولم تقل الأحاديث.

لذلك وبناءً على أمر النبي (ﷺ) يجب أن يعرض الحديث على القرآن، فإن كان مفسراً أو متفقاً معه، فيقبل الأخذ به وحفظه، وإلا هجرانه ورفضه. ولقد أثبت أن النبي (ﷺ) إذ «لا ينطق عن الهوى» فذلك بما يوحي إليه. وقد دلت حادثة «تأبير النحل» علة أن الوحي لم يكن في أمور الدنيا.

فقد روى مسلم في كتابه عن موسى بن طلحة عن أبيه: قال: مررت مع رسول الله (ﷺ) بقوم يعتلون رؤوس النخل: فقال: ما يصنع هذا؟

فقلت: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فتلقح. فقال رسول الله (ﷺ): ما أظن أن ذلك يعني شيئاً فأخبروا بقوله، فتركوا النخل. فنفض. وعندما ذكروا ذلك لرسول الله (ﷺ) قال: إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوه وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر وأنتم أعلم بأمور دُنياكم[4].

* * *

بعد ذلك التوضيح: عدنا إلى كتاب المؤلف. إلى الصفحات الـ ٢٢ الأخيرة، المكتوبة تحت عنوان «ما لا يتضمنه القرآن مما أوحي إلى محمد (ﷺ)»

---

[1] رواه الدارمّي وهو شيخ البخاري.

[2] ص ـ ٤٦ من كتاب «أضواء على السنة المحمدية (لمحمود أبو رَّية) ».

[3] ص ـ ٤٩ من (كتاب) الكتاب السابق.

[4] ص ـ ٩٣ من كتاب «أبو رية»

http://kotob.has.it

جميعها تتألف من أحدى عشرة رواية، استوردها من مصنفات المحدثين، الذين خالفوا نهي النبي (ﷺ)، ونهي الصحابة، ووضعوا الأحاديث عن النبي (ﷺ) حتى بعد وفاته.

ولكن المؤلف الذي اعتاد ألاَّ يصيد إلا في المياه العكرة، جاء بتلك الروايات على أنها وحي، أطلق بين الناس دون مكابح، ولم يدوَّن في القرآن.

أ ــ لو أن لابن آدم وادياً من مال لابتغى إليه ثانياً ولو أن له ثانياً لابتغى ثالثاً ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب.

هذا الحديث:

إن صحَّ صدوره عن النبي (ﷺ) فهو مشتق من الآيتين ٣٤ و٣٥ من سورة التوبة:

ــ ﴿... وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (التوبة: ٩/٣٤ ــ ٣٥).

ــ والآية (العلق: ٩٦/٦ ــ ٧) ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾

ــ والآية (المسد: ١١١/٢) ﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾

هذا الحديث الذي انبثق من القرآن لم يكن في حاجة إلى تكرار العنعنة على مدى ثمانية صفحات من ٢١١ ــ ٢١٧: ثم ــ وهذا مهم: إن جميع ما تركه الذين اعتمد عليهم المؤلف لم يقولوا إن هذا وحي من الله أهملت كتابته مثل غيره من الآيات القرآنية.

ب ــ الدين عند الله الحنيفية السمحة لا اليهودية ولا النصرانية ومن يفعل خيراً فلن يكفره هذا الحديث الذي رواه عن الترمذي المتوفى سنة ٢٧٩ هـ.

حاكى القرآن في ناحية، وخالفه في ناحية.

فأمَّا المحاكاة: فقد ورد بالقرآن الآيات الآتية:

ــ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا...﴾ (الروم: ٣٠/٣٠).

ــ ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يونس: ١٠/١٠٥).

هنا يتفق القسم الأول من الرواية مع القرآن. فالحنيفية، هي الانحراف عن الضلال والعقائد الفاسدة. وكل من يحنف ويقيم وجهه إلى الله يكون متبعاً للحنيفية السمحة.

http://kotob.has.it

أما ما يختلف فيه باقي الرواية عن القرآن، فهو نفيه التكفيري لليهودية والمسيحية. وذلك لأنهما أهل الكتاب ولأن النبي (ﷺ) جاء ليكمل، لا ليكفر أو ينقض.

ح ــ قال المؤلف: إن مسلمة بن مخلد الأنصاري تلا الآيتين التاليتين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ آوَواْ وَّنَصَرُواْ أُوْلَـئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال: ٨/٧٢).

ولكنه لا يلبث بعد أربعة أسطر أن يقول: «ولا يمكن الحكم على هاتين الآيتين إذ لا يؤيد صِحَّتهما الطابع القرآني الخالص لمجموع الكلمات وحسب. بل أيضاً تبديل صيغة الفاعل، ما يرد في القرآن كثيراً كما هو معروف».

وإذن، مادام أنهما غير موجودتين في القرآن. ومادام أن المؤلف نفسه شكك فيها بذات الصفحة. فلماذا اعتمدهما من «الوحي الذي لم يكتب؟» وهكذا، إلى آخر الكتاب، ظلت جهود المؤلف تتوالى دون فائدة.

ــ فلم يقدم أي دليل حتى من المصنفات والمراجع التي اعتمدها. أن هذه الأحاديث صحيحة. وإن صحت أنها وحي مثل القرآن.

ــ النبي (ﷺ) الذي سمي في الجاهلية صادقاً لأنه لم يكذب أبداً وسمي أميناً، لأنه لم يخن الأمانة أبداً. لا يمكن أن يكون غير صادق، وغير أمين مع الله. والله يقول له أمراً.

ــ ﴿أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (المائدة: ٥/٦٧).

فلو نزلت تلك الآيات المزعومة. لما كتمها. لأنه مأمور بتبليغها. ولو بلغها، لما كتمها المؤمنون الذين كانوا يتبركون بقلامة أظفاره وخُصَلِ شعره

ــ والذين أخذ النبي (ﷺ) عن مصنَّفاتهم. لم يجدوا ولم تجد مصنفاتهم قبولاً في زمنهم. فكيف يشدُّ بنا هذا المؤلف إلى افتراضات مرفوضة، وقد أسقط الزمن أسنانها.

ــ لقد أدرك المؤلف في خواتيم كتابه هذا «ضيق المضيق» الذي سقط فيه فقال في ص ٢٢٨ ــ قولاً فيه رد على ما جاء في كتابه إذ قال: «لقد أدَّى بحثنا

http://kotob.has.it

إلى نتائج مختلفة، لم نستطع الإتيان بأي دليل على مصداقية الرواية في أيٍّ من الحالات. لا: بل إن المصداقية يمكن نفيها لأسباب مقنعة في الشذرات ذات الأرقام ١ ــ ٢ ــ ٣ ــ ٤ ــ ١١ وفي الحالتين ٣ ــ ١٢ يمكن على الأقل التشكيك فيهما».

إن من يعترف هذا الاعتراف. كان عليه أن يعرض لا أن يفرض، وأن يقول لا أن يقرر. فما دام أنه لم يجد دليلاً. فلماذا بدأ واثق الخطا، مطمئن العبارات. طالباً من قارئه أن يهجر القناعات السابقة ويتعلق بهذه الهلاهيل؟.

د ــ أما المعلومات التي توفرت لديه، بأن سُوَرَ «الأحزاب» و«التوبة» و«البيِّنة» كانت أكبر مما هي الآن، لأن كثيراً من المقاطع القرآنية سقطت منها ولم يبق لها أكثر.

هذا الضياع النصي، الذي رجح المؤلف وجوده، اعتماداً على الرازي ووعد باستقصاء بحثها في «الجزء الثاني». نكتفي هنا، وإلى أن نلتقي مع المؤلف في الجزء الثاني، بالتذكير.

ــ أن الرازي توفي في سنة ٦٠٦ هـ.

ــ وقد نقل عن وعن وعن وعن ابن عباس أنه قال: أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين ولكن تلك الآيات نسخت «رحمةً من الله بالمسلمين».

http://kotob.has.it

تعريف مختصر لحياة المحامي الدكتور أحمد عمران الزاوي

أغلق وراءه ثلاثة أرباع القرن وهو الآن يستقبل الثمانين.

فقد ولد في مطلع عام ١٩٣٠ م في قرية «ضهر بشير» التابعة لقضاء صافيتا من الجمهورية العربية السورية.

ـ و«الزاوي» كلمة لها مدلولان «لغوي وشرعي»

فاللُّغوي من زوي فانزوى أي تنحيَّ وتجمع، ومنه قول النبي (ﷺ):

ـ﴿إن الله تعالى زوى الأرض لي فأُريت مشارقها ومغاربها﴾ ومعنى «زُوِيت» أي «جُمِعَتْ»

والشرعي: يعني بيتاً للعبادة والصلاة، أقل ضخامة واتساعاً من المسجد فهو بمقارنته مع المسجد يبدو مثل زاوية من زواياه. أو ركن من أركانه.

والزاوي رمز العائلة حيث قام الجد منذ القديم بشيادة بيت للعبادة في القرية من ماله الخاص واستمر في الإنفاق عليه طيلة حياته، ثم أورث أبناءه هذا الواجب الذي أورثوه لمن جاء بعدهم ونعني بكلمة «الإنفاق» أنه رسَّخ عادة تقديم مائدة كبيرة للمصلين كل «جمعة» بعد الصلاة حتى صارت تسمى بين الناس عيد الجمعة، وقد انتقل هذا التكليف إلى الأولاد فالأحفاد...

ـ تلقَّى الأبجدية عند شيخ (خطيب) في القرية.

والتزم من أبوية توجيها إلى «القرآن الكريم» و«نهج البلاغة» و«كتب رشيد الشرتوني في اللغة العربية»

ـ التحق بالكلية الشرعية ثم بالجمعية الغراء في دمشق بعام ١٩٤٥ ـ مع أبناء بعض الأسر الدينية. في محافظة اللاذقية.

ـ درس المناهج الدراسية على نفسه.

ـ فنال الكفاءة بعام ١٩٤٧.

ـ والبكالوريا بعام ١٩٥٠.

ـ والإجازة في القانون بعام ١٩٥٤. وفي أواخر ذلك العام انتسب إلى نقابة المحامين. انتخب أمين سر النقابة في اللاذقية بعام ١٩٦٨.

ـ وحينما نشأت النقابات الفرعية، انتخب رئيساً لفرع طرطوس، وفي ذات الوقت عضواً في النقابة المركزية بدمشق، وعضواً في اتحاد المحامين العرب.

http://kotob.has.it

ـ وحينما احتفل الاتحاد بعيد ميلاده الخمسين في دمشق بتاريخ ١٩٩٤/١٢/٢٠ كان المؤلف في جملة المكرمين، وقدم له الاتحاد «درع الاتحاد» و«شهادة التقدير» بسبب ظروفه الاقتصادية الصعبة انصرف إلى مهنة المحاماة، وظل متابعاً دون انقطاع حتى عام ١٩٩٣، فمنعته ظروفه الصحية عن المتابعة، المهنية كالمعتا .

ـ ووجه أغلب جهوده منذ ذلك الوقت إلى التأليف والنشاط الأدبي.

تقديراً لمؤلفاته منحه «الاتحاد العالمي للمؤلفين باللغة العربية في باريس» «دكتواره فخرية» تحت عنوان «الإبداع في مناصرة العدالة بالإقناع»

ـ كما أبلغ من الاتحاد في ٢٠٠٤/٥/١٧ أنه تقرر منحه «دكتواره» ثانية تحت عنوان «البلاغة»

مما يصرح به، دوماً، دون تحرج.

أنه كان فقير المادة، مما اضطره إلى تجميع جهوده لتأمين العيش الكريم لأسرته.

لم ولن ينسى رفيقة عمره، أم أولاده، التي ربتهم فأحسنت تربيتهم. وكانت شريكةً حقيقية في جهاده الطويل.

أبناؤه:

ـ منذر: دكتواره في الهندسة المدنية وهو أستاذ في جامعة تشرين.

ـ وائل: طبيب غدد صم وسكري، يمارس مهنته الآن في ألمانيا.

ـ عمران: محام، وقد شغل منصب نقيب فرعي للمحامين في طرطوس.

ـ غادة: ليسانس في اللغة الإنكليزية، مديرة الثقافة الشعبية في طرطوس.

* * *

http://kotob.has.it

مؤلفات: المحامي الدكتور أحمد عمران الزاوي

١ ــ الحقيقة الصعبة، في الميزان:

صدر في حزيران ــ ١٩٩٣ ــ وهو ردّ وتصحيح لمقولات «أبي موسى الحريري» في كتابه «الحقيقة الصعبة» الذي:

ــ نفى فيه الأمية عن النبي محمد (ﷺ)

ــ واعتبر القرآن من فكر ورقة بن نوفل.

ــ واعتبر ورقة «أستاذاً لمحمد».

ــ يقع الكتاب في ٤٤٩ صفحة.

٢ ــ القراءة المعاصرة للقرآن في الميزان:

صدر في سنة ــ ١٩٩٥ ــ وهو ردّ وتصحيح لما جاء في كتاب «الكتاب والقرآن ــ قراءه معاصرة» لمؤلفه الدكتور محمد شحرور. ويقع في ٥٢٧ صفحة.

٣ ــ القرآن والمسيحية في الميزان

صدر في سنة ــ ١٩٩٥ ــ وهو تصحيح لما جاء أخطاء قرآنية في كتاب الأستاذ الحداد «القرآن والمسيحية» حيث اقتطع من الآيات ما يناسب أهواءه وفسرها وفقاً لتلك الأهواء. ويقع في ٦١٨ صفحة.

٤ ــ قراءة في ما كتبه الغريغي بالتشيع:

صدر في سنة ــ ١٩٩٦ ــ وهو يبحث عن مفردات الفكر الشيعي ويقع في ٢٧٠ صفحة.

٥ ــ العدل الإلهي والتناسخ.

صدر في سنة ــ ١٩٩٧ ــ وفيه عرض حيادي لحجج مؤيدي التناسخ ومعارضيها. مع شهادات لأناس لا يزالون أحياء يتحدثون عن حياة سابقة لهم. وقد حرص الكتاب على وضع عناوينهم وهواتفهم لكي يتسنى لمن يريد أن يقابلهم أو يتحدث إليهم.

٦ ــ العلاقة الجدلية بين التاريخ والطقوس المسيحية:

صدر في سنة ــ ١٩٩٧ ــ هو كتاب يبحث عن تاريخية الطقوس عند جميع الأديان وعن مصادرها الأولى. ويقع في ٢٥٥ صفحة.

http://kotob.has.it

٧ ــ كتاب مفتوح إلى المواطن العربي.

صدر في سنة ــ ١٩٩٨ ــ وفيه تشريح لتاريخ الصهيونية ورؤية المؤلف للواجبات القومية الملقاة على عاتق المواطن العربي، ويقع في ٦١٢ صفحة.

٨ ــ نضال المرأة في مواجهة التحدي.

صدر في سنة ــ ١٩٩٨ ــ وهو تتبع تاريخي وعقائدي وقانوني لأوضاع المرأة في مختلف العصور ولدى سائر الأمم، ويقع في ٥٢٦ صفحة.

٩ ــ كلا لم يخرج العرب من التاريخ ولن يخرجوا منه.

صدر في سنة ــ ١٩٩٩ ــ فيه سرد لعناصر الخلود في الأمة العربية ورد علمي على من يقولون بخروجها من التاريخ، ويقع في ٦٨٩ صفحة.

١٠ ــ كتابات من الجحيم وعقائد معجونة بالدماء.

صدر في سنة ــ ٢٠٠١ ــ وهو بحث عام عن الفكر اليهودي الذي بنيت عليه المنظمة اليهودية والذي يملأ رؤوس الصهاينة في شتى بقاع العالم وفيه أيضاً «نقد علمي لأساطير التوراة» و«نقد علمي لأساطير التلمود»، ويقع في ٦٢٢ صفحة.

١١ ــ قصة القرآن مع الدكتور شحرور.

صدر في سنة ــ ٢٠٠١ ــ وهو نقد وتصحيح لمقالات الدكتور شحرور في القرآن من حيث:

- تقسيمه إلى «قرآن» و«كتاب» و«فرقان» و«ذكر» وجعل لكل من هذه الأربعة مكاناً عقائدياً خاصاً، وتفسيراً لغوياً خاصاً، يستقل به عن الآخرين استقلالاً كاملاً
- ونفي الترادف البلاغي نفياً قاطعاً.
- وقابلية ما عدا القرآن للنسخ البشري المستمر.
- والتفسير الذي اخترق به قوانين اللغة وتفسير القرآن

ويقع في ٦٥٣ صفحة.

١٢ ــ أضواء على العولمة وتكامل الحضارات.

صدر في سنة ــ ٢٠٠٣ ــ وهو بحث عالج العولمة وأهدافها واستبعد الحوار والصراع والصدام من ساحة الحضارات لكي يقوم مقامها: «تكامل الحضارات» حيث لم يسبق أن جرى صراع بين حضارتين بل الذي جرى هو التكامل أما الصراع والصدام فيكون بين الأمم في الحروب، والجيوش في ميدان الوغى، ويقع في ٢٦٣ صفحة.

http://kotob.has.it

١٣ ــ بؤس الحقيقة في أدب سلمان رشدي وصادق العظم.

صدر في سنة ــ ٢٠٠٣ ــ وهو مناقشة علمية لكتاب الآيات الشيطانية ونقد لدفاع العظم عن المؤلف ــ وموقفه من كتابه، ويقع في ٤٩٦ صفحة.

١٤ ــ التلاقي المسيحي الإسلامي بين الأنصار والخصوم.

صدر في سنة ــ ٢٠٠٤ ــ وهو في مجمله بحث:

ــ استبعد الفكر التقسيمي عند الحرْفيين، «المسيحيين» و«المسلمين».

ــ واستبعد الفكر التوراتي العنصري.

ــ وقدم الأمثلة النصوصية على أن لاخلاف في الأخلاقيات والتنظيم الاجتماعي و«التوحيد» و«أممية الدين» و«التوازن الاجتماعي»

ويقع في ٤٢٤ صفحة.

١٥ ــ كتاب مفتوح إلى الأستاذ نبيل فياض.

صدر في سنة ــ ٢٠٠٤ ــ وهو نقد مغمور بالدهشة لجرأة «نبيل فياض» في كتابه «مراثي اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» حيث توغل كثيراً في التهجم على الدين والأخلاق والنظام العام والقومية والوطن، ويقع في ٢٨٧ صفحة.

١٦ ــ الصهيونية اليهودية والصهيونية السياسية.

صدر في سنة ــ ٢٠٠٥ ــ وهو بحث، وتعمق في العلاقة التي أصبحت أبدية بين «اليهودية والصهيونية » خلافاً لمن يحاول التفريق بين المفهومين، ويقع في ٢٩٦ صفحة.

١٧ ــ الكذب وغطرسة القوة.

صدر في سنة ــ ٢٠٠٥ ــ وهو رد ودحض لأقوال «نتنياهو» في كتابه «موقع بين الأمم» وخاصة:

ــ تفاخره.

ــ وهجومه وسخريته من العرب.

ــ الادعاء باستقلالية إسرائيل عن الغرب.

١٨ــ نديم محمد الفارس الذي لن يترجل.

هو الآن قيد الطباعة،٦ وهو عبارة عن دراسة لشعر نديم محمد.

١٩ ــ الحضيض ــ جولة في تضاريس الفكر العربي.

هو أيضاً في المطبعة.

http://kotob.has.it

المراجع

نذكرها، حسب ورودها في الكتاب

ولكننا نبتدئ بالكتب المقدسة

١ ـ التوراة والتلمود

٢ ـ الإنجيل

٣ ـ القرآن

٤ ـ الشرق الأوسط الجديد «لشمعون بيريز»

٥ ـ قصة الحضارة «وول ديورانت»

٦ ـ تاريخ العرب لـ «فيليب حتي» و«ادورد جرجي» و«جبرائيل جبور»

٧ ـ الاستشراق ـ لـ «ادوار سعيد»

٨ ـ مقال في المعرفة عدد أيلول ٢٠٠٦ لعبد النبي اصطيف في تعريف الاستشراق

٩ ـ السنة قبل التدوين ـ لـ «محمد عجاج»

١٠ ـ جمهورية أفلاطون ـ ترجمة «حنا خباز»

١١ ـ لسان العرب ـ لابن منظور

١٢ ـ الميسرة الإسلامية

١٣ ـ صحيح البخاري

١٤ ـ الإتقان للسيوطي

١٥ ـ إعجاز القرآن للباقلاني

١٦ ـ تفسير الإمام الرازي

١٧ ـ تفسير الطباطبائي

١٨ ـ كتاب المصاحف للسجستاني

١٩ ـ حضارة المنثور ـ للسيوطي

٢٠ ـ حضارة العرب ـ لـ: غوستاف لوبون ـ ترجمة زعيتر

http://kotob.has.it

٢١ – هكذا تكلم زرادشت «نيتشه» ترجمة فيلكس فارس
٢٢ – محمد رسول الله لـ «إيثين رينييه – الفرنسي» ترجمة «عبد الحليم محمود»
٢٣ – جامع البيان في تأويل القرآن – للطبري
٢٤ – الإعجاز البلاغي والعددي لـ: الدكتور حميد النجدي
٢٥ – لكن أكثرهم للحق كارهون لـ: فاديا عمر المقطرن
٢٦ – تفسير القرآن لـ : الشعراوي.
٢٧ – «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة» – لموريس بوكاي
٢٨ – محاضرات في النصرانية للإمام محمد أبو زهرة
٢٩ – شرح مجلة الأحكام العدلية لـ: سليم باز
٣٠ – مرشد الحيران في معرفة أحوال الإنسان لـ: محمد قدري باشا
٣١ – الأحكام الشرعية في الأصول الأحوال الشخصية لـ: محمد قدري باشا
٣٢ – المصنف للحافظ الكبير عبد الله بن محمد بن أبي شيبه
٣٣ – المحتوى لـ: عبد القادر الاشبيلي
٣٤ – الرسالة للشافعي
٣٥ – الأم للشافعي
٣٦ – سنوات مع أسئلة الناس – الأب شنودة.
٣٧ – الإعجاز العددي لـ: عبد الرزاق نوفل
٣٨ – مجلة العلم والإيمان عدد ١٩٧٨/٣٠ مقال للدكتور محمود مصطفى
٣٩ – تذكرة الحفاظ لـ: الحافظ الذهبي
٤٠ – الإتقاق للكرمائي
٤١ – تاريخ القرآن – للزنجاني
٤٢ – مراحل التدين لـ: الدكتور محمد قبيسي
٤٣ – فهرست ابن النديم
٤٤ – البداية والنهاية لابن كثير

http://kotob.has.it

محتوى الكتاب

ـ **مقدمة لعماد أول مصطفى طلاس** ..... ٥ ـ ٨

ـ **مقدمة توضيحية** ..... ٩ ـ ١٦

ـ **الاستشراق** ..... ١٧ ـ ٣٧

آ ـ تعريفه ..... ١٧ ـ ١٩

ب ـ الاستشراق في التاريخ ..... ١٩ ـ ٣٤

الفصل الأول: في أصل القرآن. ٣٨ ـ ١٦٣

آ ـ محمد نبياً (ﷺ) ـ مصادر تعليمه ..... ٣٩ ـ ٧٤

١ ـ مؤونته محمد الفكرية التي نشرها في القرآن تسلمها من الغرباء ٤٠ ـ ٤٨

٢ ـ المصدر الحرفي لوحي محمد وأثر الكتاب اليهودية ..... ٤٩ ـ ٥٣

ـ الخلاصة ..... ٥٣ ـ ٦٣

ب ـ حول الوحي الذي تلقاه محمد (ﷺ) ..... ٧٥ ـ ٩٤

١ ـ الأسلوب القرآني ..... ٩٤ ـ ١٠٤

٢ ـ الناسخ والمنسوخ ..... ١٠٤ ـ ١١٠

٣ ـ طريقة التنزيل ـ التنزيل القرآني ..... ١١٠ ـ ١١١

٤ ـ التدوين. واختلاف القراءات ..... ١١١ ـ ١١٨

٥ ـ الأحراف التي نزل بها القرآن ..... ١١٨ ـ ١٢١

٦ ـ الإعجاز ..... ١٢١ ـ ١٣٠

- **الإعجاز العددي** ..... ١٣٠ ـ ١٣١
- **الأحرف المقطعة** ..... ١٣١ ـ ١٣٣
- **الإعجاز العلمي** ..... ١٣٣ ـ ١٤٣

http://kotob.has.it

- **اعتماد القرآن على التوراة والإنجيل** ..... ١٤٣ - ١٥٠
- **نقاط التلاقي** ..... ١٥٠ - ١٦٣

ـ **كلمة ختامية للفصل** ..... ١٦٤ - ١٨٠

ـ **الإعجاز في شخصية محمد** ..... ١٦٥ - ١٧٨

ـ **التشريع الاجتماعي** ..... ١٧٨ - ١٨٠

الفصل الثاني: في أصل أجزاء القرآن المفردة. ١٨١ - ٢٧٩

ـ مقدمة ..... ١٨١ - ١٩٠

ـ استعراض السور المكية ..... ١٩١ - ٢٧٣

ـ الفترة المكية الأولى ..... ١٩١ - ٢١٧

ـ ملاحظات وهي ١٢ ملاحظة ..... ١٩٥ - ٢١٧

ـ الفترة المكية الثانية ..... ٢١٧ - ٢٣٤

ـ الفترة المكية الثالثة ..... ٢٣٤ - ٢٤٦

ـ السور المدنية ..... ٢٤٦ - ٢٧٣

ـ الأحاديث ..... ٢٧٣ - ٢٧٩

ـ **تعريف مختصر لحياة المحامي الدكتور أحمد عمران الزاوي** ٢٨٠ - ٢٨١

ـ **مؤلفات المحامي الدكتور أحمد عمران الزاوي** ..... ٢٨٢ - ٢٨٤

ـ **المراجع** ..... ٢٨٥ - ٢٨٦

http://kotob.has.it

كثيرة هي الكتب التي تتصدى للردّ على أقوال المستشرقين وتفنيد أقوالهم ومزاعمهم، حتى صار من الشائع المألوف في كثير من العواصم العربية والإسلامية إقامة المؤتمرات والندوات بصورة شبه دورية للردّ على شبهات وافتراءات ودعاوى المستشرقين، فالقراءة الغربية للقرآن الكريم تحاول القراءة الخاطئة، والتفسير الخاطئ، وتقديمه إلى القراء على طبق من الأخطاء، لذلك كان لا بد من تصحيح قراءاتهم وكتبهم من خلال إعداد الدراسات والمقالات والبرامج الإذاعية والتلفزيونية، لدحض ما يثيرون من مشكلات ناجمة عن سوء النية أو الجهل بالتاريخ والوقائع، وأحياناً يحتدم الجدال بعنف كلما ظهر جديد يتعلّق بالإسلام ونبيه الكريم محمد (ﷺ) وبخاصة في العالم الغربي، الذي ينشط إعلامه في إيصال مراده إلى المجتمعات الإسلامية، ويبدأ الاحتجاج دفاعاً عن شخصية الرسول الكريم، وعن الإسلام والمسلمين بصورة عامة.

فهذا الكتاب زاد معرفي، وتصحيح منطقي وإنصاف للحقيقة التي يريد إخفاءها المغرضون من المستشرقين أمثال «نولدكه»، وهي نسف المرتكز الأساسي لحضارتنا ومعتقداتنا..

«من مقدمة»

العماد أول مصطفى طلاس

http://kotob.has.it